

المناهل

مجلة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - المملكة المغربية

الصقراء المغربية:
بكر وإبداع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق
أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى
بما عاهد عليه الله، فسنؤتيه أجراً عظيماً.»

«سورة البقرة الآية 10»



عدد خاص بمناسبة مرور عشرين عاماً على المسيرة الخضراء

الصراء المغربية:
فكر وإبداع

الفهرس

8

تقديم للسيد وزير الشؤون الثقافية، عبد الله أزماني

★ دراسات :

- 11 عبد العزيز بنعبد الله : وحدة المذهب بين المغرب وصحرائه
- 20 عبد الهادي التازي : وثائق لم تنشر عن الصحراء المغربية
- 30 الحسن بن بوزينب : البيعة وارتباط الصحراء بالمغرب
- 49 مصطفى ناعمي : قوافل في خدمة المنتجين، الحراطين منقذو الأماكن المحروقة
- 67 محمد المعزوزي : حول قضية الحدود المغربية
- 77 الموساوي العجلاوي : التجارة الصحراوية : تجارة النحاس بين المغرب والسودان (ق 3-7 هـ/ 9-13 م) ..
- 95 نور الدين بلحساد : دفاع المخزن عن وحدته الترابية وعن حقوقه المشروعة في الأقاليم الصحراوية ..
- 120 الشيخ ماء العينين لارباس بن : بعض مظاهر حياة الصحراء المغربية فكرا وحضارة
- الشيخ محمد الأغظف : جوانب وحدوية في حركة الشيخ ماء العينين
- 132 محمد الظريف : الطباعة الحجرية بالمغرب وإشعاع الثقافة الصحراوية للشيخ ماء العينين ..
- 161 خالد بن الصفيير : الصحراء أرض الشعر ومهد التقاليد
- 182 محمد المختار ولد باه : اللغة الحسانية : أساس التواصل بين الجنوب والشمال المغربيين
- 189 محمد عالي خنفر : الشعر الحساني وكيفية صناعته
- 217 محمد عبد الرحمان الرباني : إشراقات من الشعر الحساني
- 222 الطالب بوي لعنتيك : علاقة أدباء الصحراء بالملوك العلويين
- 236 أبو بكر أوليـاس : شعر الصحراء المغربية : النشأة والريادة
- 255 محمد المختار المداح : الشعر المغربي وقضية الصحراء المغربية : أبو بكر الميرني شاعر في المسيرة الخضراء ..
- 277 مصطفى الشليح : من أعلام الثقافة في الصحراء المغربية : الشيخ مربيه ربه، العالم المجاهد ..
- 297 ماء العينين النعمة علي : جهود الجامعة المغربية في كشف ودراسة أدب الصحراء المغربية
- أحمد بومزكو :
- 324 محمد أمميدة :

★ قراءات :

- 341 مصطفى الجوهري : كتاب «ثقافة الصحراء» للدكتور عباس الجراري
- 351 سعيد الفاضلي : دغدغة في ألق الذاكرة : قراءة في كتاب «ثقافة الصحراء» للدكتور عباس الجراري

★ إبداع :

- 361 محمد الحلوي : موعد الصحراء
- 363 علي الصمـقـلي : البساط المخملي
- 365 أحمد عبد السلام البقالي : ملحمة المسيرة
- 371 عبد الواحد أخريف : قلائد المجد
- 373 أحمد بلحاج أية وارهام : أنا المغرب
- 374 محمد عبد الرحمان الرباني : قصيدة من الشعر الحساني في مدح أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني

★ نصوص/وثائق :

- 377 قصيدة للشاعر عبد الله الفاسي
- 379 مقطوعة شعرية للسلطان مولاي عبد الحفيظ
- 380 قصيدة للشاعر عبد الواحد الفاسي
- 382 قصيدة للشاعر الأمين بن اليدال الديماني
- 384 قصيدة للشاعر يحجب بن خطر
- 386 قصائد للشاعر أبو بكر الميرني
- 394 رسالة من مقدم الزاوية المعينية بفاس إلى مقدم الزاوية المعينية ببني نصار
- 395 تجديد الظهير المقدم للشيخ محمد الإمام في عهد جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله
- 396 رسالة من مربيه ربه إلى الفقيد عبد الله الجرسيفي
- 397 إجازة من الشيخ الهبة للفقيد عبد الله الجرسيفي
- 398 رسالة من الشيخ ماء العينين إلى مقدم الزاوية المعينية ببني نصار ..



جَمَاهِرِيَّةُ الْمَغْرِبِ
الْمَمْلَكَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ

• أفسح بالله العليّ العكيم، أن أبني وبني لروح المسيرة
الانفrazة، مكابها عن رجولة وطني، من الجوخاز الى الصحراء •
• أفسح بالله العليّ العكيم، أن ألقى هذا الفصح السمرتي
رعيتم تي، من مسجى وملا نيتي، والله سبحانه هو الرقيب
على كفو نيتي وصرف نيتي .

كهنين

تقديم

مرت عشرون سنة على ذلك الحدث التاريخي المتمثل في إعلان جلالة الملك الحسن الثاني عن تنظيم مسيرة سلمية خضراء لتحرير الأقاليم الصحراوية، هذه المسيرة التي شكّلت رؤية وطنية عميقة الجذور منبثقة من روح حضارية متأصلة، وإبداع فكري وسياسي لاستكمال الوحدة الترابية للمملكة المغربية.

وعشرون سنة فترة زمنية تسمح للمبتأمل في هذا الحدث باستنباط العديد من القيم والأفكار، باعتبار أن هذه المسيرة قد غدت علامة متميزة خلال القرن العشرين.

وإذ تُخصّص وزارة الشؤون الثقافية هذا العدد من مجلة «المناهل» للصحراء المغربية، فإنّها تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، منها : أنها تسجل لحظة تاريخية وإشراقة فكرية حسنة في نهاية عقدها الثاني، ومنها : لفت الانتباه إلى زاوية لم ينتبه إليها إلا قلة من الباحثين، ونقصد بها الجوانب الفكرية والثقافية لهذا الصقع الصحراوي المغربي الذي يعتبر رافداً ثراً لحضارتنا الوطنية.

وحيثما نستهدف من خلال مادة هذا العدد محاولة كشف معالم ثقافة الصحراء المغربية، فذلك إيماناً منا بأن الروابط الثقافية والفكرية التي تجمع بين المغرب وصحرائه، متعددة وعميقة، ناهيك عما يثيره هذا الجانب من أسئلة علمية يمكن أن تشكّل حقلاً معرفياً خصباً للدراسات والأبحاث الأكاديمية، علماً بأنّ تنوع البيئة المغربية جغرافياً وبشرياً قد أفرز تنوعاً ثقافياً أكسب الفكر المغربي خصوصية وغنى، ومن ثم لم تكن العطاءات الثقافية قصراً على المدن الكبرى، بل

لقد تعددت المراكز الثقافية وانتشرت في المدن التاريخية الكبيرة، وفي البوادي والقرى كذلك. إن تاريخنا الثقافي قد دون الحياة العلمية والأدبية لمدن وحوضر كثيرة⁽¹⁾ وأثبت بذلك غنى البيئة الثقافية المغربية. وحظيت مناطق عديدة بعناية الدارسين واهتمامهم لأسباب تاريخية وأدبية، وأخرى لم يُلْتَفَت إليها بالقدر المطلوب. وكانت الصحراء المغربية من بين تلك المناطق التي ظلت، بسبب ظروف الاحتلال الاستعماري، مغيبة عن مجال البحث والدراسة، وبقي تراث المنطقة دون حجاب.

وهكذا فمن بين أهداف هذا العدد من مجلة «المناهل»، التنبيه إلى شقٍّ من هويتنا في معقل أصيل لهذه الهوية. إن الصحراء كانت على الدوام مُنْطَلَقاً للعديد من الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب، بل إن هذا الفضاء كان يشغل عبر التاريخ موقعاً متميزاً في الثقافة العربية ككل. ومن هنا كانت ضرورة الاهتمام بثقافة الصحراء المغربية وفكرها؛ فالبحث في تراث هذا الإقليم من وطننا يكمل صورة الثقافة الوطنية التي تتميز بالتنوع والغنى. ونظرة على ما كشفتها الأبحاث الجامعية في هذا المضمار تؤكد أن البيئة الصحراوية المغربية قد أنجبت العديد من العلماء، والفقهاء، والأدباء، وقدّمت عبر التاريخ أسماء تركت ميسمها واضحاً في تاريخ الحضارة المغربية. إن اسماً كأبي بكر بن ابراهيم المعروف بابن تافلويت مثلاً، يظل علامة بارزة في عهد المرابطين، كما أن عالماً في حجم أحمد بابا التنبكتي، صاحب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، لا يمكن لدارس الأدب والعلم والفقه أن يغفله أو يتجاوز أعماله. وكلما تقدّمت في التاريخ إلا وصادفتك أسماء نوابغ في مجالات معرفية مختلفة قد يصعب

(1) - على نخط ما نجده فيما خلده الكاتب الصحراوي الكبير أحمد بن الأمين الشنقيطي، صاحب كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، وكذا فيما نجده في كتابات محمد بوجندار، وعبد الله بن العباس الجراري في اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين، ولمدينة سلا فيما كتبه محمد بن علي الدكالي في «الاتحاف الوجيز» وغيره. وقد خلد محمد المختار السوسي بلاد سوس ثقافياً في تأليفه الشهيرة مثل «المعسول» و«سوس العالمة»، كما سجّل محمد بن جعفر الكتاني جانباً من عطاءات فاس الثقافية في كتابه «سلوة الأنفاس». ... الخ

حصرها. بيد أن الحديث عن ثقافة الصحراء المغربية، ولو في عجالة، يقتضي الإشارة إلى عالم كبير أفرزته هذه البيئة الصحراوية، وكان له إشعاع قوي داخل البلاد المغربية ثقافياً وسياسياً، ألا وهو العالم الشيخ ماء العينين، الذي يعتبر انتاجه الفكري والأدبي من أهم المعالم التي تؤكد قوة تلك الروابط التي تجمع بين المغرب وصحرائه في الجانب الثقافي، ناهيك بالدور الذي لعبته الزاوية «المعينية» في إذكاء الروح الوطنية وإغناء الحياة الفكرية بالصحراء المغربية. إن تاريخ الثقافة المغربية إذا أريد له التدوين العلمي السليم، واستكمال ملامحه النيرة، لا مندوحة عن دراسة مختلف بيئات هذه الثقافة، ويُعدُّ الالتفات إلى حضارتنا وهويتنا في الصحراء، وفي مرحلة تاريخية كالتى يمر بها المغرب اليوم، واجباً وطنياً، فضلاً عن كونه هماً معرفياً. وتبتغي مجلة «المناهل» من إثارة هذا الموضوع الإشارة إلى الجهود التي تبذل في بعض الأعمال الجامعية، لتجميع تراث هذه المنطقة وتقديمه للمهتمين والدارسين بشكل علمي موثق، فيغدو بذلك وثيقة تخزن معلومات قيمة، من بينها تلك الروابط العلمية والأدبية العريقة التي تجمع بين شمال المغرب وجنوبه منذ أقدم العصور.

وأمل مجلة «المناهل» من إصدار هذا العدد الخاص، في الذكرى العشرين للمسيرة الخضراء، هو أن تكون موفقة في تحقيق بعض آمال جلالة الملك الحسن الثاني، يوم أن حمل هذه المجلة تلك الرسالة الجليلة، من خلال توجيهه السامي في أن تصبح «مورداً غزيراً سائغاً من موارد المعرفة، يرده المثقفون باستمرار ويرتوي منه، على تراضي الأيام وتعاقب الأعوام، عُشاق الأصيل والجديد، والطريف والتليد»، وهي آمال نسعى دوماً في وزارة الشؤون الثقافية إلى تحقيقها في المستوى الذي يطمح إليه أمير المؤمنين حفظه الله وأيده، لتظل «المناهل» وسيلة سامية لخدمة الثقافة الوطنية في مستوى علمي رفيع نريده أصيلاً مفعماً بروح وطنية عميقة أثيلة، والله سبحانه وتعالى الموفق إلى الصواب.

عبد اللم أزمانى

وزير الشؤون الثقافية

دراسات

وحدة المذهب بين المغرب وصحرائه

عبد العزيز بنعبد الله(*)

منذ عشرين سنة انطلقت (المسيرة الخضراء) بوحي من صاحب الجلالة الحسن الثاني حفظه الله وكان قد هيا لها جلالته في تودة وسرية كاملة ممهدا لهذا العمل البطولي بإثارة الجانب القانوني لقضية الصحراء أمام (محكمة لاهاي) الدولية، وبعد أشهر قضتها المحكمة في دراسة الملفات المقدمة من طرف كل من المغرب، وموريطانيا، والجزائر، تقدم القاضي الانجليزي بسؤال ذكي حول مذهب الإمام مالك الذي هو المذهب الوحيد بالمغرب الأقصى، في حين تنتشر مذاهب أخرى بالجزائر بالإضافة إلى مذهب الخوارج، فكان السؤال يهدف إلى معرفة المذهب المنتشر في الصحراء هل هو مذهب الإمام مالك أو غيره، فتأكد من الحجج التي قدمها المغرب مدى تعلق الصحراويين بكل المجالي والمجالات التي يتسم بها الكيان المغربي وفي ضمنها المذهب المالكي، واستجابة لسؤال القاضي الانجليزي صدر الأمر السامي من صاحب الجلالة نصره الله بإعداد دراسة في الموضوع فكلفت آنذاك بوضع تقرير باللغة الفرنسية ندرج فيما يلي خلاصة عنه باللغة العربية وكنت قد أصدرت آنذاك (معلمة الصحراء المغربية) وأعددت بالفرنسية مصنفا آخر بعنوان (الحقيقة حول الصحراء) صدر بفرنسا (Vérité sur le Sahara) (طبعة هورفات Horvath عام 1977).

(*) عضو أكاديمية المملكة المغربية.

إن من تتبع بدقة شبكة تطور الفكر المذهبي في إفريقيا يلاحظ بانهاش أن خطوط هذه الشبكة وحدودها تعانق أطراف خريطة واسعة ترسم أجزاء المغرب بسهوله وجباله وصحرائه، فلننظر إلى خريطة إفريقيا ولنتابع كيف دخل المذهب المالكي وكيف تطور ولماذا اختار بعض المناطق أو اختارته دون غيره، ولماذا عانق هذا الاختيار بدقة علمية متناهية يقف أمامها العالم الجغرافي مشدوها.

ويمكن رسم معالم هذا الخط على المراحل الآتية:

إن منبع الإلهام الفقهي والأصولي انبثق من مصدر الإسلام الأول وهو مدينة الرسول عليه السلام، وقد كان هذا العامل أول باعث على حصر اختيارات المغاربة في مذهب الإمام مالك لسببين هما: إن المدينة المنورة هي إطار هذا المذهب ولأن عمل أهل المدينة هو منبعه ومثاره وإذا اعتبرنا أن المغرب عاش فترة مخاض في تاريخه سماها كوتى بالعصور الغامضة تأرجح خلالها بين مذاهب أبي حنيفة والشافعي والأوزاعي وبعض الاتجاهات الخارجية والرافضية، فإن نهاية القرن الرابع كانت بداية استقرار في الاعتبار والاختيار بالمغرب وحتى في هذه الفترة وبالنسبة أيضا لمذهب الخوارج فإننا نلاحظ أن المدينة المنورة كانت مصدر الإلهام حيث توجه العالم سمكو بن واسول والد أمير سجلماسة المدراري إلى المدينة المنورة لأخذ أصول العقيدة الخارجية عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس، ومع ذلك فقد شعرت الدولة المدرارية التي تأسست عام 140 هـ/757 م أنها على غير صواب، فاختار أميرها الشاكر لدين الله في منتصف القرن الرابع مذهب مالك

مستعيبا باتجاهه الوجدوي عن الخطب الفكرية الذي عاشت فيه الصحراء آنذاك نحا من قرنين، ولم يكدي نصف القرن الخامس حتى هب المثلثون من الصحراء في حركة تآزرت تلقائيا مع الاتجاه العام الذي كان سائدا آنذاك في المغرب والأندلس، فاستأصلوا الشيعة الموسويين في أغمات، والروافض بالأطلس الكبير (حسب البكري وابن حوقل) والبجليين (بماسة وتارودانت) كما قضوا على النحلة البرغواطية التي انحدرت من فكرة خارجية شرقية دخيلة تمكنت إلى الآن في الجزائر وتونس بالإضافة إلى مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة.

وفي نفس الوقت كانت فاس ملتقى لمذاهب السنة وخاصة مذهب الإمام مالك الذي أقام أصوله المولى إدريس الأكبر بإسناد منصب القضاء لأول شخصية عربية هي محمد بن سعيد القيسي تلميذ الإمام مالك وسفيان الثوري. (الجدوة ص 13).

وإذا كانت هنالك في المغرب مظاهر خارجية عن مذهب مالك، فإنما هي اختيارات حرة استمرت إلى القرن الرابع حيث أصبحت جامعة القرويين منبع المعرفة المقارنة في إفريقيا قبل جامعة الأزهر بمائة عام، وقد نقل أبو جيدة الفاسي من الشرق وثائق شافعية، وقد توفي عام 360 هـ/970 م (السلوة ج 3، ص 13).

والواقع أن مدينة فاس بفضل مؤسسها المولى إدريس الذي يعتبر أول وآخر مثال في تاريخ الإنسانية لرجل دخل وحيدا فريدا عدا مولاه راشد فالتفت حوله (عام 177 هـ/793 م) قبائل البربر عن بكرة أبيها كما قال ابن خلدون وهي المستعصية التي لم ترضخ قبل ذلك لأحد، وتعزز ذلك منذ تأسيس القرويين بالتفاف قرطبة

والقيروان حول فاس حيث هاجرت أربعمئة أسرة قيروانية مثل آل الفهري الذين أسسوا جامعة القرويين وثمانية آلاف عائلة (أو ثمانمئة في رواية أخرى) من قرطبة بعد ثورة الربضيين، وكان ذلك بزعمامة رجل بربري من طنجة من قبيلة نفزة، وهو يحيى بن يحيى الليثي المتوفى عام 234 هـ/848 م. وقد سمع الموطأ من مالك وسفيان بن عيينة (التهذيب ج II ص 300/النفح ج I، ص 332/ابن خلكان ج 2، ص 216/جذوة المقتبس، ص 359/المغرب ج I، ص 163/ابن الفرضي ص 44 الديباج ص 350). ومن الغريب أن كلا من الأندلس والمغرب اتجاها نفس الاتجاه حيث ألزم هشام بن عبد الرحمن الأموي كافة أهل العدو الشمالية بمذهب مالك، وذلك بدعوة من يحيى الليثي النفزاوي (ونفزة التي يرجع إليها نسب ابن أبي زيد القيرواني وآل بناني) وأول من نزل منهم بالصحراء في القرن الخامس هو محمد الصديق بناني حيث توغل داخل الصحراء إلى السودان. وتتشخص قبيلة نفزة الصحراوية في زينب بنت اسحاق النفزاوي الهوارية التي كانت زوجة أبي بكر بن عمر الكدالي ثم يوسف بن تاشفين بعده.

فمذهب مالك تعزز إذن في الأندلس بحركة نابعة من المغرب في شخص يحيى الليثي الذي كان قاضي القضاة عند الأمويين كما تعزز في إفريقية بفضل مرونة سحنون (الجذوة ص 360) بالإضافة إلى الاعتراف بالجميل للامام مالك الذي ساند العلويين ضد خصومهم العباسيين ببغداد، ولم يكد المرابطون يدخلون مدينة فاس خلال القرن الخامس حتى اتجهوا في تعزيز جامعة القرويين فوسعوا بلاطاتها وأوصلوها إلى ما هي عليه الآن، مندهشين مما لاحظوه من تقاطر رواد المعرفة والفكر عليها من الأندلس وإفريقيا

الشمالية حيث تجلت وحدة الفكر المذهبي في مظاهر مختلفة كان أقلها الاستناد في قراءة القرآن منذ القرن الرابع إلى قراءة نافع من حدود ليبيا إلى حدود السودان، وكذلك على عملية الوقف الهبطي تبسيطا لتلقين القرآن في الكتابات التي كانت مجرد جناح في المسجد امتد إلى الصحراء بنفس الاسم حتى سميت قرية في شنقيط بالامسيد في حين أن الكلمة المستعملة في الشرق هي الكتاب وفي السودان الشرقي الخلوة.

ولا يخفى أن العالم ميمون الصحراوي المتوفى 506 هـ (وقيل 530 هـ حسب ابن الأبار) هو شيخ القاضي عياض (الاعلام للمراكشي ج 7، ص 239) إمام المذهب المالكي في المغرب وصاحب المدارك التي هي سجل رجالات المذهب حيث نوه بانتشاره آنذاك (ص 65) في المغرب الأقصى والصحراء إلى بلاد من أسلم من السودان باستثناء المغرب الأوسط الذي كانت فرق الخوارج الصفرية والاباضية قد تغلغت فيه وخاصة في بلاد الزاب وحول تلمسان وتاهرت.

وقد كان تمسك الصحراء بمذهب الامام مالك أوثق وأبلغ إذ عن طريق هذا المذهب تأسست الدولة المرابطية منبثقة من الصحراء بدافع من واجاج بن زلو الذي اختار عبد الله بن ياسين بإيعاز من أبي عمران الفاسي إمام المذهب في تونس، ولذلك كان أهل الصحراء يهتمون بحفظ شيئين اثنين في مقدمة ما يحفظون، وهما كتاب الله بقراءة نافع ووقف أبي جمعة الهبطي ومدونة سحنون حتى ذكر اليوسي من رجال القرن الحادي عشر في حديثه عن الرجراجيين أن أهل دغوغ الذين انتشروا في المغرب وصحرائه

كان يحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب 6760 من الرجال وخمسمائة من النساء (المعسول ج 4، ص 9) ورغم ما قد يكون في ذلك من ايغال فهو يعطينا صورة عن قوة مذهب مالك في الصحراء، وقد ذكر المؤرخون أيضا أن أهل رجراجة في الساقية الحمراء وما والاها حفظ منهم القرآن والمدونة ثلاثمائة امرأة. وقد شاهدت في أرباض تافراوت قبور عشرين امرأة ممن كن يحفظن المدونة، ومعلوم ان العتبية التي انتشرت في المغرب وصحرائه صنفها محمد ابن أحمد بن عبد العزيز العتبي تلميذ يحيى بن يحيى الليثي وان كان أيضا تتلمذ لسحنون.

واذا حاولنا أن نستعرض الحجج الشاهدة بمدى تغلغل مذهب مالك في الصحراء انطلاقا من جامعة القرويين، فلن تكفيينا مئات الصفحات ولدي من ذلك قوائم مدرجة في كتابي «معلمة الفقه المالكي بالمغرب». ولنضرب لذلك أمثلة بسيطة في خصوص مصنفات مختصر الشيخ خليل وتحفة ابن عاصم ولامية الزقاق (خج 1360 د)

فقد شرح مختصر خليل أحمد بن بابا السودانى التنبكتي ومحمد بن عبد الكريم القواتي كما ألف الأول في مبهمات خليل (مخطوط في خم 4975) وشرح صغرى السنوسي في عقيدة المذهب، وقد نظم محمد يحيى الولاتي منهج الزقاق وشرح محمد بن محمد الدليمي لا ميته (خم 8921) (خج 2140 د) وشرح بايا بن أحمد بيبا الشنگيطي، التحفة العاصمية، وألف محمد بابا الصحراوي كتابا في الأصول لدعم مذهب مالك، وكان محمد بن يوسف الركائبى مرجع الصحراء في فقه مالك حيث كان لا يجارى في الفتاوى في

فقه المذهب وهو خريج القرويين ومن إخوته الخليل الفقيه المشهور في القضاء والفتوى، وممن تخرج من القرويين أيضا الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الشنجيبي المتوفى عام 1224 هـ/1809 م، وقد برز في المذهب على أهل عصره، وكان شيخ الجماعة بفاس مدة إقامته بها، ومعلوم أنه عن طريق الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن القندوسي المتوفى عام 1244 هـ انطلق الاسناد لكثير من العلوم الشرعية وخاصة في مذهب مالك في الصحراء وحدها، بل حتى في شمال المغرب عن طريق المسند الفقيه السيد التهامي ابن رحمون.

وحتى بين النساء نجد العديداً مثل الغالية بنت ابراهيم السباعية التي تخرجت في الحوض بالصحراء والتي كانت تحفظ مختصر خليل، وكان لها باع طويل في فقه المذهب وخاصة الفرائض، وقد تمسك ولدها الحاج عبد الله الجراري بمذهب مالك رغم دراسته في الأزهر حيث عاد إلى طرفاية عام 1311 هـ/1893 م بعد أن أقام في رواق المغاربة وجال في أفغان والهند والافغان، وكانت شيخات العلم تدرسن مختصر خليل لجموع النساء كالعالمات الكنتية زوجة الشيخ المختار التي ختمت المختصر في درس خاص بالنساء في نفس الوقت الذي ختم زوجها درسه للرجال، وقد ألف فيهما ولدهما العلامة محمد بن الشيخ المختار كتابه «الطريقة والتالدة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة» ويوجد بخزانة جامعة القرويين (حق ل 779/40) دفتر في مجلدين لوثائق فقهية في شأن أصول أملاك المزابيح قرب وادي كير والساورة على مذهب مالك. وذلك من قبل زوجة المولى اسماعيل أم مولاي زيدان عام 1111 هـ/1699 م.

وإذا راجعنا لأئحة الكتب الدراسية التي كانت مرجع فقهاء الصحراء نجدها لا تختلف عنها في جامعة القرويين، وقد أعطانا أحمد بابا السودانى في ترجمته عن نفسه صورة لذلك (كفاية المحتاج والاعلام للمراكشي ج 2، ص 100) كما تتجلى وحدة المنهجية وطرق التدريس بين السهول والصحراء في المغرب الواحد، فيما كتب من دراسات في الموضوع (المعسول ج 13، ص 10)، ومن ذلك ان الطلبة كانوا يكتبون في مجموع المغرب أسفل ألواح القرآن متون المرشد المعين والمختصر والتحفة في مذهب مالك.

وكان ملوك المغرب وخاصة العلويين الاماجد يستعينون برجال الفتوى من علماء المذهب في الصحراء، مثال ذلك محمد البوهالي الركائبي الذي استقدمه جلالة الحسن الأول عام 1291 هـ 1874 م، وعاش في بلاطه عشر سنوات ثم عاد إلى باعمرانة وباقي الصحراء مزودا بتكوين أقوى في مدرسة القصر العامر التي كانت منبرا يتبارى فيه كبار العلماء وخاصة في الجاس الملوكية وكان التبادل موصولا يدل عليه وجود قضاة صحراويين متعددين في الحواضر مثل عثمان التواتي قاضي سلا المتوفى عام 1158 هـ ومعلوم أن العمل السجلماسي في تدوين ماجريات فقه المذهب يعزز العمل الفاسي وكلاهما مستعمل في السهول والجبال والصحراء إلى حدود النيجر، لان قاضي تارودانت عاصمة سوس، كان هو قاضي القضاة ينسحب نظره على كل قبائل الصحراء التي كانت تشكل كما يقول سيدي العربي بن السائح في بغيته (ص 74) بلدا هو أقصى المغرب. ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر الاقاوى الذي تولى القضاء بظهير شريف مؤرخ ب 1124 هـ كقاضي للقضاة ومفتي أكبر في تخوم الصحراء، وقد تحدث صاحب كتاب «أربعة

قرون من تاريخ الصحراء» الأستاذ مارتان عن ظواهر تعيين القضاة في الصحراء الشرقية طوال أربعة قرون (راجع خاصة القضاء في توات ص 314) ومنهم أيضا أحمد دوكنا بن محمد المختار مفتي تيندوف الذي كان مرجع الصحراء كلها في الفتيا، ومن مظاهر اعتزاز فقهاء الصحراء بالمذهب المالكي انهم كونوا ما سموه بطريق الفقهاء، وهي سبيل الحجيج من مصر إلى المغرب تمر عن طريق فزان وتوات لا عن الجزائر (راجع رحلة ابن مليح التي أشار إليها صاحب الاعلام ج 4، ص 276).

وهناك مئات أعلام الفقه المالكي من المغاربة عينوا قضاة في حواضر الشرق العربي كقضاة مالكية نظرا لما عرف به علماء المغرب سهولا وصحراء من ضلعة وعمق في هذا المذهب بين اخوانهم المالكية في العالم الاسلامي، وقد تولى يونس بن طربية القصرى (من قصر كتامة) قضاء طرابلس الغرب كما تولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام 641 هـ/1243 م. (تكملة الصلة لابن الآبار ج 3، ص 741) ولدينا قائمة لهؤلاء العلماء الذين تولوا القضاء أو تدريس الفقه المالكي في الشرق.

وثائق لم تنشر عن الصحراء المغربية

عبد الهادي التازي(*)

كم هي كثيرة وكثيرة جدا الوثائق الدولية التي تتعلق بالصحراء المغربية، ولقد أتاح لي حضوري كعضو خاص لهذا الغرض (AD Hoc) في محكمة العدل الدولية بلاهاي يوليو 1975، أي قبل عشرين سنة، أتاح لي ذلك الحضور ضمن الوفد المغربي، الذي كان يرأسه السيد الأستاذ ادريس السلاوي، أن أتعرف على المزيد من المعلومات التي تتصل ببلادنا.

فلقد كانت المحكمة - لكي تحسم في أمر الذين يقولون انهم «معنيون» أيضا بأمر الصحراء - ألقت سؤالا على مختلف الجهات حول المذاهب الفقهية المعمول بها في الصحراء، وكان السؤال على هذا النحو:

نظرا للأهمية التي أعطيت أثناء المناقشات للترابط الديني فان الرئيس يضع السؤال التالي على الهيئة المغربية والموريطانية والجزائرية: لقد فسر لنا بأن السكان المغاربة وسكان الصحراء الغربية مسلمون سنيون ينتسبون إلى المذهب المالكي، فهل إن هذا الانتماء للمذهب المالكي هو خاصية تميز سكان المغرب عن باقي الجهات الأخرى، مثلا عن سكان الجزائر الجارة.

(*) أستاذ جامعي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ولقد كان جواب المغرب - فيما أذكر - على هذا السؤال أن بلادنا تتميز عن الجيران:

أولا بأن تشبثنا بالمذهب المالكي بلغ حدا بحيث لم يوجد له ولا يوجد له إلى اليوم منافس أو مزاحم يستطيع أن ينال منه سيما إذا عرفنا أن بلد المغرب الأقصى ظل الدولة الوحيدة التي حافظت على كيائها عبر التاريخ ولم تستطع أية جهة أخرى أن تقحمها بما في ذلك العثمانيون الذين استولوا على بقية أقطار الشمال الأفريقي وكانوا يحملون معهم المذهب الحنفي.

ثانيا: أن الرحالة المغاربة الذين كانوا يقصدون بلاد المشرق سواء أكانوا من شمال المغرب أو من جنوبه، كانوا يشعرون بالمفاجأة عند تخطيهم الحدود المغربية، بما يرونه من مذاهب أخرى منتشرة بتلك البلاد وكانوا كلهم يعبرون عن ارتياحهم من واقع الأمر في بلادهم، ذلك الواقع الذي يتمثل في توحيد المغرب على مذهب واحد، هو المذهب السني المالكي، ومن جملة هؤلاء الرحالة ابن بطوطة الذي تجول في المشرق خلال القرن الثامن الهجري، وكذا الوزير الأسحافي الذي زار تلك البلاد المشرقية عام 1143-1731.

ثالثا: أن المخزن يعني الحكومة المغربية، كان يشترط في الشخصيات السامية، التي تتولى مناصب القضاء بالمغرب، أن تكون ملزمة بالمذهب المالكي بل وملزمة بتدريس أمهات هذا الفقه في المناطق التي يحكمون فيها، مثل رسالة أبي زيد القيرواني ومختصر الشيخ خليل، وهما المادتان اللتان كانتا تدرسان في سائر بلاد المغرب، وهذا يخالف الحال في البلاد المجاورة، فإن هناك

مذاهب أخرى كانت وما تزال منتشرة ولكل منها قضاؤها ومحاكمها.

رابعا: ان هذا المذهب السني المالكي كان يسود بالنسبة للمغرب في كل الثغور والمدن التابعة للدولة المغربية التي وردت مفصلة مدينة مدينة ابتداء من وادي الذهب جنوبا إلى ما وراء مليلية شمالا وذلك في وثيقة (الشفرة) المستعملة في بداية القرن الذي نعيشه اليوم.

خامسا: ان المغاربة - بالرغم من تقديرهم للمذهب الحنفي كمذهب - كانوا يعتزون أيما اعتزاز بمذهبهم المالكي، وكانوا ينعتون الشخص الذي يعتمد على الحلول السهلة بأنه «مسلم حنفي».

سادسا: ان من عداد الأسباب التي جعلت المغاربة يقاومون المد التركي العثماني نحو بلادهم، علمهم بأن هؤلاء الأتراك يعتنقون مذهباً غير المذهب المالكي الذي ورثوه عن أجدادهم وأسلافهم.

سابعا: ان جل المخطوطات - ان لم نقل كل المخطوطات - المحبسة على الخزائن العلمية الكبرى، سواء في شمال المغرب أو جنوبه أو شرقه أو غربه، كلها كتب فقه للمذهب المالكي، ويكفي أن نعرف أن مدينة فاس وحدها كانت تحتوي على مائة وأربعين كرسيًا لتدريس الفقه المالكي.

ثامنا: وهنا يصح القول بأن المذهب المالكي ليس فقط شعارا للدولة المغربية، ولكن الدولة المغربية أصبحت مدرسة متخصصة به بحيث إذا قيل، إن فلانا من المغرب فإن معناه أنه سني مالكي.

ذكرت كل هذا اثباتاً لهذه الوثائق التاريخية أولاً ثم لاخلص إلى وثيقة دبلوماسية ثانية كانت من جملة الوثائق التي لم تنشر مما كان يتعلق بموضوع الصحراء ويتعلق الأمر بالرسالة الهادفة التي وردت الإشارة إليها في موسوعي «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، المجلد التاسع، ص 60-61 عند الحديث عن الحدود الجنوبية والشرقية للمغرب فلقد ورد في هذا المجلد مايلي:

«... وإذا ما واكبنا العاهل المغربي سيدي محمد بن عبد الله - وهو سيد البلاد - سنجده أولاً يقوم - في بعض رسائله - لحاكم جبل طارق بتاريخ 6 شوال 1178 هـ (29 مارس 1765) بتبليغ انذار إلى ملك انجلترا بعدم تجاوز الخط 23 گراد⁽¹⁾ جنوب المغرب حيث كان يتجر الفرنسيين، ويطلب إليه نشر هذا الخبر عند الميرانطيين وجميع الرياس من جنسهم ليتجنبوا مثل هذا الأمر... وقد قدمنا إليكم هذا على وجه الانذار والاعلام...»

ورغبة في اشاعة الفائدة وخاصة بالنسبة لزملائنا وطلبتنا، أسوق النص العربي الكامل للرسالة الملكية ونأتي كذلك بترجمتها إلى الانجليزية عن هوبكنز HOPKINS وكذلك بالترجمة الفرنسية عن الأستاذ سعيد النجار، تقول الرسالة :

(1) يلاحظ أن مدلول گراد غير مدلول دوگري.. ومعنى هذا أن الحدود المغربية الجنوبية كانت على ذلك العهد تتجاوز الرأس الإيبيري على ما تذكره مصلحة الخريطة.. «الدكتور عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 9، ص 60، تعليق 55».

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطابع السلطاني الكبير

بداخله: محمد بن عبد الله بن اسماعيل

الله وليه ومولاه

وبدأثرته بيت الامام البوصيري:

(ومن تكن برسول الله نصرته * إن تلقه الأسد في آجامها تجم)

إلى حاكم جبل طارق،

سلام على من اتبع الهدى

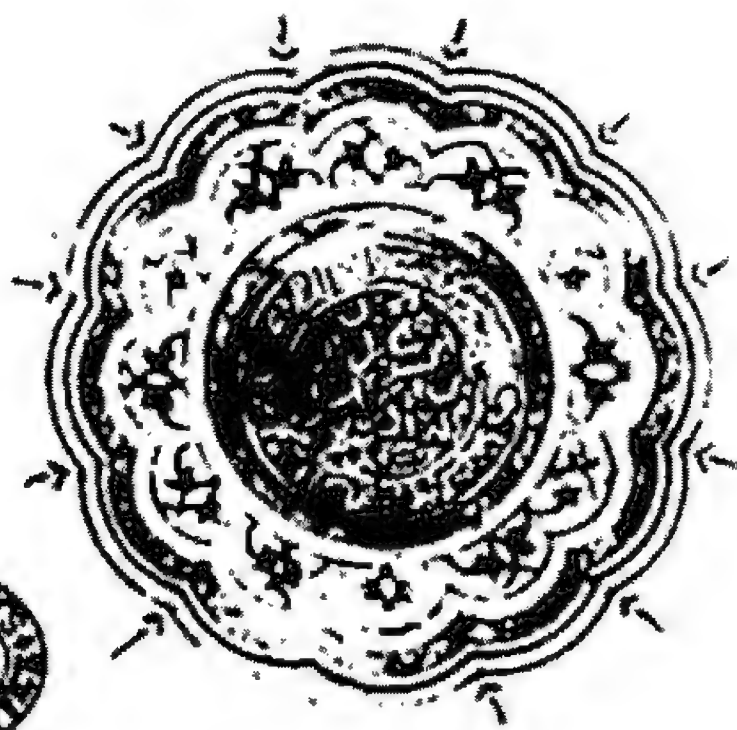
أما بعد، فقد اتصل بكريم علمنا أن مركبا من مراكب الانكليز خرج من الوندريس وأرسى بمرسى خنيق الحمام تحت وادي نون، وجعل يوسق من أهل تلك الناحية العبيد والمسائل التي يجب عليهم فيها الوظيف لجانب المملكة أعزها الله، ولم يصدر هذا الفعل من جنس من أجناس النصاري على عهد سيدنا مولانا اسماعيل قدس الله سره، وذلك الموضع يسكنه بعض العرب يقال لهم المغافرة وهم من أخواننا، وهو معدود من طاعتنا، ومندرج تحت مملكتنا إلى ثلاثة وعشرين أكراد، وما تجاوز ثلاثة وعشرين أكراد، يبقى مباحا لهم ولغيرهم، ولا كان سببا في إثيان هذا المركب المذكور إلى الموضع المذكور إلا نصراني كريكلي اسمه يوسف الفرنجي، وهو مشؤوم غالب عليه النحس فما تحرك في شيء إلا كانت عاقبة خسرا، وقد أمرنا قراصيننا وشددنا عليهم بأن كل من وقعوا من ثلاثة وعشرين أكراد من الموضع المعروف في القديم للفرنصيص كانوا يتجرون فيه إلى ناحية إيالتنا، يأخذونه ويذهب هدرا المركب بما فيه، وعليه فنامرك أن تكتب لطاغييتكم وتعلمه بهذا الأمر الواقع لينتشر به الخبر عند الميرانطيين وجميع الرياس من جنسكم، ليتجنبوا مثل هذا الأمر ويبقى الصلح بيننا وبينكم على حاله ولا يقع فيه نقص، وقد قدمنا إليكم هذا على وجه الإنذار والإعلام ولم تبق لكم حجة بعد ذلك ولا معذرة تقبل.

صدر الأمر بكتبه سادس شوال عام ثمانية وسبعين ومائة ألف.

إنذار من المغرب لالمجلترة

6 شوال 1178/29 مارس 1765.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَهَذَا حَقُّهُ فَوَ اللَّهِ إِنَّمَا نَعْلَمُ نَعْمِهِ



اني خايكم خيل كلار و سلام على من اتبع الهدى اما بعد فعنه انقل بحكم علمنا ان من جعل من تركب
 الا نكلمه خرج من امره ندم و ير و ارش من شى حينئذ النجاة نعم و اء نور و جعل يوسف من انسل تلج الناحية
 القية و التسليل الى حجب عينتهم بهذا النوكيف يذاب المملكة امه هذا الله ولم يخذ و هذا النعل و من
 من من اخذ من الشار و على عنه سرتنا مرانا انما عيل قد من الله به و لا النوضع بكنه بغض انى يقال لهم
 المغلج و هم من اخرا نلا و هو مفع و ما من كما عتلا و من ربح وقت مملكتنا الى ثلاثة و عشر من اخرا و ما
 نغاور ثلاثة و عشر من اخرا بشفق ميل حاتم و لغيرهم ولا كان ميله انيل من انركب المذكور الى النوضع
 المذكور الا نخراسي كركب اسمه يوسف النعى شى و من مشوع غالب عليه النفس بملا قمر و به شى الا كانت
 عافيتهم مشرا و قرأ من نلا قرأ صيلة و شدة فاعلمهم بان كل من وقعوا من ثلاثة و عشر من اخرا من النوضع
 المعنوم و ما الغريم ليعنى عصير كانوا يتجهزون به الى ناحية ايا لقتل يا خرونة و بيزه هه را نركب علمهم
 و عليه بنا و ما ان تكتب لك اغبتكم و تعلمه بهذا الا من النواقع ليستش به النعم من را ليز انهم و جميع الى ياس
 من جنحكم ليتجهزوا مثل هه را الا من و شى النفع بيش و ينيكم على حاله ولا يدع به نقص و قر
 قد ميل اليكم بناء على وجه الا نزلوا و سلام و لم تتركهم هجة بعده لدا ولا معز و تفيل
 صررا الا من يكتبه ساء من مشرا اعلم ثمانية و سبعين و مائة و الف

In the name of God the merciful, the compassionate.
There is no strength nor power except in God the lofty, the mighty.
[Seal of Muhammad I]

To the governor of Jabal Târiq. Peace be upon him who follows the right way.

It has come to our noble Knowledge that one of the ships of the English departed from London (al-Lûndrîs i.e. Londres) and anchored at the port of Khunig al-Hamam below Wâd Nûn and proceeded to load, from the people of that district, slaves and merchandise on which they should pay duty to the Kingdom (may God strengthen it). No act of this kind was committed by any Christian nation during the era of our master and Lord Ismâîl (may God sanctify his spirit). That place is inhabited by certain Arabs called the Maghafira, who are our maternal relatives (akhwâl), and it is counted in what owes us obedience and is incorporated under our Kingdom as far as 23° (agrâd). What is beyond 23° remains open to them and others. The cause of the coming of this aforementioned ship to the aforementioned place was nothing but a Greek (Grîgî) Christian names Yûsuf al-Firanji. He is ill-starred, dominated by misfortune, and makes no move but its sequel is a loss. We have ordered our men-of-war and insisted to them that all those who are found from 23° (from the place known of old to the French, where they used to trade) to our territory, they may take them, and the ship and what is it and on it shall be forfeit. We therefore order you to write to your sovereign and inform him of this current order so that the news of it may spread to the admirals and all captains of your nation, so that they may avoid affairs of this kind and so that the treaty between us and you may continue and there shall be no falling short in it. We forward this to you by way of warning and information, and after this you will have no acceptable argument or excuse.

Ordered to be written 6 Shawwâl in the year 1178.

Au nom de Dieu Clément et
Miséricordieux

*Il n'ya de force et de puissance si ce n'est en
Dieu, Grand et Incommensurable.*

Le grand sceau Sultanien

Dans le champ central : Muhammad B.
°Abd Allâh B. Ismâcîl, Dieu est son
Protecteur et son Maître
Le pourtour porte le vers suivant
de l'Imâm al-Bûsîrî :
Celui qui attend son secours de l'Envoyé de
Dieu
Les lions eux-mêmes, lorsqu'ils le rencontrent
dans leurs fourrés se taisent.

Au Gouverneur de Jabal Târiq,

Il a été porté à votre connaissance qu'un bateau anglais est parti d'al-Lûndrîs (Londres), a jeté l'ancre au port de Khunîq al-Hamâm sous Wâdî Nûn, et a procédé au chargement d'esclaves et de marchandises provenant de la population de cette région et sur lesquels ils devraient payer un droit au Royaume (que Dieu lui assure la puissance). Aucun acte de cette nature n'a été commis par une quelconque nation chrétienne durant le règne de notre Maître et Seigneur Ismâcîl (que Dieu sanctifie son esprit). Cet endroit est habité par certains Arabes appelés al-Maghâfira qui sont nos parents maternels (akhwâl) ; il est placé sous notre obédience et fait partie de notre Royaume jusqu'à 23 agrâd. Ce qui est au delà de 23 agrâd leur est permis à eux et à d'autres. Celui qui a été la cause de la venue du bateau précité à l'endroit mentionné ci-dessus n'est autre qu'un Grec (Grîguî) chrétien appelé Yûsuf al-Firanjî, être de mauvais augure, dominé par l'infortune et dont toutes les entreprises ont une conséquence néfaste. Nous avons alors ordonné instamment à nos corsaires de se saisir de tous ceux qui seront trouvés depuis 23 agrâd (depuis l'endroit connu dans les temps anciens par les Français qui y commerçaient) vers notre Royaume. Aussi nous t'ordonnons d'écrire à votre Souverain et de l'informer de cette affaire, afin que les animaux et les capitaines de votre nation en soient avertis et afin qu'ils puissent éviter de telles situations et que la paix totale continue de régner entre nous et vous. Nous vous avons adressé ceci pour vous avertir et vous informer. Dorénavant, vous n'aurez plus d'argument ou d'excuse acceptables.

Ordonné pour être rédigé, le
6 shawwâl 1178 (29 Mars 1765)

ولقد وقفت على الصورة الأصلية لهذه الرسالة زوال يوم 1991/12/4 في (Public Record Office) تحت رقم 1، Ref. S.P./102/2 porl.

كان الخاتم الذي نراه فوق نص الرسالة محاطا بزخرف ملون أصفر وأحمر وأزرق، والعمودان اللذان يحفان النص مع ما فوق الرسالة كذلك بالألوان الثلاثة: الأصفر والأحمر والأزرق وتعتبر الرسالة في الواقع لوحة فنية رائعة من روائع المنمنمات ومن المعلوم أن هذا الختم بما يحتوي عليه من شعر الامام البوصيري.

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في أجامها تجم
أثار جدلا كبيرا في الأوساط الدبلوماسية الأوروبية وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية عندما وقف عليه لأول مرة في حياته الرئيس جورج واشنطن.

فلنرجع بعد هذا لقراءة الوثيقة المغربية قراءة جيدة سواء فيما تتضمنه من أعلام جغرافية من أمثال خنيق الحمام الذي يقع جنوب وادي نون.. هذا إلى بعض الاعلام الشخصية أمثال المغفرة..

ولابد لنا أن نشير إلى الصدى الذي خلفته هذه الرسالة التي تحتوي على إنذار موجه من المغرب إلى دولة كبرى.

وهنا سأربط بين هذه الوثيقة المؤرخة عام 1765 وبين الوفد الذي وجهه الملك محمد الثالث إلى العاهل الاسباني كارلوس الثالث بعد سنة من هذا التاريخ أي في عام 1766.. ففي هذه الرسالة الموجهة إلى ملك اسبانيا لم ينس العاهل المغربي أن يتحدث عما وقع من احتكاك بين المغرب وبين انجلترا في المنطقة. ولاشك أن قصد السلطان سيدي محمد بن عبد الله من التذكير بالحادث إنما هو

تنبيه ملك اسبانيا إلى أن لا يطمع اطلاقا في شبر من أراضي المغرب: «وإن كان لعظيمكم غرض في شيء وهو جائز في ديننا فإننا نقضيه».

ولاشك أن التسليم في الأرض من أبرز ما يحرمه الاسلام.. ومعنى كل هذا أن التفريط في التراب تفريط في الدين.

وأخيرا فإن من نافلة القول أن نذكر هنا بما يبدو في هذه الرسالة التي كانت تعكس الموقف الذي اتخذته الفرنسيون حيث كانوا يعترفون بامتداد سيادة المغرب جنوبا إلى درجة 23 غراد، وربما سجل هذا الاعتراف كتابة ومما يؤكد هذا استعمال الكلمة الغربية غراد بدلا من مرادفها المعروف درجة.

وملخص القول أن حكم المغرب ظل يضم الصحراء الغربية وهو أمر لم ينازعه فيه أحد إلى أن ظهرت حركة التوسع الأروبي خلال القرن التاسع عشر.

وبعد. فهذه صفحات من تاريخ صحرائنا يظل ديننا علينا تفقدها والتنقيب عنها من أجل تبصير ناشئتنا حتى تؤمن إيماننا بأنه ماضع حق وراءه طالبه.

البيعة وارتباط الصحراء بالمغرب

الحسين بوزينب(*)

لما ارتأينا معالجة موضوع البيعة والصحراء، كان هدفنا محاولة قراءة الحاضر على ضوء ما حدث في الماضي، معتمدين أولاً على ماتركه الاسبانيون أنفسهم، ثم على مالدينا من تراث يخصنا، قد يجهل هؤلاء أبعاده. فتداخل المصالح واختلاف الهويات جعل من المنطقة الأطلسية التي يتقاسمها المغرب مع الاسبان الكناريين، مسرحاً تقابلت فيه عبر التاريخ تلك المصالح وتواجه فيها الجيران لصد بعضهم البعض. لهذا سنرى أن فهم المشاكل الحالية في المنطقة تحتم علينا استرجاع الماضي لنجد أن التاريخ يعيد نفسه بطريقة أو بأخرى.

الصحراء وجزر الكنارياس

العلاقة بين الأرخبيل الكناري والشواطئ الصحراوية لا تحتاج إلى دليل لإثباتها. فالوثائق الاسبانية للقرن السادس عشر مثلاً، تتكلم على نشاط كناري مكثف في هذا الشواطئ، يخص سبي العبيد أو عتقهم. كما عرفت المنطقة ملاحاً من أجل أغراض أخرى. ففي إحدى رسائل Jeronimo de Vigil حاكم Gran Canaria المؤرخة في سنة 1553 يخبر فيها عن أشياء تهم المغرب، يقول: "من قديم الزمان وإلى يومنا هذا اعتاد أصحاب هذه الجزر أن يقوموا

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

بالحجمات البحرية المذكورة، وبأسر كثير من المغاربة. وكانوا يذهبون كذلك لعتق أسراهم فيحملون معهم أنسجة الكتان وأقمشة وسجاجيد وقلانيس وأحذية وأشياء أخرى تافهة، ويأتون من هناك بعبيدهم وبالعنبر⁽¹⁾.

إذا فمن الطبيعي أن تكون هناك علاقة بين هذه الجزر الإسبانية وبين الشواطئ المقابلة لها. ولكن ما يهمنا أن نعرفه في هذه المناسبة هو كيف كان يعتبر الإسبان هذه الأراضي التي كانت تجاورهم. فهل كانوا يعتبرونها أرضا خلاء لأمالك لها ولا وليا، أم الأمر كان على عكس ذلك؟

تجدر الإشارة في بداية الأمر، إلى أن قضية حدود البلدان كانت مطروحة لدى الإسبان عند تخطيطهم للإستيلاء على بلد ما، خصوصا لتفادي المواجهة مع جيرانهم ومنافسيهم البرتغاليين. لهذا سنجدهم يبرمون اتفاقية في سنة 1509 سميت بـ "اتفاقية بين قشتالة والبرتغال لسنة 1509 حول امكانية الملاحة في افريقيا"، فهذه الاتفاقية التي اتت لتوضيح المجال المخصص لكل من الطرفين والتي تذكر بعدة اتفاقيات سابقة بينهما، تحد المغرب (Berberia) عند رأس بوجدور ونون (كذا) حيث تبدأ أراضي غينيا⁽²⁾.

وفي قرار ملكي، مؤرخ في سنة 1576، يرخص الكونت Lanzarote القيام بغارات في "أراضي العرب"، نجد الحدود المذكورة هي نفسها، مع إضافة تخص سكان جنوب بوجدور. فتقول أن لا يذهب أحد... (من) تلك الجزيرة للقيام بغارات في المغرب (Berberia) أراضي الشريف، ويمكن القيام بذلك بمخاطرة أقل خارج... (تلك) الأراضي والمراسي بعد تجاوز رأس بوجدور حيث يوجد عدد كبير

من المسلمين العرب (Moros alàrabes) من غير رعايا الشريف المذكور⁽³⁾.

فبالنسبة للإسبانيين نجد أن الأراضي الممتدة إلى رأس بوجدور هي مغربية بدون جدال وفيما يخص جنوب بوجدور فهناك سكان كثيرون من غير رعايا الشريف أي الملك السعدي.

ومعنى هذا أن الوثيقة لاتسقط انتساب الأراضي الواقعة جنوب بوجدور إلى الإشراف السعديين بل تشير فقط إلى الخروج على الطاعة لبعض هؤلاء المسلمين أو المغاربة، خصوصا وأن الوثيقة تستعمل لفظة Sùbdito (= رعية) التي تحمل، معنى الوجود تحت طاعة مطاع وضمنيا معنى المبايعة، إذا نظرنا إلى الأمر من الزاوية المغربية الإسلامية. وبعبارة أخرى، قبول الدخول تحت حكم حاكم ما. إذن يمكن أن نستنتج من هذا أن وجود طائفة خارجة عن طاعة السعديين يعني من ناحية أخرى وجود طائفة أخرى قد قبلت هذه الطاعة.

إن الأراضي المغربية المجاورة والمقابلة للجزر الإسبانية، كانت تشكل منذ عهد بعيد مجالا حيويا لاغنى للكاناريين عنه. فرغم كل الأوامر الملكية الإسبانية لإحترام حرمة الأراضي المغربية، وذلك من أجل صيانة العلاقات بين الدولتين، فإن الكاناريين كانوا لا يجدون بدا من خرق القوانين والأوامر للحفاظ على حياتهم. فلنتأمل ما جاء في الوثيقة الإسبانية المؤرخة في 29 ماي من سنة 1553، التي قدمنا بعض المقتطفات منها : "لقد وجدت أن سكان هذه الجزيرة يذهبون للقيام بالحرب ومهاجمة الشواطئ المغربية، وذلك بمقتضى قرار قديم من جلالته رخص لهم ذلك مقابل تمتعه بخمس

(الفنائم؟). وقد أخبرت أن في السنة الماضية طلب ملك البرتغال من السيد Rodrigo بواسطة قرار من صاحب الجلالة أن يكفوا عن الإبحار من هذه الجزر إلى المغرب وكذا عن الذهاب لتحرير الأسرى. إنني لم أتمكن من الحصول على هذا القرار. فمن قديم الزمان وإلى يومنا هذا اعتاد أصحاب هذه الجزر أن يقوموا بالهجمات البحرية المذكورة، وبأسر كثير من المغاربة. وكانوا يذهبون كذلك لعتق أسراهم، فيحملون معهم أنسجة الكتان وأقشعة وسجاجيد وقلانيس وأحذية وأشياء أخرى تافهة، ويأتون من هناك بعبيدهم وبالعنبر. فالولاة الذين تعاقبوا على الحكم هنا، تفاضوا على الأمر، رغم علمهم ببعض الأموال التي كانوا يسطحبونها معهم، وعدم اكتراثهم بالسفن، إلا إذا تعلق الأمر بالسلاح والحديد. وماعدا هذا فقد غرض الطرف بسبب الحاجة الماسة التي تعيشها هذه الجزر، فسكانها هم كذلك من رعايا صاحب الجلالة، ومن الإنصاف أن نغيتهم ولا نتركهم يموتون جوعا، قبل الاكتراث بالسفن وتطبيق القوانين التي تتكلم على الأشياء الممنوعة تطبيقا صارما، فالأرباح لا يجنيها سوى الولاة (...)»⁽⁴⁾

هكذا إذن، سنرى مع مرور الزمن أن إسبانيا ستبحث عن قواعد متقدمة على الشاطئ المغربي لضمان مختلف مصالحها الأمنية والغذائية : Santa Cruz de Mar Pequeàa المقابلة لجزيرة Lanzarote (1476)، الامتيازات التي حصل عليها الأسبانيون بفضل معاهدة السلام والتجارة المغربية الأسبانية المبرمة في 28 ماي من سنة 1767 التي تخول لإسبانيا حرية إقامة أية مؤسسة شاءت جنوب واد نون⁽⁵⁾، احتلال Villa Cisneros (الداخلية) سنة 1884 الخ⁽⁶⁾

وإذا كانت المصالح السالفة الذكر هي السبب في وجود اسبانيا على شواطئ الصحراء المغربية ، فبقاؤها هناك كان رهينا بإيجاد حل توافقي لوضعية تتناقض مع المرامي التي كان قد أتى من أجلها الاسبان. وفي هذا الصدد يجدر بنا أن لاننسى عاملا كثيرا ماقد يغفل عند دراسة هذا الموضوع : أي العنصر الديني، لأن المسألة قد طرحت بدون شك منذ البداية بالنسبة لأهالي المنطقة كاحتلال مسيحي لأراضي المسلمين، وهذا أمر لا يختلف عما حدث بالنسبة لباقي المناطق المغربية التي عرفت الاحتلال الاسباني والبرتغالي. لهذا سنرى أن الاسبان يتخذون مجموعة من التدابير منذ اللحظة التي عزموا فيها على إخضاع مجمل المنطقة الصحراوية⁽⁷⁾.

لهذا فإن الخطاب الذي اعتمده الاسبان لاستمالة عواطف الصحراويين نحوهم، بالتظاهر أحيانا بالأخوة تجاههم، لم يكن بطبيعة الحال صائبا. وهذا لايبين سوى جهل الاسبانيين العميق للحقيقة الثقافية والسياسية لوجية التي كانت تميز المجتمعات الاسلامية آنذاك. لنتأمل ماقاله الجنرال فرانكو عند زيارته للصحراء سنة 1950 : "إن إخوانكم الإسبانين لم يأتوا هنا للتشويش على سلامكم وحريتكم وسيادتكم، بل جاءوا لمساعدتكم وليوفروا لكم ما أنجزته الحضارة من تقدم، وليوجدوا لكم المستشفيات والاطباء وكل الوسائل التي توصل اليها العلم من أجل العناية بما تشكون منه وتعالج ألامكم..."⁽⁸⁾

إنني لأظن أن الصحراويين سيقبلون فكرة أخوة الاسبانين. فرغم كل الجهود التي بذلوها في سبيل الحفاظ الشكلي على

خصوصية هذا المجتمع، اتقاء لعنف رد الفعل، فإنهم سيظلون بعيدين كل البعد عن تحقيق ما وعدوا به مستعمرهم : فسينشئون المحاكم العرفية (1955)، ولكن التمثيلية المحلية ستقتصر على عضوين مسلمين فقط، مقابل أغلبية إسبانية، وسيعترفون أخيرا بالمحاكم الشرعية الإسلامية سنة 1956، وسيعيدون مؤسسة "الجماعة" الى الوجود سنة 1967. ولكن بعدما أفرغوها من محتواها الأصلي، بتعيين الشيوخ الذين ينالون رضاهم، وكذا باقي العناصر المهمة داخلها، وبإسناد مراقبة أشغالها للكاتب العام للحكومة الاسبانية الذي له الحق في حضور الاجتماعات، رغم ماتعهد به الاسبانيون من "احترام الارث الروحي والديني والتقليدي للصحراء" (9).

ولما مل الاسبان كل هذه الحلول وتبين لهم عدم نجاعتها، فكروا في اللاحاق التام للصحراء بإسبانيا واعتبارها إقليما آخر من الاقاليم الاسبانية، فأطلقوا على نوع الاقليم اسم *cabildo* كما هو الحال في الجزر الكنارية المقابلة للصحراء. وبهذا سيظهر التناقض الذي سقطت فيه السياسة الاستعمارية الاسبانية، التي أرادت أن تؤبد وجودها على أرض كانت تعرف مسبقا أن سكانها من طينة غير التي هي منها، وربما قد يكون هذا من الأسباب التي كانت تجعل من الصعب عليهم تفهم الطرح المغربي بالاعتماد على مبدأ البيعة كعنصر أساسي لمطالبتها بإفراغ المكان وإرجاعه الى المغرب فلقد رأينا كيف كان رد فعل بعض الاسبانيين كالكاتب العام السابق للصحراء Antonio Rodríguez Viguri الذي اعتبر أن رباط البيعة، ما هو الا حق مجازف او محتمل (aleatorio) اعترفت به محكمة العدل الدولية للمغرب (10).

ونحن الآن اذا حاولنا ان نقدم مفهوم البيعة في الإسلام وخصوصيته في المغرب، فإننا نتوخى بالدرجة الاولى تقريب هذا المفهوم الى الناس وخصوصا الى من هو بعيد عن ثقافتنا.

البيعة

إن لفظة "بيعة" المشتقة من الأصل الثلاثي "باع" تتضمن معنيين مضادين : (بيع) و (شراء). ويقول ابن منظور⁽¹¹⁾ : "والبيعة : الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة" أي تعاقد يلزم أصحابه بالبيع والشراء، وكذا بالتعهد بالطاعة. والفعل "بايع" يتضمن كذلك معنى "عاهد". وهذا المعنى هو الذي نجده في الحديث الشريف : "ألا تبايعوني على الإسلام؟".

ونجد في القرآن الكريم عدة آيات تشير الى مفهوم البيعة في مختلف مستوياته :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة - 111)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرَكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المتحنة - 12).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايَعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ نَوَيْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح - 10)

﴿لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ (الفتح - 18)

وقد يتبين لنا عمق واتساع المعنى الذي يتوفر عليه هذا اللفظ، وكذا خصوصية المفهوم العربي عندما يقدم على ترجمته الى اللغات الأجنبية. فنجد مثلاً أن الاسباني J. Vernet وهو صاحب إحدى أشهر الترجمات القرآنية الحديثة⁽¹²⁾ يستعمل كمقابلات لـ "بايع" في ترجمته للقرآن مايلي من الكلمات والعبارات الاسبانية "Concluir Contrato (إبرام عقدة)، reconocer (اعتراف)، roconocer jurando (القسم بالإعتراف)، jurar fidelidad (القسم على الإخلاص والوفاء).

ونجد F. Corriente العضو في أكاديمية اللغة العربية بالقاهرة وهو من أكبر العلماء المتقنين للغة العربية في إسبانيا وصاحب المعاجم الاسبانية العربية والعربية الاسبانية، الأكثر استعمالاً بين الدارسين للغة الاسبانية في الوقت الحاضر، يعطي كمقابلات لـ "بايع - مبايعة" الكلمات والعبارات الآتية : vender (باع)، estipular (اشترط - عين شرطاً - اتفق على ...)، contratar (أبرم عقداً)، reconocer por jefe (اعترف برئاسة شخص معين)، aclamar (نادى به ملكاً أو رئيساً...)، acatar (وقر - احترم - أذعن لـ - امتثل لـ - خضع - خضوع لـ)، jurar (أقسم)، rendir homenaje a (كرم...).

وكمقابلات لـ "بيعة" : ajuste (إتفاقية - تفاهم...)، convenio (اتفاقية - معاهدة)، pacto (معاهدة)، estipulacion (اشتراط - إتفاق شفوي)، concesion (امتياز - التزام - رخصة)، jura homenaje (أقسم إجلال...)، aclamacion (هتاف الاستحسان).

أما الموسوعة الإسلامية (Encyclopedie de l'Islam)⁽¹³⁾ فتذهب الى اعتبار الأصل الاشتقاقي في "بايع" هو اللفظ "باع" (بمعنى اليد او الساعد او الذراع)، وذلك بسبب الاشارة باليد عند القيام بعملية المبايعة. ونجد أن السيوطي والمحلي قد سبقا الموسوعة المذكورة في الأخذ بهذا المعنى، عندما فسرا العبارة "يد الله فوق أيديهم" في الآية القرآنية إن الذي يبايعونك... (الفتح - 10) بـ "التي بايعوا بها النبي"⁽¹⁴⁾.

وتقول الموسوعة الإسلامية في شرح البيعة : "تشير لفظة "بيعة" بصفة عامة جدا الى الحفل الذي يعترف فيه مجموعة من الأشخاص، يتكلمون بإسمهم أو بإسم غيرهم، بسلطة شخص آخر غيرهم. لهذا فإن بيعة الخليفة هو حفل يعلن فيه إسم شخص ما، ويعترف به كرئيس الدولة الإسلامية.

وتضيف الموسوعة قائلة : كانت البيعة مناسبة للاعتراف فقط بسلطة قائمة لشخص معين ولمعاهدته بالطاعة. وهذه هي حالة البيعة المقامة لخليفة جديد، كان منتظرا أن يرث الحكم بموجب عهد من سالفه".

والتعاليم الفقهية تشرح " البيعة" على أنها "اتفاق تعاقدي". نجد فيه من جهة رغبة المنتخبين الذين يعينون المرشح. وهذا يكون العرض المقدم. ومن جهة أخرى نجد رغبة الشخص الذي يقع عليه الاختيار. وهذا الطرف يكون القبول. ويجب أن لا يقع الخلط بين البيعة وبين التعاقد العادي. فـ «البيعة هو فعل اختياري من نوع خاص يكتسي قوة ظاهرية (...). ومع تطور الطابع الديني للسلطة، أصبح يعتبر الالتزام المتخذ تجاه الرئيس، كالتزام في الواقع مع

الله. وبهذه الطريقة يكون الإعدام مبدئياً هو العقاب الدنيوي الوحيد عند خرق البيعة".

أما عبد الله العروي⁽¹⁵⁾ الذي يحلل مفهوم البيعة في سياق تنويع الملوك المغاربة في القرن التاسع عشر فيبرز عدة جوانب سنلخصها فيما يلي :

(1) حسب الفقهاء، يكون على أصحاب الحل والعقد (autorité) تعيين الإمام، وعلى غيرهم الاعتراف به. وليس مسلماً من لايعترف بسلطة إمام شرعي" (ص 92). ويجد هذا الخضوع تبريره في ضمان استمرارية عبادة الله.

(2) فبمجرد إيجاد مرشح مقبول لدى أصحاب الحل والعقد، يكون من الواجب على الأمة أن تقبله حيناً. لهذا تكتسي البيعة في هذه الحالة طابعاً تأكيدياً فقط. وفي الواقع يجب أن لا يقلل من قيمتها هنا نظراً للتأكيد على بعث البيعات إلى الملك من شتى الأقاليم والجماعات والمدن، لأن في ذلك دليل لقطع الطريق أمام أي منافس أو عنيد في المستقبل.

(3) إن تعيين الإمام يكون مقابل السلام الداخلي والخارجي.

إذا كان ماسبق ذكره يبين مفهوم البيعة المغربية، في الحالات التي تكون فيها الخلافة عادية، ولا تطرح مشكل نزاع بين ورثة العرش. غير أنه في بعض الأحيان يكون التنافس شديداً بين عدة أطراف ممن يتطلعون إلى الجلوس على العرش المغربي. وقد عرف التاريخ في بلادنا عدة حالات من هذه. وحالة النزاع حول أحقية البيعة الذي حدث بين الأخوين المولى سليمان والمولى سلامة، وهما ابنان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1790،

تقربنا من هذا الموضوع. وقد احتفظ لنا الضعيف الرباطي بالنازلة وبالفتوى التي اعتمدت في حلها، بعدما وقع خلاف بين مناصري كل من المتنافسين⁽¹⁶⁾. وكانت العلل التي ارتكز عليها كل من الجانبين تتلخص فيما يلي :

"كان سيدي علي... يقول بخلافة مولانا سلامة لأن بيعته سبقت على بيعة مولانا سليمان، ولأن الناس جميعا كانوا متشوقين إليه، ولأنه مقدم وشجاع على غيره فرأى أنه أحق بالبيعة من غيره، فخالفه أهل فاس مع محمد وعزيز والودايا وقالوا مولانا سليمان أحق بها، فتبعته علماء أهل فاس مع السيد التاودي بن الطالب ابن سودة وقالوا إن مولانا سليمان أحق لكونه أعلم وأفقه من مولانا سلامة والعالم يقدم في الإمامة على غير العالم، فاستظهر سيدي علي بنسخة فيها سؤال وجواب وقعت في أيام مولانا عبد الله مع أخيه المستضيئ بنور الله".

وأما الفتوى المعتمدة في فض النزاع، فتقول :

"الحمد لله. الجواب والله الملهم بمنه ويمنه لإصابة الصواب، إنه لايجوز أن يكون إمامان في وقت واحد وإن شذ قوم فجوزوه، واختلف الفقهاء في الإمام منهما، فقالت طائفة : هو الذي عقدت له الإمامة في البلد الذي مات فيه من تقدمه، لأنهم بعقدتها أخص وبالقيام بحقها أحق، وعلى كافة الأمة في الأمصار كلها أن يفوضوا عقدتها إليهم ويسلموها لمن بايعوه. وقال آخرون بل على كل واحد منهما أن يدفع الإمامة عن نفسه ويسلمها لصاحبه طلبا للسلامة وحسما للفتنة ليختار أهل العقد غيرهما. وقال آخرون : يقف بينهما دفعا للتنازع، والصحيح في ذلك ما عليه الفقهاء أن الإمامه

لأسبقهما مبايعة وعقدا كذات الوليين في النكاح، وعلى المسبوق تسليم الأمر إليه والدخول في البيعة وإن عقدت البيعة لهما في أن واحد لم يسبق بها أحدهما، فسد العقد لأحدهما أو لغيرهما، وإن تقدمت بيعة أحدهما وأشكل المتقدم منهما وقف أمرهما على الكشف فإن تنازعاها وادعى كل واحد منهما أنه أسبق، لم يسمع دعواه ولم يحلف عليها لأنه لا يختص بالحق فيها وإنما هو حق للمسلمين جميعا وهكذا لو سلم أحدهما للآخر ولم تستقر إمامته إلا ببينة تشهد بتقدمه ولو أقر له بالتقدم خرج المقر منها ولم تستقر للآخر لأنه مقر في حق المسلمين، فإن شهد له المقر في تقدمه فيها مع شاهد آخر سمعت شهادته إن ذكر اشتباه الأمر عليه عند التنازع ولم تسمع منه إن لم يذكر الإشتباه لما في القولين من التكاذب، وإذا لم تقم بينة لأحدهما بالتقدم لم يقرع بينهما لأن الإمامة عقد، والقرعة لا تدخل لها في العقود". (ص 251)

"والإمامة تنعقد من وجهين : أحدهما اختيار أهل الحل والعقد، والثاني بعهد الإمام من قبل. فأما اختيارها بأهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء في عدد من تنعقد به والعقد من كل بلد ليكون الرضى بها عاما والتسليم لإمامته إجماعا، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر رضي الله عنه على الخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر بها قدوم غائب عنها وكذلك ببيع في الشورى على من ينتظر بيعته قدوم غائب، وقالت طائفة أخرى : أقل ما تنعقد به الإمامة خمسة مجتمعون عليها بل على عقدها أو يعقدها أحدهم برضى الأربعة استدلال بأمرين، أحدهما أن بيعة أبي بكر انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها، وهم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن خضير وبشر بن سعد وسالم

مولى أبي حذيفة. والثاني أن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة لتنعقد لأحدهم برضى الخمسة وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة، وقال الآخرون من علماء الكوفة، تنعقد بثلاثة ويتولى أحدهم برضى اثنين ليكونوا حاكما وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين، وقالت طائفة أخرى تنعقد بواحد لأن العباس قال لعلي بن أبي طالب : أمدد يدك أبايعك، فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن أخيه فلا يختلف عليك اثنان ولأنها حكم وحكم الواحد نافذ".

"وأهل الجهاد في الرباط والثغور لهم أفضلية وعلو درجة على سواهم بدليل قوله جل من قائل في كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل : (وفضل الله المجاهدين على القاعدية) الآية. وإن روعي في الاختيار ما يوجب حكم الوقت في التقدم للإمامة كان الشجاع أحق بها..." (ص. 252).

ومادام الكلام يدور هنا أساسا على البيعة وقضية الصحراء المغربية، ويصادف الحديث على المولى سليمان، نود أن نشير الى أن الضعيف الرباطي⁽¹⁷⁾ يضمن كتابه خبر "حركة السلطان (مولاي سليمان) نحو سوس الأقصى والساقية الحمراء والصحراء الجنوبية". والغرض من الإشارة الى هذه الحركة هو فقط للتنبيه إلى أن السلطان المذكور قد قام بهذه الحركة داخل مملكته كما لو قام بها إلى منطقة أخرى من المناطق الخاضعة لنفوذه، ولم تكن غزوة أو شيئا من هذا القبيل. وفيما يلي نص الضعيف :

"وفي عام 1222 أراد السلطان النهوض لناحية مراكش ثم لناحية سوس الأقصى. فخرج نصره الله من مكناسة الزيتون وذلك يوم

السبت 11 محرم من العام المذكور (...) ورايس أهل كلميم يومئذ عبد الله وسالم، له خمس عشر مائة كانوا من عبيده، ويزطط في تلك النواحي مسيرة 19 يوما في الصحراء، وهو فوق ماسة بخمسة أيام، ومن أكلميم لزاوية أسة 11 يوما، ومن زاوية أسة للساقية الحمراء 8 أيام، وتبقى زاوية سيدي أحمد وموسى نفع الله به وهي تزروالت في الصحراء قبلة على يوم ونصف والله أعلم. وبلغ السلطان لتزروالت وزار سيدي أحمد وموسى ووصل السلطان لدار سيدي محمد نسكات فوجده قد مات لأنه في حياته كان يقول لأهل سوس : إن مولاي سليمان سلطان وباقي حتى يأتي لداري هذه ويجلس على هذه الدكانة. فكان الأمر كذلك لما وصل مولانا سليمان لداره جلس على تلك الدكانة (...)

لقد استطعنا من خلال ماسبق أن نكون فكرة متكاملة عن مفهوم البيعة في الإسلام وكذا عما تميزها من خصوصيات في المغرب. ونظرا لما يحتوي عليه من معطيات تشرح الأبعاد التي تحكم المبايعة عند المغاربة، ارتأينا أن ندرج هنا تحليلا للبيعة في المغرب، قدمه جلالة الملك الحسن الثاني في خطب ألقاها في الأيام القريبة لإسترجاع الصحراء. وبعد ذلك سنتطرق الى تحليل وجيز لبيعتين مجددتين قدمتا بمناسبة جلاء الاستعمار عن الصحراء، الأولى جاءت من السيد خطري ولد سيدي سعيد الجماني رئيس الجماعة الصحراوية، والثانية من رؤساء قبائل وادي الذهب.

ففي الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك يوم 16 أكتوبر 1975 إثر صدور حكم محكمة العدل الدولية بلاهاي الذي قال في حقه : "... بأن المغرب يكتفي وهو مسرور جدا بفتوى محكمة العدل الدولية

لأنها أولا تستجيب لرغباتنا وتجيب على أسئلتنا، وثانيا لا يمكنها أن تعارض قانونا عاما دوليا من أقدم وأقدس القوانين وهو الدستور الإسلامي⁽¹⁸⁾.

نرى جلالته يضع مسألة كتابة البيعة في مقدمة المميزات التي تطبع هذه الاخيرة في المغرب. فبخلاف البيعة التقليدية في الاسلام حيث كان رؤساء القبائل يأتون للسلام على الأمراء والملوك ويضعون أيديهم على أيديهم أو على المصحف ويقولون إننا نبايعك على الكتاب والسنة، ونبايحك بيعة الرضوان... الخ نجد أن... المغرب هو الدولة الوحيدة التي لم تكتف بالبيعة الشفوية بل ماثبت في تاريخ المغرب وفي أي دولة مغربية أنه وقعت بيعة شفوية بل كانت دائما بيعة مكتوبة⁽¹⁹⁾. ويضيف جلالته قائلاً : "وحتى أولئك الذين لم يستطيعوا كتابة هذه البيعة كانوا يبعثونها عن طريق العدول".

ونجد الخطاب الموجه الى سكان الصحراء بعيد الاعلان عن تنظيم المسيرة يلخص أبعاد وفلسفة البيعة في الاسلام، كما يعلل الهدف من المسيرة التي أعلن عن تنظيمها من زاوية تواصل روابط البيعة بين الملك وبين أهالي الصحراء⁽²⁰⁾ :

1) فالخطاب يستهل بالآية العاشرة من سورة الفتح : "ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله... (الآية)". وبطبيعة الحال فإن اختيار الاستهلال بهذه الآية لم يأت اعتباطا وإنما جاء لكل ما تتضمنه الآية من رموز دينية واعتبارات تاريخية. ومن بين ما ترمز اليه هذه الآية مسألة خلافة الله في الأرض التي يضطلع بها أمير المؤمنين⁽²¹⁾.

واستواء طاعة الله وطاعة من يخلفه في الأرض، زيادة على العظمة التي أحاط بها الإله التشبث بالبيعة.

(2) وبعد هذا يرد التراضي والاشارة به الى بيعة الرضوان. يقول جلالتة : "فالببيعة (...) ليس الشيء الذي يأتي قهرا أو نأخذه من الناس قوة وتجبيرا. بل البيعة تقتضي التراضي..."⁽²²⁾.

(3) ونجد كنقطة ثالثة استمرارية البيعة وعدم انقطاعها. "فمهما فرق بيننا الزمن - يقول العاهل المغربي - ومهما حاول أن يشتت شملنا المستعمر لازالت الروابط بيننا قائمة (...) ولا أريد من حجة، ولا أكتفي من دليل إلا بما سمعت ورأيت. فمنذ أن دخل أبونا رحمه الله محمد الخامس طيب الله ثراه من المنفى فسمعت ورأيت الزغاريد في العيون وفي الصحراء وفي الساقية الحمراء وفي واد الذهب ورأيت الأعلام المغربية ترفرف..."

أما عن البيعات التي صدرت بعد استرجاع الصحراء فإنها تحترم كافة العناصر المغربية الاسلامية المميزة للبيعة في بلدنا.

فالببيعة التي بعث بها رئيس الجماعة الصحراوية السيد خطري ولد سيدي سعيد الجماني إلى ملك المغرب يوم 2 نونبر 1955 من Las Palmas تقدم كافة العناصر التقليدية من التقاء الأيدي والآية العاشرة من سورة النصر... الخ. ولكن، نظرا الى أن الأمر يتعلق هنا بتجديد للبيعة، فسنجد التأكيد على التشبث بالعهود التي قامت بين الأسلاف. يقول الحاج خطري الجماني : "لقد شرفتنني يامولاي بخطابكم السامي وأذنتم لشخصي الضعيف للمثول بين يدي جلالتكم بمراكش عاصمة الجنوب بتجديد البيعة وتأكيد العهود التي كانت تربط بين أجدادكم المنعمين وبين خدامهم من آبائنا وأجدادنا (...) مولاي، إنني أباعك وأعاهدك كما بايع وعاهد أجدادي أجدادك المنعمين... الخ"⁽²³⁾

ومن جهة أخرى نجد أن البيعة التي بعثها سكان الداخلة ووادي الذهب، المؤرخة في الداخلة يوم 13 غشت 1979 والمحررة من قبل قاضي المنطقة السيد حبيب الله بن أبوه والتي وقعها ممثلون عن مختلف القبائل الصحراوية، تركز اهتمامها على ملك المغرب كضامن للسلام. فمنذ السطور الأولى لنص هذه البيعة، سنلاحظ هذا الانشغال : فالوثيقة تبتدئ بحمد الله "الذي نظم بالخلافة شمل الدين وصان بها الدماء والأموال والأعراض وغل بها أيدي الجبابرة عن مفاسد الأعراض..."⁽²⁴⁾ ثم تتابع في هذا السياق لتؤكد على ضرورة إيجاد من يحكم البلاد عندما تقول "وقال الرسول (ص) إذا مررتم بأرض ليس فيها سلطان فلا تدخلوها، إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض.. ثم تزيد فتأكد على لزوم تقديم البيعة.. قال الرسول (ص) من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية..." ثم إن اختيار أهل هذه المنطقة وقع بإجماع كل الأطراف على شخص الملك الحسن الثاني : "...إجتمع شرفاؤنا وعلماؤنا وأعياننا ووجهائنا رجالا ونساءؤنا، كبارنا وصغارنا فاتفق رأينا الذي لايتطرق إليه اختلال واجتمعت كلمتنا التي لاتجتمع على ضلال على أن نجدد لأمير المؤمنين وحامي حمى الوطن والدين سيدنا الحسن الثاني حفظه الله بالسبع المثاني، البيعة التي بايع بها أبائنا وأجدادنا آباءه وأجداده الكرام..."⁽²⁵⁾

هكذا نجد إذا، أن لهذه البيعة المجددة مبرراتها التي تندرج في إطار التعاقد الأولي الذي يقدم الحاكم حمايته للمحكوم، على أساس مبايعة هذا الأخير له. والملاحظ هنا، أن البيعة تجدد لنفس العائلة المالكة، في شخص الملك الذي ورث العرش، ولايطرح مشكل

نزاع مع شخص آخر. والتجديد هنا يقع بعد أن فرق الاستعمار بين المتعاقدين على البيعة.

الهوامش :

(1) Manuel Lobo Cabrera, La esclavitud en las canarias Orientales en el siglo XVI Santa Cruz de Tenerife, Ediciones del Excmo. Cabildo Insular de Grand Canaria, 1982, P. 329.

(2) Enrique Arques, Las Adelantadas de Espana, Madrid, Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 1966, pp. 287-292.

(3) الترجمة الحرفية للجملة «... que no solamente son subditos del Xarif...» هي : « ليسوا فقط من رعايا الشريف. ونظن أن الترجمة التي يقتضيها السياق والسليمة لغويا هي التي قدمناها أعلاه.

(4) M. Lobo Cabrera, La Esclavitud..., P. 329.

(5) Robert Rezette, La Sahara Occidental et les frontieres Marocaines, Paris, Nouvelles Editions Latines, 1965. P. 54.

Attilio Gaudio, Le dossier du Sahara Occidental, Paris, Nouvelles Editions Latines, 1978, p. 60.

(6) Attilio Gaudio, Le dossier du Sahara Occidental, Paris, Nouvelles Editions Latines, 1978, P. 60.

(7) في الواقع وإلى حدود سنة 1934 لا يمكن أن نعتبر الاحتلال فعليا إلا في الداخلة Villa Cisneros، أنظر R.Rezette المرجع السابق، ص. 69-70.

(8) Javier Ruiz, "La tierra de los Hombres azules", Historia 16, Madrid, ano IV, extra IX abril 1979, p. 67.

(9) أنظر ديباجة قانون إنشاء « الجماعة »، الفصل 166 من مرسوم رئاسة الحكومة الإسبانية المؤرخ في 11 ماي 1967.

(10) Luis Rodriguez de viguri, " Despididas vergonzosas", Historia 16, Op. cit. p.75

(11) جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (ب.ت.). أنظر « باع ».

(12) Juan Vernet, El Coran, Barcelona, Ed. Planeta, 1983

- (13) أنظر المقال "bayaa"
- (14) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تفسير القرآن العظيم. (ب.ت.و.ب.ب.ب.)
- (15) Abdellah Laoui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Paris, François Maspero, 1977. pp. 71 et ss.
- (16) محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، الرباط، دار المأثورات، 1986. ص. 251.
- (17) الضعيف، ص. 44.
- (18) المسيرة الخضراء، ملحمة شعب يوحد بلاده بقيادة ملكه (ب.م.)، الرباط، وزارة الشؤون الثقافية، 1984. ص. 44.
- (19) المسيرة، ص. 44.
- (20) المسيرة، ص. 57.
- (21) جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، أنظر «خلف»: «قال الزجاج: جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه بقوله عز وجل: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض».
- (22) المسيرة، ص. 57.
- (23) المسيرة، ص. 70-71.
- (24) المسيرة، ص. 192.
- (25) المسيرة، ص. 193-194.

قوافل في خدمة المنتجين، الحراطين منقذو الأماكن المحروقة

مصطفى ناعمي(*)

يرى الكثيرون أن الحراطين هم مجرد فئة من العبيد المعتقين متخصصة في ممارسة أشغال الواحات بالمناطق المجاورة للصحراء. فهل يتعلق الأمر فعلاً بعبيد معتقين؟ لا شك أن الجواب التأكيدي يفضي مباشرة إلى تقسيم منظم للعمل. لا يعدو هذا التقسيم في حد ذاته أن يكون هو التعبير المتداول لتسلسل تراتبي اجتماعي ينبثق عن حالتين متميزتين. في الحالة الأولى، تحد نوعية العمل وملابساته من حق الحراطين في تملك الأراضي المسقية. في الحالة الثانية يترتب عن التخصص المعلن غياب الحراطين عن الميدانين التجاري والسياسي. لذلك فقد أثرنا فيما سيأتي الابتعاد عن هذا الطرح الذي يخلط بين الحراطين والعبيد، اعتباراً من أن اهتمامنا لا ينحصر هنا في الوقوف عند الماضي البعيد للأحباش (الحراطين)⁽¹⁾، ويكون علينا أن نعالج الملامح المستقاة من تشكلهم الاجتماعي مقيمين مهامهم المتنوعة خلال القرن التاسع عشر بالضفة الشمالية الغربية للصحراء.

نقترح هنا الوقوف عند عدد من الملامح الخاصة التي كانت تجسد وظيفة الحراطين في تنظيم الأسواق والمواسم الفصلية في ضواحي

(*) أستاذ جامعي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط.

وعرون. ينتمي هذا المركز العتيق الواقع وسط حوض وادي نون الأسفل بالمنطقة الحضرية من بلاد تكنة⁽²⁾، إلى حركية المحور الرابط بين الأطلس الصغير والساقية الحمراء وأدرار التمر. ويستند القسم الأكبر من الوظائف التي يكشف عنها مفهوم تنظيم الأسواق والمواسم إلى بنية الإنتاج من أجل البقاء. ويتميز موقع وعرون بتوسطه مثلث عواصم وادي نون التاريخية نول لمطه - تاكاوست - غلميم. هذه الميزة ربطت وعرون منذ غابر الأزمنة بوظائف الإنتاج والتخزين والتوزيع الفلاحي المناسب. فنجدتها تتخصص، على سبيل المثال، منذ القرن العاشر/السادس عشر، في إنتاج وتوزيع التبغ المشهور بمجمل الصحراء تحت اسم «الوعرونية». وهو ما جعلها تجسد، خلال القرن التاسع عشر، مركز تماس بين لفي تكنة آيت عثمان شرقا وآيت الجمل غربا⁽³⁾. هذا الموقع المتميز زاد من أهمية الاعتبار السياسية التي تخص ممارسات الحراطين تجاه مختلف التجزئات القبلية على اختلاف حجم فصائلها، وسمح بتحليل مدى قدرتهم على تملك الأراضي المسقية. وللكشف عن أبعاد هذه السياسة الحرطانية، لابد من دراسة المجموعات الوثائقية من حيث هي نسيج يوضح ما يكمن وراء الظواهر من علاقات اقتصادية وسياسية. ذلك لأنه ليس بإمكان كنانيش الأسر التجارية أن تكشف عن قوانين تملك الأراضي المسقية، ولا عن النظام الخفي الذي يكمن وراء ظاهرها العمليات المسجلة.

مجموعة وثائقية بوعرون

من بين الحقائق التي يجب أن نوضحها حالا، دور الأسر الحرطانية المتوارث في هذه الضفة الصحراوية والقاضي بحفظ

وثائق ورسوم الأسر والفصائل التي تمارس نمط العيش شبه الترحالي، هذه الوظيفة التي ظلت مستمرة إلى منتصف القرن العشرين، يمكن أن نعاينها لدى أسرة أهل الدراوي المستقرة بوعرون منذ حوالي 250 سنة. فما زالت هذه الأسرة تحتفظ بكم هائل من الوثائق، لم يعد قابلاً للقراءة منها سوى 156 وثيقة. ونسجل أنه على الرغم من الخصوصيات التي تميز كل وثيقة عما عداها، فإن المجموع يشكل منظورا شموليا. فأكثر الوثائق هي رسوم شراء الممتلكات العقارية من منازل وأراضي مسقية ومياه الساقية التي تسمح الشريعة الإسلامية بتداولها بهذه الجهة. ثم إن الوثيقة غالبا ما تجسد رسما على هيئة عقد يتنازل بموجبه المالك الشرعي عن ملكه مقابل ثمن نقدي يسلمه له المشتري. ويقود كل رسم، رغم ما يكتنفه من التواءات، إلى وحدة عضوية. ذلك أن تحليل موضوع الصفقة يعد جزءا أساسيا يسمح بتسجيل الوقائع وملاحظتها دون التصدي إلى معانيها. يأتي بعد ذلك تحديد موقع الملك ليشكل حقيقة متميزة تسمح، علاوة على التعريف بحدود الملك، بتدوين ثم تحديد الأملاك المجاورة ومدى انتماء أصحابها إلى نفس الهوية. لنصل بعد ذلك مباشرة إلى تسمية القطع المسقية من حيث هي ملكيات تعكس وظيفتها حيناً ومميزاتها الخاصة حيناً آخر.

معايير التمييز بين العصب المحلية

يجب أن ننتبه لكون هذه الوثائق ليست الوحيدة من نوعها لكي لا نقع في أحكام نهائية على نتائج التحليل، فتعدد مجموعات الوثائق العائلية يفرض المقارنة الميدانية بين محتوى الوثائق المدروسة هنا والتوزيع المحلي للقطع المسقية.

إنَّ أقدم رسم عقاري بهذه المجموعة يعود إلى نهاية شعبان 1215/1-16-1801⁽⁴⁾. ويكشف توقيع ثلاثة عدول بالرسم عن التقليد العريق لممارسات تجسد أهمية ودقة استغلال الأراضي المسقية. ويزيد انتماء أحد العدول الثلاثة إلى أولاد بلحويلات⁽⁵⁾ من صلاحية تمييزهم من خلال الرسم بين هؤلاء من جهة وآيت احماد أو اعلي⁽⁶⁾ من جهة ثانية وأهل وعرون من جهة ثالثة. يتبين بذلك النص الفصل بين ثلاث مكونات ليس بإمكانها أن تمثل عسبا قبليا ولا تملك على ضوء المعطيات الميدانية، إلا أن تعكس نسيجا متداخلا للملكيات المسقية. فلاشك إذن أن امتزاج الملكيات يفضي إلى دور الرسوم في تحليل الموروث العقاري بوصفه تجسيدا للقيم التراتبية. هذه الرؤيا تغطي في أغلب الحالات واقعا كفيلا بتحديد مراحل الانتقال التدريجي من نمط البداوة إلى نمط الاستقرار.

ولو ألقينا نظرة متأنية على طبيعة العلاقات بين آيت احماد أو اعلي وأولاد بلحويلات من جهة، وأهل وعرون من جهة ثانية، لعرفنا أن أهل وعرون يستمدون وجودهم الفعلي من مراقبة وتملك الأراضي المسقية. في هذه الحالة يجب الاعتراف بأنه مهما كان التركيز على معطيات الرسوم جوهريا، فإن الحق في تملك الساقية لا يمكنه أن يعود إلا لأهل وعرون. كما يجب أيضا أن نسجل بأن التسرب التدريجي لآيت احماد أو اعلي وأولاد بلحويلات إلى عملية التملك العقاري، قد برهن على تدخلهم المتأخر في الميدان الفلاحي الصرف. وإذا كانت هذه التدخلات المتأخرة أشبه ما تكون بتصاعد محلي لنفوذ آيت احماد أو اعلي وأولاد بلحويلات الفلاحي على حساب أهل وعرون، فإن ما تثبته الرسوم هو عدم السطو على الملكيات المسقية. إذن لا يجوز لنا أن نتحدث خلال القرن التاسع

عشر عن أية حيازة إجبارية. فقد راح آيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات، يستغلون قطعاً أرضية مسقية لم ينتزعوها، ولكن اشتراها بعضهم في معرض المساومات والتسويات بينهم وبين القارين من أهل وعرون. فلا ضير إذن أن نتتبع هذه التحولات من خلال تعريفنا بكل واحدة من هذه المكونات الثلاثة.

أولاد بلحويلات :

إذا انطلقنا من التعديلات في المشجرات العائلية التي استحدثها أولاد بلحويلات على صيغة المعقلين أولاد امبارك وأولاد دليم الذين استقروا طويلاً بين وادي درعة والساقية الحمراء، فإننا نجد أنهم ينسبون أنفسهم إلى الجد الأعلى بلة بن عثمان بن مندى. هذا الجد لآيت بلة يكشف ترتيبات نسبية تكنية واضحة تربط أولاد بلحويلات بالأصليين من تكنة⁽⁷⁾. هذا الترتيب النسبي يقوم على منطق الارتباط بين محمي تكنة والمضافين إليهم. فالأحرار الأصليين من تكنة يخضعون للتقسيم الشائع الذي يجعل منهم محميين أصلاً، وهي إيديولوجية للتراتب الاجتماعي تحدد الوضع الخاص بأولاد بلحويلات كأحرار أصليين. يبرز بذلك فارق تراتبي يعطي لآيت احماد أواعلي وضعاً متميزاً ضمن تكنة الحماة. ولا شك أن هذا التراتب يأتي في طبيعة المسائل التي تلقي مزيداً من الضوء على طبيعة العلاقة بين آيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات، فمن الواضح أن العديد من الأسئلة حول الطابع التنافسي بينهما حول مراقبة المجال، لم يحل دونهما وتقوية التحالف في إطار آيت بلة. هذا الإطار يبدو أكثر ملاءمة لتقوية النظام العصبي، ذلك أن المنافسة حول مراقبة المراعي الموسمية لا تحول دون استنفار

التحالفات الجزئية في وجه قبيلة آيت لحسن من لف آيت الجمل المجاور غرباً⁽⁸⁾. وبديار أولاد بلحويلات بوغرون لاشيء يدل على أية وظيفة تجارية، بينما تكشف مجمل التحريات الميدانية عن ارتباط هذه الديار بمهمة التخزين. نرى آيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات يتمتعان بصلاحيات واسعة النطاق تقوم حول وعرون على امتداد الحدود مع آيت الحسن⁽⁸⁾.

لقد مثل إصرار الطرفين آيت احماد أواعلي وأولاد بلحويلات على توسيع صلاحيات تحالفهما في إطار آيت بلة، رغبة مشتركة في تمتين حضورهما بأحواز وعرون. وإذا كان أولاد بلحويلات لن يشذوا عن هذه القاعدة إلا ابتداءً من سنة 1921، فذلك لأن تشدد آيت احماد أواعلي يعد بمثابة استنزال لغضب آيت لحسن عليهم.

آيت احماد أواعلي

ضمن التحالفات الراسخة نسبياً، يجسد تشكل تجزئات وفصائل قبيلة أزفاط (فيما بعد ازوافيط) تراتباً سياسياً واجتماعياً معيناً. لقد استمد آيت احماد أواعلي مكانتهم المتميزة من قوة السلاح. فقد استطاعوا المحافظة على عصبية وسمعة حالت دونهم واستيعاب الدخلاء، وصهرتهم في بوتقة قبيلة ازوافيط. فمن المعروف أن وضعهم السياسي المرموق جاء عن طريق انتزاع أراضي بورية خصبة وجنائن آيت لحسن القديمة بأسرير، متسببين في نزوح هؤلاء وغيرهم في مراحل مختلفة من القرون الأربعة الماضية نحو ترغمايت وتفجيجت وإيفرم إيگزولن والقصابي وحتى الساقية الحمراء. وقد أصر آيت احماد أواعلي على اعتماد طريقته الخاصة غير عابئين بمتطلبات التحالف

واعتبارات الأمن بالمنطقة. إن اندماجهم داخل قبيلة أزوافيط جاء بسبب سعيهم للحيلولة دون تحول باقي فصائل القبيلة عنهم. لقد مارسوا إذن علاقات تحالفية انطلاقاً من استراتيجيات سياسية وعسكرية مستقلة، خالقين بذلك انتماءات مناسبة، ومكرسين تحالفات نسبية. وانصبت جهودهم على المشاركة في نظام خاص للتحالفات يرصد الاحتلال السابقة التي مارسوها، وممارسة الأنشطة الرعوية ثم الفلاحية وفقاً لأيدولوجية النسب التي تحدد في الواقع الحيازات المتلاحقة. هكذا يستمد أزوافيط قوتهم الفعلية من التفاف آيت بلة حول آيت احماذ أو اعلي الذين انصرفوا إلى محاربة آيت لحسن المجاورين.

هذا المنظور الذي يلخص لنا تاريخ قبيلة أزوافيط في تحالف مجموعة من الفصائل والتجزئات حول آيت احماذ أو اعلي، يوفر في الحقيقة نبذة عن حدود ومدى صلاحية التحالفات المعلنة. فقد استطاع أزوافيط المحافظة على الأراضي البورية الخصبة المحيطة بتيفمرت وأسرير ووعرون وأزريويلة وسركس. ومن المؤكد أن الغور السكاني الأقدم، لم يتمكن من مقاومة عمليات الامتصاص التي صهرتهم تدريجياً في بوتقة القبيلة رغم احتفاظهم بهوة أمازيغية معلنة، غير عابئين بمتطلبات التماسك الزفاطي. هذا التماسك سوف يتجسد في تحول آيت احماذ أو اعلي وغيرهم من الفصائل الأخرى من أشباه رحل إلى مستقرين منذ قرن فقط.

نسجل، على ضوء هذا التطور، ظهور تعارض حاد بين التجزؤ والالتحام. فما يميز الغور الأمازيغي الأقدم هو النزوع إلى ممارسة تجارة القوافل خلافاً لأشباه الرحل. ويستمد هؤلاء عادة مداخيلهم

من تربية المواشي والنهب (F.C. de la Chappelle: les Tekna : 47). فيبدو بذلك التعارض القائم بين الغور السكاني الأقدم وآيت احماذ أو اعلي الذين استمروا في تنظيم حملات هجومية ضد سوق غلميم. ويبقى السؤال متمركزا حول ممارسات آيت احماذ أو اعلي السلمية حيال ساقية وعرون المجاورة لتراب آيت لحسن من اللف الآخر. هل في هذه الممارسات اعتراف ضماني بحق أهل وعرون المطلق في التحكم الفعلي في مياه وبساتين وعرون؟ وبعبارة أخرى، كيف نفسر أنه حيثما جمع أهل وعرون حقوقهم، تنكشف للعيان ملكيات شرعية معترف بها، تساهم إلى أبعد حد في رضوخ العام والخاص لمشيئتهم؟

أهل وعرون؟

إذا رجعنا إلى نوعية العلاقات بين «أهل وعرون» اتضح بما لا يدع مجالا للشك من خلال الوثائق أن الصيغة لا تدل على أي تضامن جماعي أساسه الانتماء القرابي. بل هي مجموعة من الوحدات القرابية منفصلة بعضها عن بعض، لم تتفرع عن مشجر تناسلي مشترك ولا تتحدد هويتها الجماعية إلا بالرجوع إلى وعرون كمقر إقامة أو إلى علاقات متعددة المشارب. فبالإضافة إلى ألقاب أفقيير أو مقدم اللذين يعكسان الممارسات الدينية والصوفية للغور الأمازيغي اللامعقلي، نجد ألقاب التواتي والافراني وال دراوي وغيرها تكشف عن فئة الحراطين. معنى هذا أن صيغة «أهل وعرون» إنما تنبثق عن كيانهين متنافسين، يشتمل أولهما على عدد كبير من أسر الغور السكاني الأمازيغي الأقدم والثاني على أغلبية من الحراطين يحدد انتماءها السلالي تنوع مواطنها الأقدم.

تحليل رسوم البيع والشراء المدقق يكشف الاستغلال الهائل لدورة الري ويعكس الأنشطة اليومية المنزلية منها والفلاحية [M. Naïmi, "Cinétique des Takna, flexibilité et mobilité sociale"] بل إن من شأن هذا التحليل أن يحمل بعض الأجوبة الجزئية المتعلقة ببعض الاستغلالات. نسجل في البداية بأن رسوم بيع البهائم ووسائل الإنتاج الفلاحي من القلة بحيث لا يمكن وضع لائحة تصنيفية لها. كما نسجل تعدد ميادين تخصص الحراطين من فلاحية الواحات، وحدادة ونجارة، وموسيقى، وغيرها... ومن المؤكد أيضا أنهم كانوا يمتلكون عقارات منذ القديم. فالشيخ عبد الله بن بلخير يتميز، كعين من أعيان الحراطين، بعدد عبيده وخدمه. ولعل ما يزيد من أهمية الدلالة، تملك الحراطين من أهل تگاوست لأراضي بورية حتى ما بعد 2 ربيع 3/1256 يونيو 1840.

إن أسر وعرون الأخرى لا تتزوج من الحراطين حتى ولو كانت منفردة وغير متفرعة. على أن لجوءها لنفس العدول يعرب عن نموذج جماعي لوحدات أبوية تبلورت بوعرون ذاته. تكشف دراسة مناهج اقتناء الأرض المسقية عن أشكال بسيطة للترابط وتوحي بفعالية المراقبة الدقيقة والفعالية للساقية. فتشابه قنوات الري هي التي تحدد، من خلال نظام التوزيع، العلاقات بين الحراطين وباقي أسر وعرون. وهنا يتضح دون شك، الدور الهيكلي الذي تحظى به تجارة التبغ بتقدير الجميع. ذلك أن المثل يضرب بنجاح وعرون في استقطاب سوق التبغ الوعروني بمجمل أسواق الصحراء الأطلسية. فتتجلى بوضوح العلاقة العضوية بين مادة التبغ واستقرار، أسر وعرون منذ القرن 16/10 ضمن حركية محلية طويلة المدى. أما خلال القرن التاسع عشر، فقد أصبح إنتاج

التبغ يرتبط محليا بالمهارة والتخصص. فالرسوم تظهر بوضوح جلي سيطرة وعرون على سوق التبغ الصحراوي، تبينها ندرة وصعوبة اقتناء الأراضي المسقية. هذا ما يمكن أن نستشفه من الأسعار المعلنة لمقاييس الماء و تركز هذه الأسعار على ممارسة أولئك الذين تؤكد أسماؤهم مدى اندماجهم في القطاع السقوي الفلاحي بوعرون. من هذا المنطلق فإن الاتجاه الذي يمكن أن نسجله، هو تجميع الأراضي والقطع المسقية ولو في فترات الأزمات الغذائية والأوبئة الكبرى. هذا الإتجاه نحو التجميع والاحتكار المجالي، له دلالة خصوصا إذا وقع خلال الأزمات كما هو الشأن بالنسبة للأزمة الغذائية خلال مجاعة 1817-1818⁽⁹⁾ أو طاعون 1818-1820⁽¹⁰⁾ أو أيضا طاعون 1825-1826 الذي سجل مميزات ثلاث: ازدياد عمليات شراء الأراضي المسقية، تقوية التحالفات المحلية عن طريق المصاهرة داخل كلى المكونتين، الحراطين من جهة وباقي عائلات وعرون، ارتفاع عدد رسوم شراء البهائم والدور. فنستنتج بما لا يدع مجالا للشك على أن التسابق إلى احتكار الساقية جعل المنافسة تنحصر في هذا المجال بالأساس. نصل من هنا إلى المسألة التجارية ودورها الحقيقي في ترسيخ وتمتين البنيات المحلية. فيتضح لنا أمام نوعية الوثائق المتوفرة أن النفاذ إلى المسألة التجارية الصرف وفهمها الفهم الصحيح، لن يتأتيا إلا بتحليل كنانيش الدور التجارية المتخصصة.

صلاحية المؤشرات الدالة على استقلالية طويلة المدى

يعد بيع الوعرونية بالسلف بگلميم الجارة القريبة من وعرون من بين العمليات الواردة بكنانيش بيروك الشهيرة⁽¹¹⁾. إذ نسجل

أن ثلاثة كنانيش تشمل 261 عملية يعود أقدمها إلى سنة 1822، ولم تعرف أول عملية تبغ بالسلف إلا بتاريخ 18-9-1246/4-3-1830. إذن نرى من هنا أننا أمام تأخير ملحوظ، خاصة إذا علمنا أن وعرون هو المنتج الوحيد للتبغ الوعروني. نتساءل إذن إلى أي مدى يمثل هذا التأخير دليلاً على المقدرة الوعرونية للاستقلال الفعلي وعدم الارتباط بالدور التجارية المتخصصة، وهو سؤال يفضي بنا إلى سؤال آخر حول ما إذا كان بإمكان كنانيش أهل بيروك الثلاثة أن تعكس حالة الشبكة التجارية الوعرونية من خلال المعطيات التالية:

تاريخ العملية	الكمية بحمولة الجمال	الثمن بالمتقال السكة المتداولة	الانتماء القبلي للمشتري	أجل الأداء
1830-03-14/1245-09-18	3 حمولات	120	تاجكانت	4 أشهر
1833-04-1/1248-11-27	15 حمولة	905	تاجكانت	4 أشهر
1833-06-14/1249-01-25	غير محدد	905	أعريب	4 أشهر
1842-12-05/1258-11-02	3 حمولات	120	تاجكانت	4 أشهر
1848-03-21/1264-04-15	حمولة واحدة	حمولتي ملح بتاودني	آيت موسى أواعلي (تكنة)	4 أشهر
1852-10-20 /1269-01-06	غير محددة	٩٩٩	أعريب	6 أشهر
1852-11-09 /1269-01-25	حمولتان	120	أعريب	6 أشهر
1852-11-09/1269-01-25	حمولتان	120	تاجكانت	6 أشهر
1879-01-14 /1297-02-00				
إلى 1879-02-11/	5 حمولات	325	تاجكانت	5 أشهر

تنحصر معطيات 50 سنة كما نرى، في تسع عمليات. فيبدو جلياً أن ندرة العمليات هذه تحول دوننا والكشف عن شبكة توزيع التبغ الوعروني التي تبقى خفية. نستنتج من هنا أن دار بيروك

المتخصصة في تجارة الصحراء الأطلسية لم تتمكن من المشاركة في تنظيم هذا الفرع من التجارة. فهل مرد ذلك يا ترى هو عدم اهتمام هذه الدار بتسويق بضاعة قليلة المردودية من الأرباح؟ لكي نصل إلى جواب شاف، لابد أن نقارن أسعار تبغ وعرون بأسعار البضائع العابرة للصحراء أو القادمة منها مؤكدين بذلك أو نافرين هذه الفرضية. نسجل أن سعر حمولة الجمل من العلك الموريتاني يبلغ حال وصوله سوق غلميم ما معدله 76,25 مثقالا. ولمعرفة ما إذا كان سعر حمولة الجمل من التبغ الوعروني المنتوج محليا يعد غاليا بالمقارنة مع ثمن العلك، فإنه يكفي أن نشير إلى تهافت تجار تجكانت وأعريب وباقي قبائل الصحراء بالرغم من أن ثمن الحمولة الواحدة (60) مثقالا. ورغم كون قطاع البيع بالسلف يعرض القماش الأسود (الحنط) بما قدره 13 مثقالا للذراع الواحد والعبد الأسير بما معدله 35 مثقالا والبندقية 37,5 مثقالا، فإننا نسجل مدى ارتفاع ثمن التبغ المحلي بالمقارنة مع السلع الواردة من بعيد. ينعكس ولع رعاة الصحراء وأبناء قبائلها بنكهة الوعرونية ورائحتها وهذا ما يكشف عنه الشعر الحساني. ولإن كانت كنانيش دار بيروك تغنيننا عن الأدب لإثبات الطابع المربح لتجارة التبغ الوعروني، فإنه يبقى والحالة هذه، أن نعرف ما إذا كان تسويق هذه البضاعة خارج شبكة دار بيروك يعزز العلاقة العضوية بين الانتاج والرواج المحليين.

يترجم تحليل المجموعات الوثائقية من رسوم شراء الأراضي المسقية، العلاقة العضوية بين استقرار أسعار التبغ المسجلة والاستغلال الضخم لشبكة الري. في نفس السياق، نسجل بأن غياب أي قلب أساسي للأسعار يعد بالغ الأهمية. ذلك لأن حجم

الإنتاج، بالمقارنة مع حجم الطلب بالسوق، لم يتعرض لأي ارتباك. من هنا فالعلاقة بين الإنتاج والتسويق تعد كافية لاعتماد منهج حرية شاملة ومقدرة استقلالية تحدد نوعية الارتباط بدار بيروك أو غيرها من المتخصصين في احتكار القطاعات التجارية المربحة.

من الواضح إذن أن الرواج بسوق الأحد بوغرون يحدد الثوابت المحلية والقدرة الإنتاجية القادرة على تسويق المنتج دونما وسيط. كما أن التقسيم الجغرافي لمناطق التوزيع يكشف، من خلال انتماء التجار القبلي، عن تسرب الوعرونية لكل من تيندوف والمحاور الشرقية التي تربطها بالصحراء الوسطى. هذا ما يمكن أن نستنتجه من خلال الارتباط العضوي بين دار بيروك وتجار تجكانت وأعريب وأولاد بو السبع. لقد بدأت العلاقة بين العرض والطلب تتبلور بسوق الأحد بوغرون لتتنامي بعد القرن العاشر/السادس عشر، بسبب اتساع سوق التبغ بالصحراء، خاصة خلال القرن التاسع عشر. نتصور بذلك مدى استقلال سوق وعرون عن دور التجارة المتخصصة، خاصة إذا رأينا شبكات التوزيع تمتد عبر محوري تمبكتو وأطار. لاشك أن استقلالية تجارية واقتصادية كهذه قد تمت على حساب الدور التجارية المجاورة. وهو ما يعني أن العلاقة الوظيفية بين الإنتاج والتسويق قد انبثقت من صلب أهل وعرون بما يملكونه من قدرة إنتاجية وتجارية. على أي أساس حق للحراطين تملك الأرض المسقية وبمقتضى أية بنية اجتماعية صمدوا أمام الهجمات المنتظمة للرحل وسكان المداشر المجاورة؟

الخبرة المهنية والطاقة الاقتصادية :

إذا اعتمدنا مختلف الكنائيش والمجموعات الوثائقية، يبدو أن العملة الوحيدة المتداولة هي المثقال الفضي، سكة الوقت. إلا أن

هذه المصادر لا تعكس مع ذلك تطوره، فتبقى قيمته الحقيقية مجهولة. مع ذلك فإن هذه العملة التي تستطيع توضيح مكانة السوق كمقر لظواهر اقتصادية هامة، تكشف عن مدى تطور أسعار المقادير المائية المستعملة للري. إذا نحن تتبعنا ثمن الوحدة القياسية (تيرمت) بساقية حم التي تشتمل على حوالي 12 ساعة مائية، فإننا سنجد سعرها يتراوح خلال الفترة الفاصلة ما بين سنة 1811/1126 وسنة 1876/1292 بين 35 و 45 مثقالا. نسجل بذلك ارتفاعا على المدى البعيد تفرضه خلال مدة 65 سنة الندرة المتزايدة لمياه الساقية. نتأكد بذلك حقا من أهمية الماء كمصدر أول للغنى بوعرون فتتضح الأهمية الحقيقية للحراطين وهم أغلبية بوعرون. تكشف الوثائق والرسوم بما لا يدع مجالا للشك، عن احتكار الحراطين لمياه الساقية ومن خلالها قطاع التبغ. تتميز وعرون منذ قرون بتعاقب أجيال الحراطين مجسدين بذلك نوعية تقاطع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين سكان القرى والمدامر وأشباه الرحل ممتهني تربية الأغنام. لاشك أن تملك هذه الأجيال من الحراطين لأكبر قدر من الأراضي المسقية، يجسد دليلا على الغنى المتزايد. هذا ما تؤكد الرواية المحلية بمقتضى تقاليد شفوية وأخرى مكتوبة مركزة على استقلالية الحراطين السياسية وعن مدى ارتفاع مستواهم المعيشي. وإذا كانت أيديولوجية الرجل ومربي الماشية هي السائدة بمختلف بقاع هذه الضفة الشمالية الغربية للصحراء، فإننا ندرك لماذا يعمل آيت احماد او اعلي وبلحويلا على التقليل من أهمية الإنتاج الفلاحي الصرف. وحتى ندرك أن هذا الإنتاج يستجيب لمتطلبات الصحراء الفلاحية حتى قبل ظهور التبغ خلال القرن العاشر/السادس عشر، فإنه يكفي أن

نستكشف ولو بصورة تقديرية مختلف المراحل الإنتاجية القديمة. لاشك أننا سندرك إذاك نوعية العلاقات الفعلية التي ربطت على امتداد الفترات التاريخية الطويلة بين الحراطين وغيرهم⁽¹²⁾.

نكون بعد هذا العرض الأولي لإشكالية بهذا الحجم الكبير، قد تفهمنا لماذا تتشبت مقولة أشباه الرجل بالتقليل من نمط العيش الفلاحي بالمداشر⁽¹³⁾. ونذكر هنا بأن ما يميز العبد المعتق عن الحرطاني هو انتماءه الاجتماعي إلى خانة مفضلة عن خانة الحراطين. فابتعاده أسيرا «معتقا» عن المجالين الاقتصادي والسياسي، يخرجته من ميدان المنافسة، خلافا للحرطاني الذي يعتبر المنافس الفعلي للمتسידين على المجال الترحالي في احوال القرى والمداشر الكبرى. وهو أمر يتجلى بوضوح في العلاقة بين وعرون حيث يحتكر الحراطين أكثر الساقيات والأراضي المسقية بالمقارنة مع باقي الأسر التي تنحصر في ترتيب كمي بجوار المالكين الفعليين. والملاحظ هنا أن هذا النوع من روابط الجوار يعارض شكلا ومضمونا العلاقات التراتبية بين الأسياد والعبيد المعتقين. بل إن تاريخ التعامل بين الحراطين وباقي أهل وعرون وخاصة في الميدان الفلاحي، يثبت علاقات فئتين لمجتمعين متقاربين جدا. فبالنظر إلى أن الهدف من الإنتاج الفلاحي هنا هو الاتجار، يمكن القول بأنه يسوي بين جميع المنتجين ويضعهم في فئة اجتماعية واحدة. وحيث أن الحراطين يشكلون الأغلبية في نظام السوق الذي يساوي بين جميع المنتجين، فإنهم يلمسون أهميتهم الفعلية يوم الأحد بسوق وعرون. فنذكر مدى سذاجة الأطروحة التي تمزجهم بالعبيد المعتقين المنتشرين هنا وهناك بأشكال غير منظمة.

إن الهيمنة الاقتصادية التجارية على سوق وعرون تعد وحدها كافية لتوضيح مساهمة الحراطين الفعلية في تجارة التبغ عبر مسالك الصحراء. وهي إشارة دالة تكفي وحدها لتجسيد سلطة فعلية مستقلة عن هيمنة الرحل ومربي الأغنام الذين لم يتمكنوا من تجاوز أحواز المداشر والتسرب إلى داخل شبكات الري.

لذلك فإن تشييد حصن مهيب كحصن وعرون الذي يشهد على رسم مؤرخ سنة 1902/1319 إنما يصف بشكل قطعي، استقلالية الوظائف، التي تميز أهله عما عداهم، ومما يزيد من حجم هذه الوظائف هو تحكم أهل وعرون في ثلاث سواقي تحمل كلها أسماء أعيان الحراطين المعروفين محليا بشيوخ وعرون⁽¹⁴⁾. تنضاف هذه السواقي الثلاث إلى بعض الخطارات الموغلة في القدم لتكشف بما لا يدع مجالا للشك، عن مدى حجم البنية الفلاحية المصدرة للتبغ، مما يعكس انفتاحا على السوق الأسبوعي والمواسم المحلية. فبفضل المساحات المسقية بوعرون وسوقه المصدرة عبر مسالك الصحراء، أمكن لهذا الحصن تحديد الموقع الهام لساكنيه داخل محور الحركية الاقتصادية بهذه الضفة الشمالية الغربية للصحراء. وعلاوة عن كون استقلالية أهل وعرون تعد مفروضة على الرحل ومربي الأغنام من أشباه الرحل الذين هم في طريقهم إلى الاستقرار. فهي عضوية أساس الترابط الفعلي الذي تفترضه الشروط الموضوعية. من هنا فإن عبارة أهل وعرون لا يمكنها، عبر الرسوم والوثائق المختلفة، أن تكشف عن أية تبعية نحو الرحل ومربي الأغنام. والعقود القضائية وغيرها من الوثائق، جد واضحة فيما يتعلق بدور القاضي واحترام مفهوم العدل ناصية على أن الحراطين يعيشون مع باقي أسر وعرون جنبا إلى جنب في ظل قانون واحد.

وهي إشارة واضحة إلى كون هذا النظام القضائي يحترم الانتماءات القبلية لكل أسرة ويؤكد على حق الحراطين في التمتع بنفس العلاقات التي تجمع بين باقي أهل وعرون. يمكن إذن أن نخلص إلى أن توزيع السلط والامتثال للقوانين المعمول بها، كان يعكس احترام الجميع ويضع الرجل وغيرهم جميعاً أمام مسؤولياته.

الهوامش :

- (1) Mustapha Naïmi, "Nul Lamta où l'evail du sens étiologique", in le Nom Géographique: Patrimoine et Communication, Actes du Premier Colloque National sur les Noms Géographiques, IURS - DCFTT. Rabat, 1994, 45-85.
- (2) Mustapha Naïmi, "Nomades et sédentaires dans l'évolution historique de l'ensemble confédéral Tekna", Bulletin Economique et Social du Maroc, Rabat, n 157, 1986, 139-154.
- (3) مصطفى ناعمى، الصحراء من خلال بلاد تكنة، دار عكاظ، الرباط، 1988، 200 صفحة.
- (4) H. G. Cattenoz, la Table de Concordance des Ers Chretiennes حسب مؤلف et Hégiriennes, 1954 .
- (5) Paul Marty, "les Tekna du Sud marocain", in les tribus de la Haute Mauritanie, 1914 - F.C. de la chappelle, les Tekna du Sud Ouest Marocain", 1994, 93; - V. Monteil, Notes sur les Tekna, 1948, 11-14; مصطفى ناعمى، « أولاد بلحويلات » معلمة المغرب، 1355-1353.
- (6) مصطفى ناعمى، « أزوافيط » معلمة المغرب، 367-364، « آيت بلة »، معلمة المغرب، 1349-1346.
- (7) F.C. de la Chappelle, les Tekna, 93.

عبد المولى بن بوعلام، « البحر المحيط في نسب تكنة وأزوافيط »، مخطوط وارد بدراسة مصطفى ناعمى « تشكل اتحادية كنموذج للعلاقة بين الرواية الشفوية والعلوم الاجتماعية والإنسانية »، الثقافة الشعبية، الجامعة

- الصيفية، أكادير، دار عكاظ، الرباط، 1990، 273-290.
- (8) مصطفى ناعمي، «تكاوست»، معلمة المغرب، 2084-2089.
- (9) J. Caillé, le Consulat de Tanger, Paris, 1967, 107.
- (10) Dr Segur, "Rapport adressé à M. le Ministre de l'Agriculture et du commerce sur les modifications à apporter aux règlements sanitaires", Annales Maritimes, Paris, 1939, t 70, v 2, 746.
- (11) مصطفى ناعمي «الضفة الجنوبية للصحراء ما بين 1842 و 1872 من خلال كنانيش دار بيروك التجارية، مساهمة ثلاثة مصادر جديدة»، ندوة المصادر العربية للتاريخ الإفريقي، اللجنة العالمية من أجل تاريخ علمي وثقافي للإنسانية، الرباط 1-3 أبريل 1987.
- (12) M. Naïmi, "le pays Takna, commerce et ethnicité avant la constitution confédérale", Actes du Colloque le Maroc et l'Atlantique du XVe au XVIIIe siècle, Publ de l'Université Mohamed V, Rabat 1992, 121-146.
- (13) لا يمكن وصف التمايز الطبقي بين الحراطين (إيسوقيين) والعبيد (إيسمغان) كتشابكات متعاقبة وكتداخلات ولكن كتسلسل منتظم. ويتم التمييز بين أبناء أم حرطانية متزوجة من حرطاني وبعده من عبد معتق. يسمى أبناء الأول إيسوقيين بينما يسمى أبناء الثاني إيسمغان. ويبقى هذا الترتيب كما هو شكلا ومضمونا مضافا إلى أبناء الحراطين أوصافا قد تصل إلى حد نعتهم باليهود، بل أن الحراطين يمثلون فئة أشبه ما تكون بالمنبوذة حتى بالمقارنة مع العبيد المعتقين. يدل المثل القائل «هؤلاء العبيد أصليون - غواد إيسوقيين إبحورآن» على نوعية المفاضلة التي تحط من قدر الحراطين واصفة إياهم باللقطاء. ذلك أن ربط العبيد ببلال مؤذن الرسول يحدد نسبهم ويكشف عن أيديولوجية التمايز التي تفضلهم عن الحراطين. يلحق هؤلاء أنفسهم بداود وسليمان كجدين اسميين ومعلميين نقلا إلى أحفادهم الحرف المتنوعة. وهذه حقيقة تاريخية تكشف عن علاقتهم بالأحباش الذين عرفوا باحتكارهم للمعرفة المهنية. على أن هذا النبذ الاجتماعي لا يرغم الحراطين على ضرورة النزوح إلى أعالي الجبال من أجل التكتل والدفاع عن النفس. من هنا فالمقولة الأيديولوجية التي تحط منهم اجتماعيا لا تحول دونهم والمراقبة الفعلية المستمرة لمياه السواقي.
- أنظر M. Naïmi, "Cinétique de slaffs Takna, flexibilité et mobilité Sociale".
- (14) Paul Pascon, "La propriété des terres et des eaux de la maison d'Igh" Rabat, SMER, 1984.

حول قضية الحدود المغربية

محمد المعزوزي(*)

إذا كان كل الناس في جميع أقطار المعمور قد تتبعوا قضية الصحراء عن كثب أو بواسطة وسائل الإعلام السمعية والمرئية والمقروءة، فإنني كغيري من المهتمين بالحدود أشعر بنوع من المرارة والحسرة التي تمزق كبدي من جراء الوقت والجهد الثمينين المقدمين لتحرير أرضنا، واستمرار بعض الأطراف في معاكسة الحق المشروع للمغرب في اكتمال وحدته الترابية، وكأنهم بذلك يقومون بتطبيق سياسة عجز الاستعمار عن تحقيقها أثناء تواجده ببلادنا خاصة، وأن خروج الاستعمار من أقطار المغرب العربي خلف وراءه قنابل حدودية موقوتة، تفجرت أحداها في حوادث حاسي بيضاء بين المغرب والجزائر، وصراعات الحدود بين الجزائر وتونس، ثم بين الجزائر وليبيا.

وانطلاقاً من هذا التمهيد فإن هذا المقال لا يتوخى إعادة ما سبق طرحه في الكتب المتخصصة في موضوع الصحراء أو تلك التي تلامس الموضوع عن بعد، ومن خلال وجهات نظر ومرجعيات معينة، بقدر ما يحاول تقديم مجموعة من الانطباعات الناتجة عن دراساتي المتعددة للحدود الوطنية الشرقية والجنوبية والشمالية والتي أتوخى من وراء عرضها تحسيس الجيل الصاعد بمعاناة (*) كاتب باحث، عضو اللجنة التي مثلت المملكة المغربية بمحكمة العدل الدولية بـ «لاهاي» في ملف قضية الصحراء المغربية.

الآباء والأجداد من أجل صيانة وحدة التراب والدفاع عنه ليتسنى لهم تحمل مسؤولياتهم في إيصال الأمانة إلى أبنائهم وأحفادهم كما تسلمناها بدورنا من آبائنا وأجدادنا. لهذه الأسباب وغيرها سأحاول معالجة الموضوع من خلال المحاور التالية:

1 - الحدود الوطنية وممارسات حكام الجزائر

2 - قضية الجيوب الشمالية المحتلة

3 - تأملات حدودية مستقبلية

1- الحدود الوطنية وممارسات حكام الجزائر:

إن المتأمل لتاريخ المغرب الحديث يعرف جيدا ما عاناه الشعب الجزائري في حروبه التحريرية، فمنذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 والتراب المغربي عرضة للانتهاكات الاستعمارية الفرنسية خاصة بعد مساندته لثورة الأمير عبد القادر وغيره من زعماء التحرير بالجزائر وهكذا كانت الجبهة الشرقية والصحراء الجنوبية منطلقا للتوسع الاستعماري بالمغرب إلى أن سقط في قبضة الاستعمار سنة 1912 كما تؤكد ذلك معاهدة الحماية، لكن المغاربة لم يستسلموا لهذا البلاء الجديد بقدر ما حاربوه بقوة السلاح والرجال، فعرف تاريخنا أبطالاً وشهداء عطرت دماؤهم أرضنا المعطاء، وبمجرد القضاء على الثورات المسلحة، انطلقت حركة وطنية جديدة تتخذ من التأطير السياسي والتكوين الوطني للشعب وسيلة لتحقيق ثورة شاملة عجلت برحيل الاستعمار بعد أن امتدت سطوته لتمس مقدسات البلاد في شخص بطل التحرير مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه، وبحصول الاستقلال الوطني ظل المغرب وفيا للقضية الجزائرية ومخلصا لها. ومدافعا عنها في

مختلف المحافل الوطنية والقومية والإسلامية والدولية إلى جانب مساندتها بالمال والسلاح والرجال، وعندما أثيرت قضية الحدود مع الحكومة الفرنسية، رفض المغرب الطلب الفرنسي واستجاب لدعوة الأشقاء الجزائريين في تأخير النظر في هذه القضية إلى حين استقلال الجزائر حتى لا يتم التشويش على الجهود الحربية والجهادية للجزائريين، كما تنص على ذلك معاهدة 1961، خاصة أن أرض المغرب أصبحت مستقرة أمنا للثوار الجزائريين وقاعدة خلفية آمنة لجبهة التحرير الجزائرية، مما جعل التراب الوطني عرضة للانتهاك الفرنسي أرضا وجوا وبحرا. لكن بمجرد استقلال الجزائر تنكر حكامها لاتفاقية 1961 التي كانت قائمة على الثقة والأخوة العربية والاخلاق الإسلامية التي تنص على الوفاء بالعهد بدليل قوله عز وجل «والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون» وأعقب هذا التنكر عدة اعتداءات وانتهاكات للحدود الشرقية والجنوبية، مما فرض على المغرب الدفاع عن أرضه، فكانت حرب حاسي بيضاء سنة 1963.

وكادت هذه الحرب أن تتسع لتشمل، جميع الجبهات بعد أن حاولت بعض الأطراف تدويلها، لكن حكمة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وتدخل بعض رؤساء الدول الإفريقية والعربية أدت إلى إيقاف القتال والانطلاق في مفاوضات حول أراضي يعرف حكام الجزائر حقيقة مغربيتها، لكن سياسة الهيمنة والخضوع للأطماع الاستعمارية وبعض الأيديولوجيات المستوردة دفعت بالجزائريين نحو التصعيد العسكري والمساومات السياسية والاستغلال البشع لبعض الظروف القاهرة التي عاشها المغرب. وتناس زعماء جبهة التحرير المساعدة المغربية للمناضلين الجزائريين، سواء على المستوى العسكري أو الدبلوماسي أو الاجتماعي.

وانتهت كل المناورات الجزائرية بعقد اتفاقية 1972 في ظروف صعبة، حيث بترت بعض الأجزاء من التراب الوطني الممتد من نواحي توات إلى جبهة تَنْدُوف، وعلق المغاربة عل الانفتاح الجزائري والتكامل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي أمالا كبيرة للاندماج الإقتصادي يتجاوز الحدود المرسومة بين مختلف دول المغرب العربي، لكن جشع حكام الجزائر وطمعهم لم يقف عند هذا الحد بل امتد لمعاكسة المغرب في صحرائه الجنوبية، وخلق صراع جديد مجاني من خلال التحالف مع الاستعمار الاسباني على حساب الحقوق التاريخية للمغرب، وهكذا تحولت الأنظار من الحدود الشرقية إلى الصحراء الغربية بغية خلق كيان مصطنع عميل وتابع للجزائر، وقد انفقت الجزائر في سبيل تحقيق ذلك ملايين الدولارات، وكان من الأجدى أن تنفق لتحقيق رفاهية أشقائنا الجزائريين ومختلف دول المغرب العربي. وهكذا أصبح حكام الجزائر وأذيانهم من المرتزقة لعبة في يد بعض الدول الاستعمارية والحرب الباردة السائدة آنذاك، وتم إقحام عدة دول عربية إفريقية وغربية وأسيوية في الصراع، لكن المغاربة ظلوا يلتزمون الحكمة، ويعالجون قضيتهم الوطنية في إطار المشروعية الدولية حيث كانت المسيرة الخضراء تتويجا لحكم محكمة العدل الدولية. ومع تواجدها تاريخيا وحاضرا ومستقبلا في الصحراء، فإن حكام الجزائر لم تلههم مشاكلهم الداخلية عن التسليم بواقع مغربية الصحراء، بقدر ما كانوا يعلقون مشاكلهم الداخلية على مشجب مغربية الصحراء.

2 - قضية الجيوب الشمالية المحتلة:

إذا كانت الاستراتيجية التي اعتمدها محرر الصحراء جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله رائدا قوميا وعالميا. فإن مشكل الجيوب الشمالية المحتلة يفرض ذاته على المغاربة من حين لآخر بسبب الرغبة الاستعمارية الاسبانية في تأييد الاستعمار وجعله أمرا محسوما، وذلك من خلال إصدار اسبانيا لعدة قوانين كلها تحاول تكريس الاحتلال للجيوب الشمالية المحتلة. وقد ساهمت ظروف المغرب الحالية في جعله يكتفي بالإحتجاج. ومحاولة خلق إجماع قومي وإسلامي ودولي حول قضية جيوبه المحتلة، كما تؤكد ذلك مختلف التوصيات الصادرة عن عدة هيئات دولية، ونخص بالذكر منها توصية جامعة الدول العربية التي أصدرت القرار التالي:

يقرر المجلس الموافقة على توصية لجنة الشؤون السياسية الآتية:

« نظرت اللجنة مذكرة المملكة المغربية في الموضوع وتوصي بالموافقة على ما يأتي:

نظرت اللجنة موضوع مدينتي سبتة ومليلية وصخرتي الحسيمة وفاليس، والجزر الجعفرية الخاضعة للاحتلال الاسباني، والذي كانت الحكومة المغربية قد طلبت ادراجه في جدول أعمال لجنة الأربعة والعشرين التابعة للأمم المتحدة بتاريخ 30 يناير 1975، تحت رقم أ/أس/109/475.

وبعد الاطلاع على القرار الذي اتخذه المجلس الوزاري لمنظمة الوحدة الافريقية بتاريخ 12 فبراير 1975 بشأن تأييد المغرب في مطالبه العادلة المتعلقة باسترجاع الجيوب المستعمرة في الساحل الشمالي للمغرب.

وبناء على المواقف التاريخية لجامعة الدول العربية في محاربتها الاستعمار وكفاحها من أجل تحرير جميع المناطق التي ترسفت في أغلاله.

واعتبارا للتضامن العربي الذي يحتم على الدول العربية مؤازرة ومساندة أية دولة عربية تعاني من احتلال أجزاء من ترابها الوطني.

ونظرا لكون بقاء هذه الجيوب الاستعمارية في المغرب يشكل خطرا على وحدته الترابية.

ومحافظة على العلاقات التاريخية القائمة بين الدول العربية واسبانيا، توصي اللجنة بما يأتي:

1 - التأييد المطلق للمملكة المغربية في مطالبتها باسترجاع سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وصخرتي الحسيمة وفاليس.

2 - دعم الطلب الذي تقدمت به المملكة المغربية إلى لجنة تصفية الاستعمار لتطبيق المبدأ المعمول به من أجل التعجيل بتحرير المدينتين المغربيتين والجيوب المجاورة لها واعادتها للوطن الأب.

3 - بذل المساعي لدى الحكومة الاسبانية للدخول في مفاوضات مباشرة لإنهاء احتلالها لهذه الأراضي المغربية تتيما لوحدية المغرب الترابية.

4 - أن يتابع الأمين العام الموضوع ويقدم تقريرا عنه في الدورة القادمة لمجلس الجامعة. ونفس التأييد قام به وزراء خارجية العالم الاسلامي المنعقد في دورته السادسة العادية في جدة في المملكة العربية السعودية من 3 إلى 6 رجب 1395 هـ الموافق لـ 12-15 يونيو 1975 م وذلك في بيانها التالي:

تأكيدا للارادة التي أعلنت في ميثاق المؤتمر الاسلامي من أجل تعزيز التضامن الاسلامي بين الدول الأعضاء والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله.

ونظرا لما تقوم به السلطات الاسبانية من أعمال التعسف والطرده الجماعي والتحرشات العسكرية كرد فعل ضد مطالب المملكة المغربية في استرجاع مدينتي سبتة ومليلية والجزر المغربية الساحلية الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية الاسبانية.

يقرر:

1 - مساندته الكاملة للمملكة المغربية في مطالبتها باسترجاع سيادتها على مدينتي سبتة ومليلية والجزر الساحلية التابعة لهما.

2 - يطلب من لجنة تصفية الاستعمار النظر في هذه القضية واصدار توصية تطالب الحكومة الاسبانية بالدخول في مفاوضات مع المملكة المغربية من أجل تصفية بقايا وجودها الاستعماري في المناطق الشمالية من المملكة المغربية.

3 - يعلن المؤتمر عن قلقه واستيائه من التحرشات التي يقوم بها الجيش الاسباني في هاتين المدينتين والجزر الساحلية التابعة لهما، كما يعبر عن استنكاره لأعمال القمع والاعتقال والطرده الجماعي للسكان المغاربة من المدينتين والجزر الساحلية التابعة لهما.

4 - يدعو المؤتمر الحكومة الاسبانية لتعمل - حفاظا على علاقاتها مع العالم الاسلامي - على إنهاء احتلالها لهذه المناطق المغربية.

5 - يطلب من السيد الأمين العام للمؤتمر الاسلامي أن يقوم بالاجراءات الضرورية لتبليغ هذا القرار إلى الحكومة الاسبانية وإلى منظمة الأمم المتحدة.

وإذا كان المغرب على دراية بالحيل الاستعمارية التوسعية التي عانى منها طوال تاريخه القديم والحديث، ويحاول علاج الجيوب المحتلة من خلال منطق العقل والتاريخ والمستقبل المشترك مع الجارة إسبانيا، فإن الإسبانيين وبعض مؤيديهم يحاولون تقزيم المغرب وخنقه وعزله عن أوروبا وإفريقيا حتى يتسنى لهم إخضاعه لسياستهم الاستغلالية والاستنزافية لخيراته، وأظن أن الحل المنطقي هو الالتزام باقتراح جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله حول خلق خلية التفكير المستمر في مشكل سبتة ومليلية ومختلف الجيوب الشمالية حفاظا على المصالح المشتركة لإسبانيا والمغرب، دونما إغفال للاستعداد الوطني اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا لكافة الاحتمالات الجيدة منها والسلبية بدل التزامنا بقول الشاعر العربي أمريء القيس «اليوم خمر وغدا أمر». ونتمنى لو كان لنا أمر حاسم في هذه الجيوب في المستقبل القريب، لكن العمل للغد والمستقبل يبدأ من اللحظة التي يوجد فيها الإنسان، خاصة أن مختلف المناطق الاستعمارية أيلة للتحرير في نهاية القرن، وأخرها جزيرة هو نُكونك التي ستعود للصين الشعبية في حدود سنة 1997، خاصة وأن الإسبانيين يستعدون بجدية للاحتفال بالذكرى 500 لاحتلال مدينة مليلية.

3 - تأملات حدودية مستقبلية:

قادتني معالجة النقطتين السابقتين إلى صياغة تأملات مستقبلية للحدود الوطنية، ولا أتوخى من ذلك تقديم حلول جاهزة أو الإدعاء بإمكانية فرض رأي أحادي، بقدر ما أحاول ترك الحرية لوجداني للإفصاح عن ما يختمر داخله في قضية شائكة لازمت

كياني لردح طويل من عمري، وأهمها أنني استغرب من الحال التي أصبح عليها عالمنا العربي والاسلامي في مقابل الغرب، فبقدر ما ينحو الغرب نحو الوحدة والتكامل الاقتصادي والاجتماعي، يتوجه عالمنا العربي الاسلامي نحو التمزق والتشردم، بهدف خلق كيانات ضعيفة، تسهل السيطرة عليها، والغريب في الأمر أن الغرب يجد في بعض الحكام العرب والمسلمين أدوات لتطبيق سياسته الخالدة «فرق تسد».

وأظن أن عامل الجغرافية والتاريخ والمستقبل المشترك إلى جانب روابط العروبة والدين واللغة كلها عوامل توحد الأمم أكثر مما تمزقها، لذلك استغرب كلما وجدت قبائل أو جهات عربية أو إسلامية ترفع شعار الانفصال بتدعيم غربي مادي وإعلامي، وكان من نتيجة ذلك، الضعف والتخلف والموت البطيء لحضارة إسلامية وعربية أثبتت وجودها من خلال وحدتها لا تمزقها. فعقيدة الاسلام الداعية إلى التوحيد يمكن أن تكون نبراسنا في رفع شعار الوحدة. أي من توحيد الخالق عز وجل نتوجه نحو توحيد الشعوب والتطلعات نحو المستقبل المشترك.

وقد يبدو حديثي متشائماً اتجاه قضية الحدود الوطنية والوحدة المغاربية والعربية والاسلامية، لكنني أخاف أن تنسى تطلعاتنا مع استمرارية صمتنا، وسندي في ذلك قول الشيخ داود في كتابه القيم «تاريخ تطوان» (جزء 12، صفحة 360).

إنني - وأنا اليوم على عتبة الشيخوخة - لأشعر بالحسرة تملأ قلبي، والألم يحز فؤادي حينما أفكر في بقاء مثل هذه الحصون الحربية، والجيوش الأجنبية، فوق تراب وطني العزيز، فما هو -

يا ترى - شعور شبان اليوم وأحرار الجيل، لقد كافح أحرار المغرب (أمس) حتى كسروا قيود الاستعمار ورموا بأشلائه في أعماق البحار ومزقوا قيود الحماية المفروضة شر تمزيق وارجعوا للوطن العزيز حريته واستقلاله ووحدته ولكنه ما يزال على أحرار المغرب (اليوم) دين وأي دين، دين لا يقبل التأخير ولا التأجيل، ذاك هو العمل الجدي بكل ما في الإمكان لإرجاع مدينتي سبتة ومليلية وبقية الأراضي المغتصبة إلى أحضان المغرب تحت ظل العروبة ولواء الاسلام والعزة المغربية الخفاقة الأعلام.

التجارة الصحراوية: تجارة النحاس بين المغرب والسودان (ق 3-7 هـ / 9-13 م)

الموساوي العجلوي(*)

شكلت البضائع النحاسية مادة استراتيجية في التجارة الصحراوية، نظرا للطلب الذي كان قائما عليها في ممالك السودان جنوب الصحراء حيث ارتبطت مادة النحاس بالحياة اليومية للسكان في الاستعمال اليومي وفي الزينة، وساهم النحاس أيضا في ازدهار صناعات الصهر والتحويل في المحطات التجارية في الضفة الجنوبية للصحراء.

وبقدر ما كانت الممالك السودانية مستهلكا كبيرا للنحاس، كان المغرب يتوفر على مناجم متعددة لاستخراج ومعالجة المعادن المختلفة. ويعد مجال الأطلس الصغير مخزنا للترسبات المعدنية النحاسية وتشير النصوص التاريخية إلى ظاهرة تصنيع النحاس ومزجه بمعادن أخرى، ودوره في التجارة الصحراوية، وكان النحاس مادة أساسية في استيراد الذهب إلى الضفة الشمالية وبالخصوص نحو سجلماسة ونول لمطة حيث حوّل معظمه إلى قطع نقدية ساهمت في تكوين كتلة معدنية ونقدية مغربية أعطت للاقتصاد المغربي آنذاك قوة متميزة.

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء.

في المقابل عثر في مواقع متعددة في الضفة الجنوبية للصحراء على مئات السبائك والحلي وأدوات الاستعمال اليومي النحاسية الحمراء والصفراء - النحاس الممزوج بالزنك - والنحاس الذي يحمل نسبة هامة من الفضة أو الرصاص، وساهمت التحليلات المختبرية التي أنجزت على هذه العينات، في الكشف عن طرق معالجة المعادن والصور وأساليب المزج بين مختلف المعادن، وأبانت عن المستوى الحضاري للصناعات المعدنية في التاريخ المغربي.

1 - المعطيات النصية :

أثارت الانتاجات المنجمية والتعدينية اهتمام الرحالة والجغرافيين العرب، فمع كتبهم الأولى ظهرت أولى المعلومات حول المناجم ومراكز التعدين وأهميتها في النسيج الاقتصادي والسياسي للمغرب آنذاك، فاليعقوبي في كتابه «البلدان» (القرن 3 هـ/9 م) أشار إلى أهمية المعادن بجبال الأطلس الصغير، وبالخصوص حول مدينة تامدلت التي كانت حسب رواية اليعقوبي تحت إمرة يحيى بن إدريس العلوي⁽¹⁾. ومن خلال السرد الذي يورده اليعقوبي يتضح أن إقليم سجلماسة وسوس كانا مرتبطين بالسودان بالطريق التجاري الصحراوي: «ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبيلة يريد أرض السودان (...) يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة...»⁽²⁾.

هذه إذن هي الصورة التي كانت لدى الجغرافيين العرب الأوائل، عن سجلماسة وسوس، ويؤكد هذا شهادة ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك (3 هـ/9 م) الذي يتحدث عن الخوارج بمنطقة

سجلماسة وامتلاكهم لمنجم الفضة: «وفي يدي الخارجي الصفري درعة (تدغة)، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأهل وفيها معدن فضة وهي مما يلي الجنوب إلى بلاد الحبشة...»⁽³⁾.

وتتوالى مكونات هذه الصورة في كتابات الجغرافيين عن مجال الأطلس الصغير المختزن لثروات معدنية والذي يشكل في نفس الوقت المرفأ التجاري نحو ممالك السودان عبر الصحراء. فالمسعودي في كتابه مروج الذهب (4 هـ/10 م) يشير إلى الأهمية التجارية لهذه المنطقة في جلب ذهب السودان الذي يحول نقوداً بسجلماسة⁽⁴⁾. ونجد عند المقدسي شهادة حول وجود منجم للفضة بإقليم سجلماسة وارتباط الإقليم بالسودان⁽⁵⁾. إلا أننا نجد أدق التفاصيل في روابط سجلماسة بالسودان عبر أودغست، عند ابن حوقل (4 هـ/10 م) الذي زار سجلماسة سنة 340 هـ/951 م⁽⁶⁾. وينقل إلينا البكري (5 هـ/11 م) معلومات هامة حول مناجم النحاس بهذه المنطقة، مناجم تُونِدَان (أم جران حالياً) وتيحمامين (تازلفت) بالإضافة إلى معادن الفضة بتامدلت (العدانة حالياً)⁽⁷⁾.

ونجد لأول مرة إشارة واضحة لتصدير النحاس نحو ممالك السودان عبر الصحراء، إذ يقول: «ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع»⁽⁸⁾ مع العلم أن ابن حوقل كان قد أشار في القرن 4 هـ/10 م إلى أهمية التجارة بين سجلماسة وأودغست، والظاهر أن مادة النحاس أخذت بعداً كبيراً في التجارة الصحراوية ابتداءً من القرن الرابع الهجري وأصبحت من البضائع المطلوبة بإلحاح في الأسواق السودانية وهو الشيء الذي نجد له صدى في المصادر التاريخية التي جاءت بعد البكري، فالزهوي في كتاب الجغرافية

(6 هـ/12 م) يذكر النحاس المصدر من مراکش⁽⁹⁾ و«النحاس المصبوغ السوسي»⁽¹⁰⁾ وذلك إشارة إلى النحاس الأصفر، وهذا يعني ممارسة مزج النحاس الأحمر بالزنك لكي يصبح نحاساً أصفر.

ويذكر الإدريسي، في كتابه نزهة المشتاق (6 هـ/12 م)⁽¹¹⁾، تجارة الصحراء الرابطة بين سجلماسة ومدينتي سلا وتكرور بالسودان حيث يصدر إليهما من ضمن البضائع النحاس ويركز الإدريسي بالأساس على قيمة النحاس، لدى سكان افريقيا السودانية، فيذكر أن زينتهم كانت من النحاس⁽¹²⁾ ويضيف: «ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلا وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم...»⁽¹³⁾، ويذكر الإدريسي عند حديثه عن أهل أغمات في عهد المرابطين: «وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر الأموال من النحاس الأحمر والملون...»⁽¹⁴⁾ وهذه شهادة أيضاً تبرز أهمية البضائع النحاسية في التجارة الصحراوية أيام المرابطين.

ويورد الإدريسي عند حديثه عن مدينة داي مايثبت جودة النحاس الأصفر الذي كان يصنع بسوس لدرجة أنه كان مرجعاً للإتقان، فيقول الإدريسي عن مدينة داي: «وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعد له غيره من النحاس لمشارك الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو، لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة وهو إذا طرق جاد ولم يتشرح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس، وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس

وليست مدينة داي من بلاد السوس لأن بينهما مسافات أيام كثيرة ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الأعمال...».

ويركز صاحب كتاب الاستبصار (6 هـ/12 م) على أهمية ايجلي بمنطقة سوس في تصدير سبائك النحاس نحو بلاد السودان⁽¹⁶⁾ كما يؤكد على قيمة النحاس عند أهل السودان الذين يتبايعون بحلق النحاس⁽¹⁷⁾.

ويذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان (7 هـ/13 م) أنه ضمن المواد المصدرة إلى بلاد السودان أساور من النحاس الأحمر وحلق وخواتم⁽¹⁸⁾.

ونجد نفس المعلومات عند القزويني في كتابه: آثار البلاد وأخبار العباد (7 هـ/13 م) إذ يذكر الحلق النحاسية ضمن صادرات المغرب نحو السودان⁽¹⁹⁾.

ويتحدث المراكشي في كتابه «المعجب» (7 هـ/13 م)، عن مناجم النحاس والزنك بسوس، ولأول مرة نجد إشارة في نص تاريخي إلى وجود منجم للزنك بالمغرب، وربما مرد ذلك إلى شهرة المنجم⁽²⁰⁾.

أما ابن سعيد في كتابه الجغرافيا (7 هـ/13 م) فيتحدث عن وفرة النحاس بسوس⁽²¹⁾.

نستخلص من هذه النصوص أن النحاس بالخصوص النحاس الأصفر بدأ يتخذ مكانة مهمة في التجارة الصحراوية ابتداءً من القرن الخامس الهجري، بتزايد الطلب على هذه المادة بالسودان،

وهذا ما نقلته كل المصادر التاريخية، وهذه الوضعية امتدت قرونا بعد ذلك إذ نجد لها صدى عند الحسن بن محمد الوزان في كتابه وصف إفريقيا وأيضا عند مارمول (إفريقيا) (8 هـ/16 م) فالحسن بن محمد الوزان يعطينا معلومات هامة عن إنتاج النحاس بإفران (الأطلس الصغير) وأن السكان كانوا ميسورين لتجارتهم مع السودان (ولاته وتمبكتو) وأن إفران كانت تحتضن عددا كبيرا من الصناع الذين ينتجون أواني نحاسية تباع بكثرة في السودان وكانت مناجم نحاس إفران بقدم الجبل وأبانت التحريات الميدانية أن الأمر يتعلق بمناجم وانسيمي وأدرار وناس وتاوريرت وناس وتاسكالا. ويؤكد مارمول نفس المعلومات عن نحاس إفران ويضيف أنه نظرا لأهمية إنتاج النحاس بالمنطقة أوفد السلطان السعدي واليا مقيما بإفران لمتابعة صناعة النحاس وأن المواد النحاسية المصنوعة في عين المكان تسمى الصيني والإشارة واضحة إلى صناعة النحاس الأصفر⁽²²⁾.

2 - المعطيات المادية

2-1. المناجم المغربية :

تختزن جبال الأطلس الصغير عشرات المناجم النحاسية التي ظلت نشيطة خلال قرون عدة من تاريخ المغرب، فانطلاقا من دراسة أنجزناها حول مناجم الأطلس الصغير، أمكننا إحصاء مجموعات مهمة من الاستغلاليات المنجمية والتعدينية، متمركزة حول المدن التي لعبت أدوارا كبيرة في تاريخ المغرب، وهكذا وجدنا أن عشر استغلاليات منجمية للنحاس والرصاص والمنغنيز والحديد

ارتبطت بمدينة نول لمطة - كما تم إحصاء ست وعشرين استغلالية حول مدينة إفران وجلها كان ينتج النحاس والمنغنيز والرصاص، ومن أهم مناجم نحاس إفران نذكر وانسيمي وأدرار وناس وتاسكالا، وارتبطت بتامدلت خمس وثلاثون استغلالية للنحاس والفضة والزنك والحديد، كمناجم نحاس إستواناس ومواناس وإفران وناس ومنجم تمزكدوين للزنك. وحول مدينتي ايجلي وتارودانت تم إحصاء اثنتين وثلاثين استغلالية من أهمها مجمعات إنتاج النحاس بتلات نوامان وتاتاوت، والتي كانت بدون شك وراء ازدهار صناعة النحاس بايجلي وتارودانت. ونجد مجموعة أخرى من المناجم مرتبطة بمدينة زاكورة التي لعبت دورا استراتيجيا في الطريق التجاري سجلماسة - نول. ومن أهم هذه المناجم، نذكر أم جرات - وذكره البكري تحت إسم تنودادن - والذي يغطي مساحة 400 كلم²، بالإضافة إلى منجم البليدة. وأحصينا حول مدينة سجلماسة خمسا وعشرين استغلالية منجمية للنحاس والرصاص والفضة، نذكر من بينها منجم تازلفت للنحاس - والذي ذكره البكري تحت إسم تحمامين - ومنجم ايمشر وأخيرا مناجم تازلاغت وتاسريرت وأگوججال، ويعد تازلاغت من أهم وأكبر مناجم إنتاج وتعددين النحاس بالمغرب كما تشهد بذلك آلاف الأطنان من الأتربة المستخرجة من باطن الأرض وركامات هامة من النفايات المعدنية قدر حجمها بحوالي ثمانين ألف طن وإبراز دور النحاس في الصناعات المنجمية قديما، نذكر أن الاستغلال المعدني بتازلاغت وصل إلى أعماق 114 م تحت سطح الأرض كما، عرفت مناطق أخرى خصوصا بالأطلس الكبير والمتوسط إنتاجا هاما للنحاس.

أمكننا تقديم فرضيات حول إنتاج النحاس بالأطلس الصغير انطلاقاً من الحفريات وركامات الأتربة التي تم حساب حجمها، وافترضنا أن المغاربة القدامى استغلوا فقط ما يقارب 1٪ من مركبات النحاس في الأحجار المعدنية وأنه تم إنتاج ما يفوق 100 ألف طن من النحاس⁽²³⁾، مع العلم أن المعثورات المعدنية والنصوص التاريخية تتحدث عن النحاس الأصفر أي الممزوج بالتوتيا (الزنك) والنحاس الممزوج بالفضة أو الرصاص⁽²⁴⁾.

إن المجال الجغرافي المشكل للضفة الشمالية للصحراء يختزن عددا هاما من المناجم المتنوعة: نحاس، فضة، رصاص، زنك، حديد، وهي المواد المعدنية التي لعبت أدوارا أساسية في التجارات القديمة، بالإضافة إلى أن مجال الأطلس الصغير عرف مراكز متعددة للتعددين سواء حول المناجم المعروفة أو في المدن القديمة بسجل ماسة وزاكورة وتامدلت ونول وتازلاغت وإيجلي وتارودانت. كل الدلائل الأركيولوجية والتحليل المختبرية والنصوص التاريخية تؤكد وجود صناعات معدنية في الضفة الشمالية للصحراء⁽²⁵⁾ أي أن كل الإمكانيات المادية كانت متوفرة لقيام تجارة المعادن نحو الضفة الجنوبية للصحراء مع العلم أن النحاس الأحمر والأصفر كان يتمتع بجاذبية خاصة لدى سكان السودان⁽²⁵⁾.

2-2. المعثورات المعدنية بالضفة الجنوبية للصحراء.

1.2.2- المعثورات المعدنية بحوض واد السنغال

عثر على بقايا معدنية بعدة مواقع بحوض واد السنغال: سين نغاين، ديورون جوماك، ديورون بونداو، راو، ندالان، بودور،

ساري تيوفي، سانتيوبارا، فابورا، فاريال،... وأدت تحاليل هذه البقايا المعدنية إلى الكشف عن معلومات هامة حول مكوناتها الكيميائية وطرق صهر المعادن وأساليب صياغة الحلي⁽²⁶⁾. وأمكن التمييز خمس (5) مجموعات.

- المجموعة الأولى : وتحتوي بقايا هذه المجموعة على نسب هامة من النحاس تتراوح بين 90٪ و 99.9٪ وتمثل في مجملها 43.87٪ من مجموع البقايا المعدنية التي تم تحليلها والتي وصل عددها إلى 107 عينة وتتكون هذه المجموعة من أساور وخاتم، ويظهر أن الأساور النحاسية كانت السلعة الرائجة في هذه المنطقة وبالأخص في مواقع بادور وديورون بوماك وسين نكاين.

- المجموعة الثانية : وتظم عينات من الحلي وصل عددها إلى 39 وتحمل في تكوينها الكيميائي أزيد من 10٪ من الزنك، وكما هو الحال في المجموعة الأولى تشكل الأساور العينات الغالبة وبالأخص في موقعي سين نكاين وديورون بوماك.

- المجموعة الثالثة : وتشمل تسع (9) عينات عثر عليها براو وسانتيوبارا وتتكون بنسب كبيرة من الفضة مع نسب من النحاس تتراوح ما بين 1 و 10٪، عدا في عينة واحدة تتساوى فيها نسب الفضة والنحاس. وهذه المجموعة تتكون في مجملها من قلادات.

- المجموعة الرابعة : وتحتوي على خمس (5) عينات من البرونز، وتتميز عينات هذه المجموعة بوجود النحاس فيها بنسب كبيرة مع حضور للقصدير لنسب تتراوح بين 5 و 15٪ والزنك بنسب 1 إلى 15٪، عدا في عينة واحدة لوحظ فيها غياب الزنك، وتتركز هذه المجموعة في ندالان وبودور وسانتيوبارا.

- المجموعة الخامسة : وتمثل 13 عينة، أي ما يعادل 13,11٪ من مجموع المعثورات، وتتميز عينات هذه المجموعة بعدم تجانس مكوناتها الكيميائية هذه المجموعة بعدم تجانس مكوناتها الكيميائية، وتوجد في المواقع التالية: سين نكاين وبودور وديورون بومالك ندالان وبودور وسانتويبارا.

2.2.2- المعثورات المعدنية بتكدوست⁽²⁷⁾

ويتعلق الأمر بمجموعة سبائك وقطع نحاسية متعددة فالسبائك الصفراء تصل نسبة النحاس فيها من 67,4٪ إلى 86,5٪ وتنحصر نسبة الزنك بين 7 و 12٪، ويلاحظ أن إحدى السبائك تحتوي على 20٪ من الرصاص، وهي نسبة استثنائية. وأهم ملاحظة يمكن تسجيلها على المكونات الكيميائية لهذه السبائك هو تعدد معادنها. وأبانت التحاليل المختبرية أنها عرفت عدة عمليات صهر لتنقيتها من الشوائب أو لإضافة معادن أخرى إليها. ولوحظ في مكونات السبائك الصفراء أنه كلما ازدادت نسبة الزنك فيها كلما قلت نسبة الحديد⁽²⁸⁾.

ويظهر من حفريات موقع تكدوست أن مجموعة من الحلي وأدوات الاستعمال اليومي قد أنتجت في عين المكان انطلاقا من سبائك نحاسية وصلت المنطقة من الضفة الشمالية للصحراء أواخر القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري (10 م- 11 م). وأثبتت التحاليل أيضا أن الأمر لا يتعلق فقط بأدوات نحاسية، ولكنها عينات متكونة من مزيج من المعادن: نحاس وزنك ورصاص وفضة، وهذا ما يؤكد تصدير هذه المعادن نحو الضفة الجنوبية للصحراء.

3.2.2 - المعثورات المعدنية بكومبي صالح⁽³⁰⁾

تختلف البقايا المعدنية التي عثر عليها في كومبي صالح في مكوناتها الكيميائية عن تلك التي عثر عليها في حوض واد السنغال وتختلف اختلافا طفيفا عن عينات تگداوست. ويتعلق الأمر بخمس عشرة عينة من النحاس الأحمر ومن النحاس الممزوج بالرصاص ومن النحاس الأصفر وقطعة من الفضة، وأفضت التحاليل المختبرية إلى الملاحظات التالية :

- تؤكد معثورات كومبي صالح الاتجاه العام للمعثورات المعدنية بالضفة الجنوبية للصحراء، أي تعدد وتنوع مكونات الأدوات المعدنية.

- بالنسبة لجل عينات كومبي صالح نلاحظ وجود نسب هامة من الزرنيخ تصل إلى 5٪

- وجود الرصاص بنسبة كبيرة حيث يشكل مع النحاس المكون الرئيسي في بعض العينات وتصل نسبته إلى 28,5٪، وتتأرجح نسبة الزنك في النحاس الأصفر بين 10 و 15٪، أما القطعة الفضية، فتصل 70٪ من الفضة و 27٪ من النحاس.

4.2.2 -- السبائك النحاسية لقافلة إجافن⁽³¹⁾

عثر تيودور مونو على بقايا قافلة بموقع إجافن، وتم إحصاء أكثر من 2000 قضيب من النحاس الأصفر، كانت موجهة نحو الأسواق السودانية، ويعتقد مونو أن هذه القافلة كانت متوجهة نحو ولاته. ويزن كل قضيب حوال 500 غرام، أي أن هذه القافلة كانت تحمل طنا واحدا من النحاس الأصفر، ومتوسط طول القضيب يصل إلى

70 سنم وتم تحليل قضيب طوله 74,7 سم ووزنه 521 غ وكانت النتيجة⁽³²⁾ :

78,84٪ من النحاس

19,23٪ من الزنك

وهذا يدل مرة أخرى على أن الأمر يتعلق بما وصفته المصادر التاريخية بالنحاس الأصفر، وهذه الكمية التي تتجاوز طنا واحداً كانت، في إطار السياق التاريخي والتحريات الأركيولوجية للمنطقة، موجهة من المغرب نحو ولاته وحدد عمر هذه القافلة التي تاهت في الصحراء، انطلاقاً من بعض المواد العضوية ببداية القرن الثاني عشر الميلادي، يتطابق هذا مع المعطيات النصية المتعددة في القرن 6 هـ/12 م والتي تؤكد على تصدير النحاس الأصفر، على شكل سبائك، نحو ممالك السودان.

3- استنتاجات :

لاحظ الباحثون لتاريخ وأركيولوجيا الضفة الجنوبية للصحراء قلة آثار العروق المعدنية النحاسية وبالأخص في منطقة الساحل حيث أن الحديد وحده يطفئ على التكوينات المعدنية في هذه المنطقة⁽³³⁾، مع العلم أن العروق المعدنية الأخرى لا تسمح بالحديث عن نشاطات منجمية وتعدينية هامة، كما أن طرق إعادة الصهر التي كانت تمارس في تكدأوست (أودغست) قد انتقلت من المغرب نحو الضفة الجنوبية للصحراء، ويؤكد دانيلو غربنار أنه في موقع بودور بحوض واد السنغال تم الكشف عن أكبر عدد من المعثورات المعدنية في هذه المنطقة، وتم تحديد أعمار المواقع التي تم التنقيب

فيها والتي تغطي فترة تمتد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

أدت التحاليل المختبرية للبقايا المعدنية المعثور عليها في كومبي صالح وتگداوست وحوض واد السنغال إلى عدة استنتاجات:

- إن حضور الزرنيخ Tarsenic في مكونات المعثورات المعدنية في كومبي صالح بنسب تصل إلى 5٪ تبين أن درجات الصهر الحرارية للمادة الأصلية المكونة من النحاس والرصاص تراوحت ما بين 965 درجة حرارية و 1000 درجة حرارية ويتعلق الأمر أساسا بسببكتين نحاسيتين فاقت نسبة النحاس فيهما 65٪.

- أبانت تحاليل البقايا المعدنية لموقع تگداوست أن نسبة الحديد مرتفعة نسبيا في المواد النحاسية ويفسر هذا بكون النحاس صهر في درجات حرارة ما بين 1000 و 1080 درجة حرارية، الشيء الذي سمح له بامتصاص سلفورات النحاس والحديد على السواء. ونعتقد أن السبائك الصفراء قد استوردت من مراكز التعدين المحيطة بتامدلت ومن تازلاغت التي كانت من أكبر مراكز استخراج وتعددين النحاس بالمغرب. والملاحظ أيضا أن البقايا والأدوات المنزلية والحلي المعدنية المعثور عليها بتگداوست تحمل نسبا من الفضة، وهذا ما أثبتته تحاليل مختبرية لمعادن النحاس بجبل جواد وبوسكور وتازلاغت وأمجران. كما أن تحاليل النفايات المعدنية النحاسية بتازلاغت، وعينات تگداوست، أظهرت أن القصدير والفضة تفوق نسبة القصدير، وهذه الملاحظة لم تسجل مثلا على عينات كومبي صالح.

- أظهرت التحاليل أيضا أن الأمر لا يتعلق بمعثورات نحاسية حمراء ومزيج من النحاس والرصاص والفضة، بل كذلك بمواد نحاسية صفراء أي مزيج بين النحاس والزنك.

ويفسر تنوع المركبات الكيميائية للبقايا المعدنية مدى ارتباط سوق السودان بالبضائع المعدنية التي لا توجد إلا بالضفة الشمالية للصحراء والتي يتطلب تصنيعها توافر عدة شروط من معالجة وصهر وإدراك النتائج الهامة التي أظهرتها التحاليل المختبرية للبقايا النحاسية الصفراء، أن عملية مزج النحاس بالزنك (التوتيا) كانت متنوعة، وهذه العملية تتطلب معرفة عميقة وتجربة طويلة في ميدان التعدين، وهو الأمر الذي كان جاريا بمراكز التعدين بالأطلس الصغير، وأمكن استخراج طريقتين للصهر والمزج، انطلاقا من نسب العناصر الكيميائية في العينات المختبرية.

- فالطريقة الأولى، كانت تعتمد إدخال الزنك إلى سببكية نحاسية وتسمى: *Méthode de cémentation* وتعطي هذه الطريقة نحاسا أصفر صافيا، وهذا ما ينطبق على معثورات حوض واد السنغال.

- أما الطريقة الثانية فتعتمد على مزج معدني النحاس والزنك وصهرهما معا، وتسمح هذه الطريقة بمرور الرصاص والحديد وعناصر أخرى، والتي يمكن أن تكون ممزوجة في حالة طبيعية مع أوكسيدات معدن الزنك، وهذا ما نلاحظه في مكونات معثورات كومبي صالح وتگداوست حيث تحتوي على نسب هامة من الرصاص والحديد.

فإن هناك اختلاف بين طرق معالجة وصهر ومزج النحاس بالزنك بين مجموعة بقايا حوض السنغال ومجموعة بقايا كومبي

صالح وتگداوست، ونعتقد أن هذه الأخيرة جاءت نتيجة لطريقة الصهر التي تعتمد استخلاص النحاس والزنك في آن واحد بخلط معدن النحاس مع الزنك (التوتيا). في حين أتت البقايا المعدنية لحوض واد السنغال كنتيجة للطريقة الأولى المذكورة أعلاه، وصهرت في درجة حرارية بلغت 950 درجة، وهذا ما يدفعنا إلى ربط هذه المعثورات بمراكز التعدين بإفران وإيجلي وتارودانت ومراكش وداي.

إن النصوص التاريخية للقرنين 5 و6 هـ/ 11، 12 م، تشير بوضوح إلى تجارة النحاس الأبيض من المغرب نحو إفريقيا السوداء، عبر الصحراء/ والعثور على بقايا قافلة إجاغن في الصحراء لا يترك مجالا للشك في تصدير مكثف للنحاس عبر الطريق التجاري الصحراوي الذي وصفه الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق، وأثبتت تحاليل إحدى السبائك المعثور عليها بإجاغن إلى تقارب مكوناتها مع معثورات حوض واد السنغال، إذ تحتوي على نسب من الزنك تفوق 10٪، وهذا ما يؤكد أن المواد المعدنية كانت من أهم بضائع الخط التجاري الذي كان يربط بين مجال الأطلس الصغير وممالك السودان.

الهوامش :

- (1) اليعقوبي: كتاب البلدان ليدن 1892، ص 359.
 - (2) نفس المصدر، ص 360.
 - (3) ابن خرداذبه: كتاب المسالك والممالك، ليدن، 1889، ص 88.
- في الهامش H يقول دوغوجي محقق الكتاب أنه وجد بنسخة أخرى كلمة

تدغة.

- انظر مقالنا: La question de Todgha بمجلة هسبريس تمودا تحت الطبع.
- (4) المسعودي: مروج الذهب - Ed. C. Barbier De Meynard et Pavet de Courteil - Paris 1861-1877. ص 92-93.
- (5) المقدسي: أحسن التقاسيم طبعة ليدن 1877، ص 331 و 341.
- (6) ابن حوقل صورة الأرض طبعة ليدن 1938، صفحات 83، 91، 96، 97، 99، 100، 103، 104.
- (7) البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. طبعة باريز 1965، صفحات 156، 161، 167.
- (8) نفس المصدر، ص 159.
- (9) الزهري: كتاب الجغرافية، طبعة 1968، ص 191.
- (10) نفس المصدر، ص 190.
- (11) الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق، طبعة الجزائر 1957.
- (12) نفس المصدر، ص 6.
- (13) نفس المصدر، ص 4.
- (14) نفس المصدر، ص 42.
- (15) تقع داي بالقرب من مدينة بني ملال. لا يوجد نحاس خام أبيض، ونعتقد أن الأمر يتعلق بمزيج معدني من النحاس والزنك أو النحاس والفضة أو ربما وقع الإدريسي في خطأ، وأن المقصود بالنحاس الأبيض في داي هو نتيجة لصناعة صهر تحويلية بالمدينة وأن السبائك المعدنية كانت تجلب من مجال الأطلس الصغير مع العلم بوجود مناجم نحاسية قريبة من داي من أهمها منجم ايفرغر للنحاس القريب من واو يزغت.
- (16) مجهول: كتاب الاستبصار - الدار البيضاء 1985، ص 212.
- (17) نفس المصدر، ص 217.
- (18) ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الثاني، طبعة القاهرة 1906، ص 261 و 262.
- (19) القزويني: آثار البلاد طبعة بيروت 1979، ص 19.
- (20) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب الدار البيضاء 1978.
- نعتقد أن منجم الزنك المشار إليه في كتاب المراكشي هو منجم تمزكدوين الذي يوجد على بعد 22,5 كلم شمال غرب تامدلت وتحيط به مجموعة مناجم للنحاس بإفران وناس وموناس واستيواناس. يقول المراكشي: «وبسوس أيضا معدنان للنحاس ومعدن للتوتيا (الزنك) وهي التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفرا...» ص 510.
- (21) ابن سعيد. in extraits relatifs au Maghreb, Ed. Fagnan Paris 1924، ص 18 و 19.
- (22) كانت الصين مرجعا في التاريخ لصناعة النحاس الأصفر منذ العهود

القديمة للحضارة الصينية، وربما التشبيه هنا يعود إلى جودة وامتانة النحاس الأصفر المصنوع بإفران. وكل إشارة إلى النحاس المصبوغ أو النحاس الأصفر أو النحاس الأبيض، تعني وجود نسب هامة من التوتيا (الزنك) ممزوجة بالنحاس، واستغل المغاربة القدامى ما يعرف بالكلامين La calamine وهي: $\text{SiO}_2\text{Zn OH}_2\text{O}$

(23) أدت بعض التجارب الحديثة لإنتاج النحاس بالطرق التقليدية القديمة، إلى صنع سبائك نحاسية من 500 إلى 600 غرام بمنطقة تاتوت بالقرب من تارودانت، كما أدت تجارب أخرى بتازلاغت إلى إنتاج سبائك من 2 إلى 4 كلغ.

(24) انطلاقا من دراستنا لمناجم الفضة بايمضرو زكوندر والعدانة أنتج المغاربة حوالي 2000 طن من الفضة بالإضافة إلى الرصاص والمنغنيز المستعملين في صناعة الخزف وتبعاً لذلك فإنتاج المعادن يفوق بكثير الأرقام المقدمة أعلاه.

(25) لقد لعب النحاس دوراً استراتيجياً سواء في خلق حضارة معدنية في مجال الصحراء أو في المناطق الجبلية ذات المسالك الوعرة أو حول المدن التي ازدهرت بالخصوص بين القرنين الثاني والسابع الهجري. صناعة معدنية كانت تتطلب معرفة علمية وتقنية بالإضافة إلى كثافة سكانية هامة.

وشكل النحاس الأحمر والأصفر والرصاص والفضة، بضائع هامة للتصدير نحو الجنوب إلى حدود القرن العاشر الهجري حيث تحول نحاس الأطلس الصغير إلى مادة استراتيجية في التجارة مع أوروبا، وفي القرن التاسع عشر شكل النحاس أهم دعامة مادية في المقاومة ضد محاولات الاستعمار التجاري، باحتلاله مكانة مهمة في الكتلة المعدنية والنقدية المغربية.

انظر مقالنا: «الإصلاح النقدي» بالمغرب في القرن التاسع عشر دراسات تاريخية مهداة إلى جرمان عياش 1994، ص 189-223.

(26) تم تحليل البقايا المعدنية لحوض واد السنغال وتگداوست وكومبي صالح بمختبر: "Laboratoire Anthropologie - Préhistoire - Protohistoire - Quantitative" Rennes - France. و تحت إشراف: J. R. Bourhis, J. Briard.

(27) يتعلق الأمر بموقع أودغست المذكور في المصادر التاريخية والذي كان يشكل أحد المرافئ التجارية في الضفة الجنوبية للصحراء، ولعب دوراً كبيراً في تشكل وقيام سلطة المرابطين في بداية نشأتهم. نشرت أعمال الحفريات في تگداوست تحت عنوان:

Tegdaoust I: Recherches sur Awdaghost - Paris 1970.

Tegdaoust II: Recherches sur Awdaghost - Paris 1979.

Tegdaoust III: Recherches sur Awdaghost - Paris 1983.

- (28) نشرت نتائج تحاليل عينات تگداوست وكومبي صالح في كتاب: Métallurgie africaine، وهو مجموع مقالات باريز 1983. وتمت تحاليل هذه العينات بمختبر Rennes - انظر الإحالة رقم 26.
- (29) انظر مقالنا: من أودغست إلى مراکش: قراءة في تاريخ المرابطين من خلال وثائق أركيولوجية، أشغال الملتقى الأول حول مراکش، ص 90-116. الدار البيضاء 1989.
- (30) انظر الإحالة رقم 26 من هذا المقال.
- (31) Théodore Monod: "Le Ma'den Ijafen: une épave caravanière dans la Mag-asat al Koubra" in: Actes du 1er colloque international d'archéologie africaine Fort-lamy - Tchad 1966.
- (32) تم تحليل هذا القضيب بالولايات المتحدة الأمريكية: Massachusetts intituto of technology, Mai 1965.
- (33) انظر على الخصوص: Danilo Grébénard: Les origins de la metallurgie en Afrique Occidentale - Paris 1988.

دفاع المخزن المغربي عن وحدته الترايبية وعن حقوقه المشروعة في الأقاليم الصحراوية نور الدين بلحداد(*)

اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من الوثائق المخزنية الرسمية المحفوظة في الخزانة الحسنية وقسم الوثائق التابع للخزانات العامة بالرباط، وعلى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، والوثائق الدبلوماسية المحفوظة بمدينة نانت « Nantes ».

I - تصدي المخزن لمحاولات الأجانب للاستقرار في سواحل الصحراء:

خلفت المحاولات التي قام بها كل من جورج كلاص (G. Glass)، سنة 1764، وجون ديفدسون (J. Davidson) سنة 1836، لبناء مركز تجاري في الجنوب المغربي، رغبة قوية في نفوس بعض التجار البريطانيين الذين حاولوا الاتصال مباشرة ببعض أعيان القبائل وشيوخها لربط علاقات تجارية، ومن هؤلاء التجار، نذكر دونالد ماكينزي (D. Mackenzie) الذي أسس شركة تجارية في مدينة لندن سنة 1875. أطلق عليها اسم: (North West African Company) وبعد شحن سفينته (Volta)، بمواد تجارية متنوعة وغادر ماكينزي ميناء مدينة لفربول في 11 يونيو 1876، وتمكن من زيارة السواحل (*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.

المغربية الواقعة بين مصب وادي درعة ورأس بوجدور. وبسبب عدة عوامل اختار التاجر البريطاني ساحل طرفاية لبناء وكالته التجارية. واتصل بالشيخ محمد بن بيروك التكني وقدم له بعض الهدايا وكميات هامة من المواد الغذائية، فاستجاب له الشيخ المذكور ووعده بمنحه قطعة أرض كافية لإنجاز مشروعه.

وفي سنة 1878، أرسلت الحكومة البريطانية كميات هامة من الحديد والأخشاب لمساعدة ماكينزي على بناء المركز كما توسط لصالحه نائب القنصل البريطاني (Topebann) بجزر الكنارياس لإقناع السلطات الإسبانية بمدّه بكميات من الأحجار واليد العاملة، وبعد انتهاء أشغال البناء بدأ ماكينزي يعقد صفقات تجارية مع القبائل، فكان يحصل منها على الصوف مقابل كميات من الأرز والسكر والشاي. وتمكن كذلك من لفت أنظار أصحاب القوافل التجارية نحو مراكزه لعقد صفقات تجارية معهم. وقد اتخذ تاجران بريطانيان نفس الطريقة التي سلكها ماكينزي لبناء مراكز تجارية جديدة في سواحل المغرب الجنوبية فجهز الأول ويدعى دفيد كوهن (D. Cohen) السفينة (Anjou) وشحنها بمواد تجارية مختلفة وأبحر من مدينة مرسيليا الفرنسية سنة 1880. بهدف الرسو في ساحل إفني، أما التاجر الثاني ويدعى جيمس كورتيس (J. Curtis) فقد حاول بناء مركز تجاري بالقرب من مرسى أركسيس سنة 1880.

وعلى الرغم من مشاكل المخزن ومشاغله، فقد استشاط السلطان مولاي الحسن الأول غضبا، واستدعى وزير بريطانيا بطنجة ج. د. هاي. وأبلغه احتجاجه الشديد على بناء مركز تجاري في ساحل طرفاية دون الحصول على إذنه⁽¹⁾.

ولقطع الطريق على بعض التجار الاسبانيين الذين حاولوا الاقتداء بماكينزي، ولتعزيز كذلك سلطته في جميع أنحاء الصحراء المغربية، بادر السلطان مولاي الحسن الأول إلى تعيين الشيخ ماء العينين خليفة له بالصحراء وبعث إليه ظهير توليته الذي نقتطف منه هذه الفقرة:

«... يعلم من كتابنا هذا أسماء الله وأعز قدره وجعل في الصالحات طيه ونشره أننا استولينا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته لحامله الفقيه محمد بن فضل ماء العينين الصحراوي تولية تامة شاملة على بلاد بني باعمران بسوس الأقصى ومن وراءهم بني جرار وفوقهم من الجزوليين قبيلة بعد قبيلة مع الاعرابيين بالصحراء...»⁽²⁾.

وإذا قمنا بقراءة سريعة في هذا الظهير فإننا نجد أن تاريخ إصداره هو 12 ربيع الثاني عام 1296 هـ الموافق 5 أبريل 1879. وهذا دليل قاطع على مشروعية الحقوق المغربية في الصحراء، لأن احتلال اسبانيا لأول منطقة في الصحراء ونعني بذلك منطقة وادي الذهب لم يكن إلا بعد سنة 1884، ثم هناك كلمة تضمنها الظهير الشريف ولها أكثر من معنى ودلالة على مغربية هذه المناطق، وهي «...إلى منتهى العمارة من اياتنا السعيدة...»

وبعث السلطان مولاي الحسن الأول كذلك برسالة إلى قائد تازروالت الحسين أهاشم، أمره بعدم المتاجرة مع دفيد كوهن السالف الذكر. ونفس الشيء مع أمير آدرار الشيخ أحمد ولد عايدة، وأمره بعدم الإستجابة لمطالب التاجر ماكينزي. وأمام تعنت ماكينزي وعدم مبالاته باحتجاجات السلطان، هاجمت قبائل

طرفاية مستودعه التجاري سنة 1881، وخربت منشآته. فاحتج هاي وطالب المخزن بتعويض مالي قدره 12.000 فرنك، وهذا كذلك دليل آخر، علما أن هذه المناطق كانت خاضعة لسلطة المخزن المغربي. لكن مولاي الحسن الأول رفض الاستجابة لهذا الطلب، وبعث رسالة إلى نائبه بطنجة محمد بركاش، ومما قال فيها:

«... وإذا كانت به أمتعة لرعييتهم فإنه ليس بمفتوح للتجارة، وإن الاستراعاء على وجود الأمتعة المذكورة بذلك المحل واجب لكون وجودها به خارجا عن القانون ومخالف للحق...»⁽³⁾.

ولحسم مادة هؤلاء التجار الأجانب، قرر السلطان مولاي الحسن الأول القيام بحركة إلى سوس سنة 1882. وبمجرد وصوله إلى منطقة وادي نون نصب عددا من القواد وكلفهم بحراسة السواحل الصحراوية ومنع رسو السفن الأجنبية بها. كما أمر قائده بالجنوب أحمد العبوبي بالقبض على التاجر كورتيس إن هو حاول العودة إلى مرسى اركسيس للمتاجرة مع قبائلها⁽⁴⁾.

ولمساعدة قبائل الجنوب المغربي على الحصول على كل ما تحتاج إليه من مواد غذائية عوض اقتنائها من التجار الأجانب، قرر مولاي الحسن الأول وفتح مرسى تجارية في بلادهم وبعث رسالة إلى شيوخ قبائل آيت باعمران وتكنة⁽⁵⁾.

وإذا كان المخزن قد استطاع إفشال مشروع كرتيس وكوهن، فإنه قد عانى الشيء الكثير من محاولات ماكينزي ولم يتمكن من استرجاع ساحل طرفاية إلا في سنة 1895، بمجرد التوقيع على معاهدة مع الحكومة البريطانية التي اعترفت فيها بسلطة المغرب في طرفاية والصحراء⁽⁶⁾.

وبسبب احتلال بريطانيا لطرفاية، فقد خشيت اسبانيا على مصالحها في جزر الكنارياس، لذلك جهزت حملة بقيادة إميليو بونيللي (E. Bonelli)، وكلفته باحتلال المناطق الواقعة بين رأس بوجدور والرأس الأبيض، وبناء مراكز تجارية لتسهيل عملية البيع والشراء مع قبائل المنطقة. وعلى الرغم من كثرة المواد التجارية والهدايا المتنوعة، فقد فشل بونيللي في إقامة علاقات تجارية مع شيوخ القبائل. كما تعرض مركزه التجاري لهجوم قوي من طرف أولاد باعمار المنتمون لقبيلة أولاد دليم في 9 مارس 1885، واستولوا على كل المواد التجارية التي كانت تقلها السفينة (Cires)، وقتلوا بعض أعوان بونيللي، نذكر من بينهم (Sanchez Fe-lui) فاحتجت الحكومة الاسبانية على هذا الهجوم وبعثت رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول تطلب فيها تعويضات مالية عن الخسائر التي لحقت منشآت المركز، وهذا دليل قاطع من طرف الحكومة الاسبانية على أن هذه المناطق كانت خاضعة لسلطة المخزن المغربي. وإلا فلماذا وجهت إليه هذا الطلب. وفي نفس الوقت الذي أخذت تظهر فيه أطماع فرنسا التوسعية في الصحراء وفي بلاد شنقيط، توصل السلطان مولاي الحسن الأول برسالة من القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاطي في 12 صفر عام 1303 الموافق ليوم الجمعة 20 نونبر 1885. يعرب فيها عن تمسك كل قبائل الصحراء بهويتهم المغربية وببيعتهم لسلطين المغرب.

تقول الرسالة:

«... وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم

وكمثل أهل الزوايا آل الشيخ المختار وآل الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وآل بارك الله وأهل التفخ الخطاط وتندع جميعا وجميع الابرار وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدوم سيدنا لهذه البلاد... والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته...»⁽⁷⁾.

وبسبب تشوف بعض قبائل الجنوب المغربي لربط علاقات تجارية مع الأجانب، قرر السلطان مولاي الحسن الأول القيام بحركة ثانية إلى الجنوب. وبمجرد وصوله إلى منطقة وادي نون في 13 ماي 1886، وفدت عليه جموع من شيوخ القبائل لتجديد الطاعة والولاء، فنظم السلطان شؤون المنطقة وأقام حامية عسكرية في كليمين ونصب قوادا جددا وكلفهم بحراسة السواحل ومنع رسو السفن الأجنبية. وامتثالا لأوامر السلطان أغار القائد دحمان ولد بيروك على أهل الساحل سنة 1889 بسبب تعاونهم مع الأجانب، ثم نزل إلى الساقية الحمراء واستولى على خيل أولاد تيدرارين والزركيين بسبب مواصلتهم لتعاطي التجارة مع الأجانب.

وعلى الرغم من كل هذه التدابير، فقد حاولت اسبانيا استمالة بعض شيوخ القبائل لربط علاقات تجارية معها. وأرسلت بعثة بقيادة مترجم يهودي من الشام يدعى سبير (Sber) إلى ساحل طرفاية سنة 1892. وكلفته بربط علاقات تجارية مع الشيخ ماء العينين، لكن الشيخ المذكور رفض الاستجابة لطلب سبير وبعث رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول سنة 1892. ومما قال فيها:

«...وليكن في كريم علم أمير المومنين أن رجلا كان مع النصارى يقال له أصبير وهو يسمى نفسه محمد الصابر يدعى الاسلام...»

وكان في براواته انه يريد مني أن يكون خبر مرصاة الطرفاية بيدي وامتنعت له أولا... وما امرتموني به معه أفعله بحول الله وقوته...» (8).

وأمام فشل سبير في محاولاته، أمرت الحكومة الاسبانية ممثلها في ساحل وادي الذهب (J. Gonzales) بإجراء مفاوضات مباشرة مع الشيخ ماء العينين لاقتناعه بربط علاقات تجارية معها، فتوصل الشيخ برسالة من ممثل اسبانيا، قال فيها:

«... وأؤكد أيضا بأنني حاضر لأفعل كل ما يرضيك وتحب... ثم أخبرك وأثبت لك أن تجارة اسبانيا كلها بيدك وتحت أمرك في كل مكان وزمان...»، لكن الشيخ ماء العينين رفض كل هذه الاغراءات المادية لسبب بسيط وهو ان البيعة التي بايع بها السلطان مولاي الحسن الأول تمنعه من ذلك.

ولتعزيز سلطته في سواحل الصحراء، بعث السلطان رسالة إلى قائده بالجنوب دحمان ولد بيروك سنة 1892، قال فيها:

«... وقد بلغ علمنا الشريف جولان بعض السفن من جهة البحر لناحية الساحل وذلك مما يوجب ايقاظكم ويقضي حزمكم واستنهاضكم، فجددنا لكم ولغيركم أمرنا الشريف بهذا تحريكا لعزائكم بمزيد الاهتمام في تصوين العسس المذكورة وتعاهد وظيفها وتجديد تأسيسها ورد الهمة لجهتها، فلتصرفوا بالكم لضبط أمرها وتقويم عددها وانتخاب رجالها والقيام على ساق الجد فيها...».

وبعد استخلاص المخزن لمرسى طرفاية من يد الانجليز سنة 1895، ضاعف المخزن من علاقاته مع الشيخ ماء العينين الذي أصبح

يحصل من السلطان مولاي عبد العزيز على المؤونة اللازمة والأسلحة الكافية لمواجهة المد الاستعماري، وحتى يكون المخزن على علم بكل ما يقوم به الإسبانيون في وادي الذهب، بعث الشيخ أحمد بن شمس خليفة الشيخ ماء العينين بزاوية فاس، رسالة إلى السلطان مولاي عبد العزيز قال فيها:

«... أما بعد فليكن في علم سيدنا أن النصاري اسبانيول اشتغلوا في البناء في الداخلة موضع يكون بينه مع الطرفاية مسيرة سبعة أيام ينبغي أن تكونوا من ذلك على بال...».

وبخصوص المد الاستعماري الفرنسي في الصحراء، فإننا نجد أنه في نفس الوقت الذي كان المندوب الاسباني كاستييو يتفاوض مع نظيره الفرنسي ديلكاسي، بشأن اقتسام سواحل وادي الذهب، توصل الصدر الأعظم أحمد بن موسى «باحمد» برسالة من الشيخ ماء العينين يخبره فيها بتأهب الجيوش الفرنسية لاحتلال منطقة أدرار، ومما قال فيها:

«... إن النصري أهل أندر لعنهم الله، ثبت عندنا بالتواتر أنهم مشتغلون بشراء الجمال والقرب، ويريدون بذلك النهوض لأدرار، وبقي من في البلاد متحيرا فيما يدخل معهم. فالبعض يقول نحن في بيعة مولاي الحسن وابنه مولاي عبد العزيز ولا نقدر على فعل شيء حتى يخلف لنا مولاي عبد العزيز فيما نفعل...»⁽⁹⁾.

وبعدما تيقن السلطان مولاي عبد العزيز من أطماع فرنسا التوسعية في منطقة أدرار، بعث رسالة إلى نائبه بطنجة محمد الطريس، أمره فيها بالاحتجاج على وزير فرنسا بطنجة ومما قال فيها:

« ... وعليه فنامرك أن تتفاوض مع الخديمين ابن سعيد وغنام مفاوضة تأمل وامعان النظر في الأسلوب الذي يناسب كتابتك به لباشدور جنس النصرى المذكورين في هذه السيرة التي تفاحش أمر تراميهم بها على الحدود من غير مراعاة شرط ولا اعتبار قانون...» (10)

وعلى الرغم من هذا الاحتجاج، فقد استمرت الحكومة الفرنسية في سعيها لاحتلال أدرار، وحاولت إنشاء خط تجاري يربط بين عين صالح ومدينة تَنْبُكْتُو، وكلفت الشيخ سعد بوه الذي سقط في حباليها بالتوسط لصالحها عند أخيه الشيخ ماء العينين لاقناعه بربط علاقات تجارية مع مراكزها الموجودة في السنغال، فامتنع ماء العينين عن ذلك، وبعث رسالة إلى باحماد قال فيها:

« ... وليكن في كريم علمكم أنهم لعنهم الله كثيرا ما يطالبونني بالعهد معهم وأنا أمتنع من ذلك إلا إذا كان على أيديكم...» (11).

وفي نفس الوقت الذي تصدت فيه قبائل أدرار لمشاريع فرنسا، قامت قبائل وادي الذهب بهجوم عنيف ضد المركز التجاري الذي أقامه الاسبان في شبه جزيرة وادي الذهب سنة 1901، وأرغمت الاسبان على الانكماش داخله ومنعتهم من الاتصال بباقي القبائل التي تقطن في المناطق الداخلية. فحاول الاسبانيون كسب صداقة شيوخ القبائل عن طريق خلق عدة مشاريع اقتصادية في بلادهم، مثل بناء معامل متخصصة في صناعة السمك، واستصلاح أراضيهم الزراعية، لكن كل هذه المشاريع باءت بالفشل بسبب تصدي القبائل وامتناعها عن عقد صفقات تجارية مع الأجانب.

وبمجرد توصل الحكومتان، الفرنسية والاسبانية إلى التوقيع على اتفاقية في 3 أكتوبر 1904، لإتمام تحديد مجال نفوذهما في

الصحراء، كلف الشيخ ماء العينين ابنه أحمد الهيبة بمكاتبة قواد المخزن بالجنوب عامة وشيوخ قبيلة الزركيين خاصة لحثهم على إقامة حراسة دائمة على طول السواحل لمنع السفن الأجنبية من الرسو. كما بعث السلطان مولاي عبد العزيز رسالة إلى شيوخ قبيلة العروسيين، حثهم فيها على عدم التهاون في الدفاع عن سواحل بلادهم ووعدهم بمدّهم بالسلاح الكافي للتصدي للأجانب، ومما قال:

«... أما الوسائل التي تخصصكم والعون الذي تنتظرونه هنا والمصلحة التي تريدون أن نبلغها إليكم، فذلك كله من الواجبات علينا ومن الاهتمامات التي تلزمنا نحوكم...»⁽¹²⁾.

وحاولت اسبانيا إغراء بعض شيوخ قبائل وادي نون عن طريق منحهم هدايا متنوعة للسماح لها ببناء مركز تجاري في بلادهم، لكن السلطان تصدى لها وقام بتعيين سليمان العروسي قائدا على قبيلة الكزاح سنة 1906. وأثنى كذلك على عامل طرفاية الذي تصدى لبعض السفن الأجنبية التي حاولت الرسو هناك. ومما قال في رسالته:

«... قد بلغ علمنا الشريف ما أنت عليه هنالك من الوقوف في أمور المخزن بطرفاية ونواحيها وردك البال لصيانتها وحفظ محارمها وبذلك المجهود في استجلاب قلوب جوارها للقيام بالصلاح والاصلاح والسعي فيما يرضي جنابنا الشريف...»⁽¹³⁾.

أما بخصوص فرنسا فقد حاولت استغلال بعض بنود المعاهدة التي وقعتها مع اسبانيا سنة 1904، لاحتلال بلاد شنقيط، فجهزت بعثة بقيادة كوبولاني سنة 1905، وكلفته بإقامة علاقات تجارية مع

شيوخ القبائل، فتصدى له الطالب أخيار وبعث رسالة إلى والده الشيخ ماء العينين حثه فيها على ضرورة إبلاغ المخزن بنوايا فرنسا التوسعية وأن يطلب منه كميات هامة من السلاح لمساعدة القبائل على التصدي لمشاريعها. كما تصدى أحد أتباع الشيخ ماء العينين ويدعى الشريف ولد مولاي الزين لكوبولاني وقتله سنة 1905.

وأمام تزايد التوسع الفرنسي، شكل الشيخ ماء العينين وفدا من أعيان القبائل الصحراوية واتجه بهم نحو مدينة فاس لتجديد بيعتهم للسلطان والحصول منه على كميات هامة من السلاح. وبعد عودته إلى الصحراء أصبح الشيخ ماء العينين يحث القبائل على مقاطعة الأجانب وعلى التصدي لهم. فاحتجت فرنسا على السلطان وطالبته بالكف عن إرسال السلاح للقبائل، وخوفا من وقوع مضاعفات خطيرة بين الدولتين، قرر مولاي عبد العزيز إرسال وفد إلى الصحراء بقيادة ابن عمه مولاي ادريس بن عبد الرحمن وحثه على الدفاع عن وحدة بلاده الترابية، وفي يوم 11 يونيو 1905 وصل الوفد المخزني برئاسة مولاي ادريس إلى مرسى طرفاية، حاملا معه كميات هامة من السلاح والدخيرة وظهائر تولية أربعة عشر قائدا، عينهم السلطان على رأس القبائل. ووجد في استقباله بعض أتباع الشيخ ماء العينين يرأسهم محمد الامام بن ماء العينين، وبعد مسيرة ستة أيام وصل الوفد إلى مدينة السمارة حيث ألقى الشيخ ماء العينين خطابا أمام شيوخ القبائل دعاهم فيه إلى تجديد بيعتهم للسلطان ودفع ما ترتب عليهم في زكاة للخليفة، ووجه الشيخ ماء العينين رسالة إلى قبيلة إذوعيش وأهل سويد أحمد، دعاهم فيها إلى ضرورة إرسال من ينوب عليهم إلى السمارة

للتفاوض مع الخليفة السلطاني حول تنظيم الجهاد ضد الأجانب.
ومما قال فيها:

«...أما بعد فليكن في كريم علمكم أن السلطان نصره الله وجه
إلينا ابن عمه خليفة نائبا عنه في كل ما أهمكم الآن أو قبل من
الأمور كلها لاسيما أمر النصرى دمرهم الله... والآن لابد من اتيان
ولات الأمر منكم لتقع المشافهة مع الخليفة على أيدينا...»⁽¹⁴⁾.

وبعد اجتماع كلمة شيوخ القبائل على ضرورة التصدي للجيش
الفرنسية، أرسل السلطان مولاي عبد العزيز مائة بندقية للشيخ
ماء العينين سنة 1906، تمكن بفضلها مولاي ادريس من مهاجمة
المركز الفرنسي المقام في تجيكة ومحاصرة حاميته لمدة دامت من
5 نونبر إلى 1 دجنبر من نفس السنة. فاحتجت فرنسا بواسطة
قنصلها بفاس هنري كيار (H. Gaillard)، على السلطان وهددته
باستعمال قوة السلاح إن تمادى في إرسال السلاح للشيخ ماء
العينين، وذهبت كذلك إلى حد إرسال سفينة حربية (Kleber) إلى
ساحل طرفاية لمنع رسو السفن المخزنية المحملة بالسلاح.

وأمام تزايد المحاولات الفرنسية في بلاد شنقيط، بعث شيوخ
القبائل وأعيانها رسالة إلى السلطان مولاي عبد العزيز يعربون
فيها عن تمسكهم ببيعته وفي الدفاع عن بلادهم، ومما قالوا فيها:

«...فمن هم في بيعتكم سلفا عن خلف أجمعون قبائل الشناجطة
المتبوءون بلادا لم يكن للنصارى سبيل عليها من قبل وهذه البلاد
فيها كثير من أهل الإيمان الحقيقيين فمنها أدرار بلد واسع قيم
أمره خديمك سيدي أحمد بن عيد الذي عنده طابعك... ومنها بلاد
تكانت وقيم أمرها عثمان بن بكار بن سويد أحمد...»⁽¹⁵⁾.

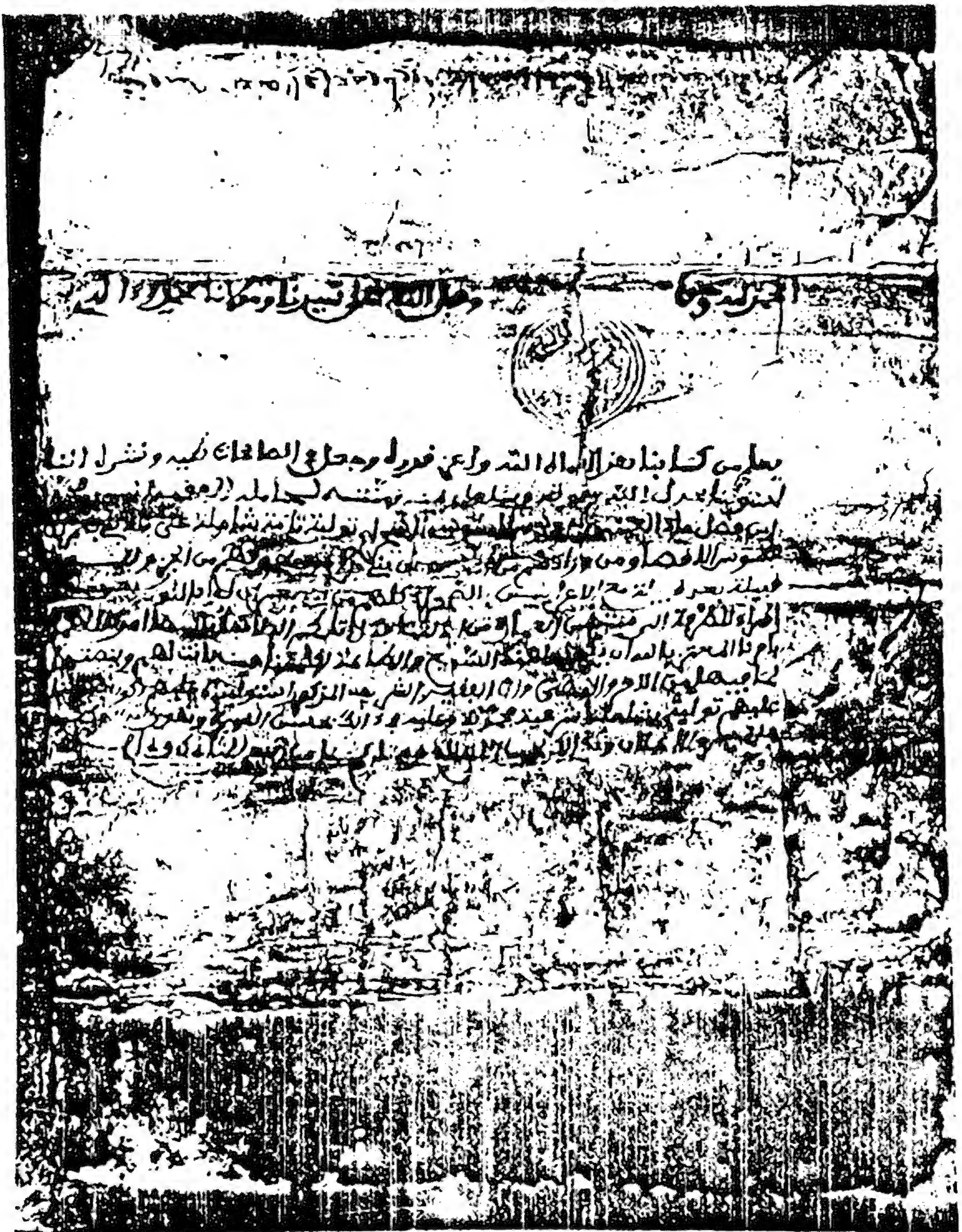
وحاول الحاكم السياسي والعسكري الاسباني بمنطقة وادي الذهب، الليوتنان كولنيل بنس (Benz)، تعزيز نفوذ بلاده في الصحراء وذلك عن طريق القيام بعدة زيارات استطلاعية للمناطق الداخلية مثل منطقة العركوب التي زارها سنة 1907، بهدف إقناع شيوخها بربط علاقات تجارية مع مركز فيلا سيسنيروس (الداخلية حاليا). لكنه فشل في مهمته وبذلك قرر رفع تقرير مفصل لحكومته حثها فيه على ضرورة إنشاء فرق عسكرية خاصة لتسهيل عملية احتلال هذه المناطق. كما أن حكومة مدريد لم تقتنع بالحجج التي قدمها السلطان لفرنسا لتبرير إرسال السلاح للقبائل الصحراوية، بل اتهمته بعرقلة احتلال المناطق التي منحتها لها اتفاقية 1904 التي وقعتها مع فرنسا. فأصدرت قرارا في 25 مارس 1907، منعت بموجبه سكان جزر الكنارياس من تصدير السلاح لقبائل الصحراء، وحذرتهم باحتجاز سفنهم المحملة بالسلاح.

وأمام صمود السلطان ومواصلة إرسال السلاح للشيخ ماء العينين، قررت اسبانيا وفرنسا نهج سياسة موحدة، وأرسلتا بعض سفنها الحربية (Alvaro Bazan) و (La Lande) إلى سواحل المغرب الجنوبية لمنع وصول الأسلحة للقبائل⁽¹⁶⁾.

وفي فترة حكم السلطان مولاي عبد الحفيظ توطدت العلاقات بشكل كبير بين سكان الصحراء والمخزن المغربي. وهكذا حل بمدينة مراكش وفد من قبائل الصحراء يرأسهم الشيخ ماء العينين سنة 1907، فجددوا للسلطان بيعتهم وطالبوه بكميات من الأسلحة للدفاع عن وحدة بلادهم الترابية.

وبعد عودة الوفد الصحراوي إلى بلاده، هاجم أتباع الشيخ ماء العينين المركز الفرنسي الموجود في أكجوجة سنة 1908، وقتلوا حاكمه القبطان (Repoux) وحوالي سبعة عشر جندياً آخر. وبذلك اشتدت نقمة فرنسا على السلطان وقام حاكمها العسكري بالسنغال الكولنيل (Gouraud)، بهجوم ضد قبائل شنقيط وتمكن من احتلال منطقة أدرار سنة 1909. وهكذا أصبحت وضعية الشيخ ماء العينين جد حرجية، فطلب منه مولاي عبد الحفيظ مغادرة مدينة السمارة والمجيئ إلى تزنيت لكي لا يقع في أيدي أعدائه الفرنسيين. وبعث رسالة كذلك إلى أمناء الصويرة وأسفي ومراكش، أمرهم فيها بتخصيص قدر من المال عند نهاية كل شهر وإرساله للشيخ ماء العينين لمساعدته على التصدي للجيش الفرنسية⁽¹⁷⁾.

وبمجرد ما علم الشيخ ماء العينين بنوايا فرنسا التوسعية في سواحل المغرب الجنوبية، دعا قبائل سوس وتكنة والصحراء إلى تزنيت في فبراير 1910، وحثهم على ضرورة توحيد صفوفهم والاستعداد للذهاب إلى فاس لفك الحصار المضروب على السلطان. لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، إذ تمكن الجنرال الفرنسي (Moinier) من هزم أتباع الشيخ ماء العينين بالمغرب من قصبة اولاد زيدان سنة 1910. فاضطر الشيخ ماء العينين إلى العودة إلى تزنيت وحاول إعادة تنظيم صفوف القبائل لكن المنية وافته في منتصف شهر أكتوبر في نفس السنة، فخلفه ابنه أحمد الهيبة في رئاسة القبائل وحاول بدوره استخلاص مدينة مراكش من أيدي الفرنسيين، لكنه انهزم بدوره أمام قوة الجنرال (Mangin) في معركة سيدي بوعثمان في 6 شتنبر 1912.



الحمد لله وحده

وصلّى الله على سيرةنا وموكلنا محمد وآله



خیرینا الارضی الطّالب محمد بن کلاسر وبقیة الله وعلی علیه ورحمت
 وبعث وعلی کتابک بدو نسلت جنس النجلی کتابک علی بنی بلاء را سر جو
 انچه به مکینت بلاء کتب به انچه و جهت مرآت وزیر و ولایت و انور مرآت
 انچه انچه را مرآت بلاء علی حضرتنا ابرهه بدو عز و اکرام ابراهیم (عینهم بالمجلد
 المذکور و یغیر علی المخررا الامام و الشعب علیک و انچه یسکون و رکب علیهم ان
 وضع ترا علیک بسبب الکملار السکرة المخریة علی المجلد المذکور و جهت
 عز و اکرام بلاء انسخة از و جهت می انچه ترجهت با بعضی خدایان را بر
 جو المذکور و انسخة الحق به حیث مؤمر ترا با ایالات و اذاکلات به انسخة
 لرعیتهم بلاءه تیسر بمبتوح للتجارة و ان لا مضر علی و جو المذکور
 المذکورة بزارک المجلد و اجه لک و جو و کتاب به خدایان عز و اکرام و بلاء
 الحق و انسخة بلاء بزارک ان فیلسا جوابک المذکور بوصول کتاب ان علی
 المذکور مع نسخة جوابک له عنه و بقوله و نامری بلاء بزارک الکلام
 مع بلاء بجلد انک لا مضر انی عنهم و انک المجلد انک مضمون کتاب
 النسخ المذکور نوع من الامیر علی و انک فرحی حاکم بلاء لا مضر علی و بلاء
 انسخة المذکورة و انک بلاء و انسخة بلاء کتابک انک بلاء
 انسخة کتب و جهت انک تغیر بلاء بلاء به مکینت الموحید مرخص
 لرعیته لزارک المجلد انک انسخة بلاء بلاء بلاء بلاء و انسخة
 بلاء غیر بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء بلاء

بما واصل
 لنقله من أصله العبري وجعل عليه المكاتيب التي وسمها على كتاب بعض النصارى لايت رعين من صبيوة
 وهو كرتيس المتقدم النزل هنالك أو غيره يخبرهم فيه بالذهاب لبر النصارى ومنها يأتي إليهم بحرا
 وعليه فلتكن عليهم عينا⁽¹⁾ وأذا نحن ورد لهالك فإن رجع كرتيس لهالك وحده فاقبض عليه وكذا
 ثلاثة عشر من كرتيس
 (1) واصل
 (2) واصل
 (3) واصل
 (4) واصل
 (5) واصل
 (6) واصل
 (7) واصل
 (8) واصل
 (9) واصل
 (10) واصل
 (11) واصل
 (12) واصل
 (13) واصل
 (14) واصل
 (15) واصل
 (16) واصل
 (17) واصل
 (18) واصل
 (19) واصل
 (20) واصل
 (21) واصل
 (22) واصل
 (23) واصل
 (24) واصل
 (25) واصل
 (26) واصل
 (27) واصل
 (28) واصل
 (29) واصل
 (30) واصل
 (31) واصل
 (32) واصل
 (33) واصل
 (34) واصل
 (35) واصل
 (36) واصل
 (37) واصل
 (38) واصل
 (39) واصل
 (40) واصل
 (41) واصل
 (42) واصل
 (43) واصل
 (44) واصل
 (45) واصل
 (46) واصل
 (47) واصل
 (48) واصل
 (49) واصل
 (50) واصل
 (51) واصل
 (52) واصل
 (53) واصل
 (54) واصل
 (55) واصل
 (56) واصل
 (57) واصل
 (58) واصل
 (59) واصل
 (60) واصل
 (61) واصل
 (62) واصل
 (63) واصل
 (64) واصل
 (65) واصل
 (66) واصل
 (67) واصل
 (68) واصل
 (69) واصل
 (70) واصل
 (71) واصل
 (72) واصل
 (73) واصل
 (74) واصل
 (75) واصل
 (76) واصل
 (77) واصل
 (78) واصل
 (79) واصل
 (80) واصل
 (81) واصل
 (82) واصل
 (83) واصل
 (84) واصل
 (85) واصل
 (86) واصل
 (87) واصل
 (88) واصل
 (89) واصل
 (90) واصل
 (91) واصل
 (92) واصل
 (93) واصل
 (94) واصل
 (95) واصل
 (96) واصل
 (97) واصل
 (98) واصل
 (99) واصل
 (100) واصل

الوثيقة رقم 4

المصدر : كناش رقم : 353، الخزانة الحسينية، الرباط. ص : 220.

رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول لقائده أحمد العبوي في 19 رمضان عام 1300.

وبعد فمن جملة المكاتيب التي وجهت لعلي مقامنا كتاب بعض النصارى لايت رعين من صبيوة
 وهو كرتيس المتقدم النزل هنالك أو غيره يخبرهم فيه بالذهاب لبر النصارى ومنها يأتي إليهم بحرا
 وعليه فلتكن عليهم عينا⁽¹⁾ وأذا نحن ورد لهالك فإن رجع كرتيس لهالك وحده فاقبض عليه وكذا

إن ورد⁽²⁾ ومعه طائفة من النصرى فاقبض على الكل أو وردت⁽³⁾ طائفة من النصرى ولم يكن معهما كرطيس فاقبض عليهم أيضا ووجههم لعالم السويرة صحبة من يحرسهم في أموالهم وأنفسهم ثم إنا وجهنا لك مكاتيب تسعة فأحدهما لعامل السويرة وثانيهما لبركاش وثالثهما للباشدور على تقدير أن ورد كرطيس وحده لهالك وعلى تقدير إن ورد كرطيس ومعه غيره من النصرى توافيك ثلاثة مكاتيب أيضا لمن ذكر على تفصيله وعلى تقدير إذا وردت طائفة من النصرى لهاتيك السواحل ولم يكن معهم كرطيس توافيك ثلاثة مكاتيب أيضا للمذكورين. فالصورة الأولى توافيك في قرطاس وعليه علامة واحد والصورة الثانية توافيك في قرطاس آخر وعليها علامة اثنان والصورة الثالثة توافيك وعليها علامة ثلاثة فإذا ورد كرطيس وحده وقبضت عليه فابعثه لعامل السويرة مع الكتاب المتضمن لذلك الذي عليه علامة واحد. وكذلك كتاب بركاش وكتاب الباشدور اللذين عليهما العلامة المذكورة وهي الواحد. وإذا ورد كرطيس ومعه طائفة من النصرى وقبضت عليهم فابعثهم لعامل السويرة مع الكتاب المتضمن لذلك الذي عليه علامة اثنين وكذلك كتاب بركاش وكتاب الباشدور اللذين عليهما العلامة المذكورة وهي اثنان. وإذا وردت طائفة من النصرى ولم يكن فيهم كرطيس وقبضت عليهم فابعثهم لعامل السويرة مع الكتاب المتضمن لذلك الذي عليه علامة ثلاثة وكذلك كتاب بركاش وكتاب الباشدور اللذين عليهما العلامة المذكورة وهي ثلاثة بعد أن تُلَكُّكَ الكل وابق المكاتيب الستة الفاضلة تحت يدك على كل تقدير واطلع علمنا الشريف بذلك والسلام في 19 رمضان عام 1300.

(1) ثلاثة في شأن كرطيس إذا ورد وحده لهالك وقبضت عليه أحدهما لخدمنا الرگراگي الدويلالي والثاني لبركاش والثالث لباشدور النجليز عليهما علامة واحد.

(2) ثلاثة في شأن كرطيس إذا ورد ومعه غيره وقبضت عليه، أحدهما لعامل السويرة والثاني لبركاش والثالث لباشدور النجليز وعليهما علامة اثنان.

(3) ثلاثة إذا وردت جماعة منهم ولم يرد معهم كرطيس وقبضت عليهم أحدهما لعامل السويرة والثاني لبركاش والثالث لباشدور وعليهما علامة ثلاثة.

الوثيقة رقم 5

المصدر : مخطوط مكر فلم رقم : 21، قسم الوثائق التابع للخزانة العامة الرباط، ص : 58.

رسالة من السلطان مولاي الحسن الاول لقواد ايت باعمران وتكنة في عام 1299هـ.

بعد الحمدلة والصلاة على النبي عليه السلام وبعد فقد اقتضت المصلحة فتح مرسى بحدود بلادكم وبلاد خدامنا قبيلة تكنة سيدي بورزك أو بالمحل المسمى بأصك إن كان هو الحد بينكم وبينهم ليسهم عليكم وعليهم بقربها تعاطي البيع والشراء فيها لبعث مراسي ايا لتنا السعيدة عندكم ولحاق المشقة لكم في سفركم لها بقصد ذاك مع ما بلغ علمنا الشريف من تشوفكم ورغبتكم في فتحها وتضييع أموال لكم لها بال في الاختلاس بالبيع والشراء هنا كم مع ارتكاب أمور في تعاطيها وشراء الرخيص بأغلا ثمن وبيع الغالي مبخوسا حتى أن البعض منكم أراد أن يخلع بسبب فتحها ربة الطاعة ويفارق الجماعة وهذا من جملة المقصود الأهم عندنا في وجهتنا السعيدة لبلادكم لاكن لما ورد على حضرتنا العالية بالله أعيان قبيلتكم ووقع معهم الكلام في شأنها وأجابوا أمرنا الشريف لهم بفتحها بأحد المحليين المذكورين بالسمع والطاعة ظهر لنا توجيه معهم طائفة من الجيش صحبة عمنا مولاي الأمين وكاتبنا الفقيه السيد علي المسفيوي وخدمنا القائد مبارك بن الشليح وبعض الخاصة من عمالنا ومهندسين بقصد معاينة أحد المحليين المشار إليهما الذي يحد بلادكم وبلاد تكنة لي نصل الاشفاع بها للجانبين وتخطيط المرسى به والاتيان لحضرتنا الشريفة بصورته والوقوف على المحل المسمى بالعجمية بسانط كروز، والاتيان بصورته. فنأمركم أن تقفوا معهم على ذلك لتنالوا حظكم من هذه المنفعة المبرورة والحسنة المدخرة بحول الله وهانحن ننتظر ما نسمعه عنكم من الوقوف مع المذكورين في ذلك، أرشدكم الله وزادكم توفيقا وهداية وصلاحا ونجاحا آمين والسلام. في عام 1299.

الوثيقة رقم 7

المصدر : الظهائر والرسائل السلطانية الخاصة بعهد السلطان مولاي الحسن الأول، المحفوظة رقم 18، الغلاف رقم : 130. الخزانة الحسينية بالرباط. رسالة من القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاضي للسلطان مولاي الحسن الأول في 12 صفر عام 1303.

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله، وعلى مقام سيدنا العالي بالله أفضل السلام وأزكى التحية والاكرام.

أما بعد فالاهم المقصود من ناحية سيدنا نصره الله وأيده الدعاء لنا بعز الدارين والسلامة من وبائهما وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم وكمثل أهل الزوايا والشيخ المختار وآل الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وآل برك الله وأهل التفغ الخطاط وتندغ جميعا وجميع الابراكن وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدم سيدنا لهذه البلاد ويطلبون له النصر والظفر ويطلبون الله أن يمتعهم بلقائه في بلادهم والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته ويحسنون إلى من جاءهم بخبره يسره ما يسره ويسوءهم ما يسوءه فلا أساء الله له يوما ولا ليلة ولا زالت الأيام تساعد والاكدار تباعده قد أخبرنا بذلك من لا يشك في قوله ولا فعله وهو واحد من إخواننا تقي زكي ذو عقل وحزم وفطنة ونباهة وهو خبير بأحوال تلك البلاد وأحوال أهلها وقد مكث في تلك البلاد نحو خمس سنين يجول فيها من قبيلة إلى قبيلة ومن بلد إلى بلد وقد جاءنا وهو مقيم عندنا الآن وهو من أكابر أعياننا وأتقاهم والسلام على حضرة سيدنا الأمير مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمان والسلام عن إذن القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاضي التكني والسلام. في 12 يوما خلون من صفر عام 1303 والسلام.

الحمد لله وحده وعلى السلام وأزكى التحية والاكرام

وعلى مقام سيدنا العالي بالله أفضل السلام وأزكى التحية والاكرام أما بعد فالاهم المقصود من ناحية سيدنا نصره الله وأيده الدعاء لنا بعز الدارين والسلامة من وبائهما وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم وكمثل أهل الزوايا والشيخ المختار وآل الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وآل برك الله وأهل التفغ الخطاط وتندغ جميعا وجميع الابراكن وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدم سيدنا لهذه البلاد ويطلبون له النصر والظفر ويطلبون الله أن يمتعهم بلقائه في بلادهم والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته ويحسنون إلى من جاءهم بخبره يسره ما يسره ويسوءهم ما يسوءه فلا أساء الله له يوما ولا ليلة ولا زالت الأيام تساعد والاكدار تباعده قد أخبرنا بذلك من لا يشك في قوله ولا فعله وهو واحد من إخواننا تقي زكي ذو عقل وحزم وفطنة ونباهة وهو خبير بأحوال تلك البلاد وأحوال أهلها وقد مكث في تلك البلاد نحو خمس سنين يجول فيها من قبيلة إلى قبيلة ومن بلد إلى بلد وقد جاءنا وهو مقيم عندنا الآن وهو من أكابر أعياننا وأتقاهم والسلام على حضرة سيدنا الأمير مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمان والسلام عن إذن القائد محمد بن أحمد بن الكور الزفاضي التكني والسلام. في 12 يوما خلون من صفر عام 1303 والسلام.

الحمد لله وحده والسكاه على اولاد عبيد

الحمد لله رب العالمين على اميرنا الحسن الموصوف بل الحسن
والشكر لله رب العالمين على اميرنا القادر المعروف بل الحسن
وعلى صفة امير المؤمنين سجاد الله ورحمته وبركاته
مادام الكون ورحمته وسكاته هذه اولاد
يكره علم امير المؤمنين ان رجلا كان مع النظار
لغنى الله يقال له اصبي وهو يسمى نفسه محمدا
بن عيسى الاسكافي ومنذ زمن وهو يرسل في اهل اوان
بل قدم على قبا واران الاسكافي وشعره وكدان وبران
انه يري من ان يكون خبر من صفة الكوفة يتيه وامتنعت له اولا
وبعد ذلك ترفت جوابه حتى ارسل في براوة هاهنا مع
المختوب على حالها فلما ارسلها ارسلت له بعض الوارد
لينتظر في خبره حتى ياتي به الخبر من عندكم وما امر بموابعه
معه ابعده فحول الله وفوته وجزا الله عما يحويه بالتمام
وايضا خبر الكوفة كثر على يده القيد والقتال حتى زنت حمله
وهو مريد تاخذ بيديت وارسلته لهما واهله لينظر فيهما
وياتي به خبر البقية واتا به وهذا ارسلته لكم بغير عيب
الحسن ان شاء الله مستأجدة وارحواله ان ينيلكم من الله
ما لم ينله غيركم في دهركم وجعله في عيشكم الى منتهى ايامكم وعلى الجنة
كويته حبيبتكم وحبيب ابايكم ما العشير بشيخه محمد باقر ميرزا
عبد الله المصلي والمسلمين اميرنا في الفعدة عام 1203

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفوظة رقم : 353.
الوثيقة رقم 9

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفوظة رقم 353.
الوثيقة رقم 9

Consulat de France
à Mogador.

République Française.

Mogador le 31 Décembre 1908

N° 336

M. G. G. G.
Demandes
de subvention
pour l'entretien
des agents de l'administration
française à Mogador.

SECRÉTARIAT DE LA LÉGATION DE FRANCE
à TANGER
31 Dec. 09
25
M. G. G. G.

Rapport de M. G. G. G.
à l'administration
française à Mogador.

Le Comité de France à Mogador
S'il y a lieu de venir de Saint-Amand
à Mogador, le Comité de France au Maroc,
à Tanger

J'apprends de bonne source que, par suite de
l'absence de la plus grande partie des revenus perçus
par les agents de l'administration française à Mogador, à Saffi et à
Tangier, les agents de l'administration française au Maroc,
à Tanger, ont été payés à la fin de chaque mois arabe
par les agents de l'administration française à Mogador.

Les sommes ainsi versées ont été régulièrement
adressées au Maroc par le chemin de fer de Tiznit.
Les envois se font généralement par la voie de Tiznit.

Les sommes ainsi versées de l'administration française à Mogador
sont de 100 francs par mois, qui rapportent
environ 200 francs par mois, et les sommes ainsi versées de l'administration française à Mogador
sont de 100 francs par mois, qui rapportent environ 200 francs par mois.

الوثيقة رقم 9 (تتمة)

plus de 1600 francs.

30 taxes perçues sur les habitants de l'arrondissement de Sétif à l'impôt de 1600 francs.

Totale de 1600 francs par mois.

Dans une prochaine communication nous vous enverrons de nos plans militaires de l'Algérie et de l'arrondissement de Sétif.

E. Courcier

الهوامش :

- (1) أنظر ملحق الوثائق في آخر هذا البحث.
 - (2) أنظر نص الظهير الشريف في ملحق الوثائق.
 - (3) أنظر نص الرسالة في ملحق الوثائق.
 - (4) أنظر نص الرسالة في ملحق الوثائق.
 - (5) أنظر نص الرسالة السلطانية في ملحق الوثائق.
 - (6) أنظر فصول هذه المعاهدة في:
عبد الهادي مكوار: وثائق وبطائق متعلقة بطرفاية، مخطوط مكرو فلم رقم 25، ص 4. الخزانة العامة الرباط.
 - (7) أنظر نص الرسالة في الملحق.
 - (8) أنظر نص الرسالة في الملحق.
 - (9) أنظر نص الرسالة في:
- محمد بن عزوز حكيم: السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال

- الوثائق المخزنية: الجزء 1. ص 188. الدار البيضاء، 1981.
- (10) م، س، ص 189.
- (11) م، س، ص 188.
- (12) م، س، ص 220.
- (13) كناش مكاتب الطابع الشريف، ص 79/69. مخطوط رقم: د 1695، قسم الوثائق، الخزانة العامة، الرباط.
- (14) أنظر نص الرسالة في:
- Paul Marty - islam en Mauritanie et au Sénégal (Les Fadelia). p. 159. dans: Revue du Monde Musulman. Vol. XXXI. Ed Ernest Leroux. Paris. 1915-1916.
- (15) محمد الامام: الجاش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة في مركب وسيط، مخطوط مكروفل، رقم 6، ص 24. الخزانة العامة الرباط.
- (16) بعث قنصل فرنسا بالعرائش (Jeannier) رسالة إلى وزير بلاده بطنجة (Regnault) بتاريخ فبراير 1907، أخبره فيها بأن السلطان مولاي عبد العزيز قد أرسل مؤخرًا حوالي 125 صندوق من البندقيات و 145 آخر من الدخيرة للشيخ ماء العينين.
- Documents Diplomatiques Français. Tome 3, p. 178. Année 1906-1907. Paris.
- (17) أنظر نص الرسالة في التقرير الذي بعثه قنصل فرنسا بالصويرة (Kouri) إلى القائم بأعمال فرنسا بطنجة (Saint-Aulaire) بتاريخ 31 دجنبر 1908.
- وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، المحفوظة رقم 350. مجموعة المغرب (طنجة)، نانط فرنسا، أنظر الوثيقة رقم 9.

بعض مظاهر حياة الصحراء المغربية فكرا وحضارة

الشيخ ماء العينين لارباس
بن الشيخ محمد الأغظف(*)

إن الحديث عن جانب من جوانب تاريخ جهة من جهات المملكة المغربية يحتاج ولاشك لدراسة معمقة وبحث شامل ليضع الكاتب القارئ في الصورة الحقيقية لواقع ظاهرة من ظواهر تاريخ المكان المتحدث عنه، فالتاريخ المغربي ضارب في أعماق العصور الغابرة، ولا يزال الكثير مما مر على هذا البلد الأمين يحتاج إلى دراسة وافية لاستخراج كنوز ماضينا المجيد الذي ما زال الكثير منه مجهولا، ويحتاج لتضافر جهود الباحثين المختصين لنفض الغبار عنه، فماضي الأمم المشرق أغلى رصيد يدفع بها لمستقبل واعد.

وإن اهتمام وزارة الثقافة بهذا الجانب الذي يدخل في ميدان اختصاصها، وجعلها تخصص عددا خاصا من مجلة المناهل يهتم بالصحراء المغربية حضارة وفكرا، إن هذا الاهتمام تشكر عليه الوزارة وإدارة المجلة.

إن الصحراء المغربية، كغيرها من جهات المملكة المغربية، انجبت علماء ومجاهدين وأولياء وصالحين وكان سكانها الأماجد، وما يزالون أوفياء يعتز كل واحد منهم بتاريخ وطنه.

(*) رئيس المجلس العلمي بالأقاليم الجنوبية للصحراء المغربية.

فإذا أراد الباحث أن يتتبع جوانب حياة هذا الجزء من الوطن الغالي فسيحتاج إلى وقت طويل، لأسباب لا تخفى على أي دارس ومختص في تاريخ صحرائنا المغربية.

إنك إذا أردت أن تهیی دراسة عن عالم من علمائها أو مجاهديها أو صالح من صلحائها إلا ويفرض عليك واجب الأمانة التاريخية أن تدون الواقع الذي لا يقبل الطعن حسب ما هو موثق، حول الموضوع الذي تناولت. وعندما تجد نفسك أنك إذا أردت التحدث عن أي عالم أو مجاهد أو صالح أو قبيلة برمتها إلا ورأيت قلمك مرهونا بأن يتطرق إلى تاريخ جبل العلمين، أو سكان سيدي يحيى الغرب، أو قلعة سراغنة، أو مراکش، أو زرهون، أو سيدي بوعزة، أو خنيفرة، أو سوس، أو سجلماسة، أو أربعاء سيدي المختار، أو نواحي وجدة والناظور... إلى غير ذلك من مدن وجهات المملكة، لترابط هؤلاء السكان الصحراويين نسبا وصهرا بأصولهم ومنابعهم وأهلهم وذويهم المنتشرين في جميع رقعة هذا الوطن العزيز، من البوغاز إلى الصحراء، وهذا من الأسباب التي تحتم على من يستهدف الموضوعية في ما يدونه وينشره عن تاريخ هذه الجهة الصحراوية، أن يوضح هذا التمازج العرقي والتلاحم السلالي والتفاعل البئوي والتماسك الموجود بين أبناء هذه الأمة العظيمة، كل هذا يتراءى للباحث كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضا، حلقات سلسلة متماسكة وصفوف مراحل حياتنا التاريخية المترابطة. فلتحصل عند المختص المهتم أن الكتابة عن الصحراء المغربية تاريخا وفكرا، ترتبط ارتباطا عضويا بتاريخ مغرب موحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ولاشك أن تنوع المميزات والخصائص التي توجد بكل جهة من جهات المملكة، أعطيا لهذا البلد الأصيل غنى حضاريا متميزا، قل ما يوجد في بلد أو تتوفر عليه أمة، زيادة على التمازج العائلي الذي يجمع بين أبناء الوطن.

ولقد طبع سكان هذه الجهة الصحراوية من المملكة المغربية إيمان راسخ بالوفاء المطلق لهذا الوطن العزيز، يدافعون عن وحدته، ويذبون بما في الكلمة من معنى عن مقدساته، ويحافظون على أصالته، ويعتزون أيما اعتزاز بحضارته ويباهون بتاريخه الذي يسمو بما خلده عظماءنا من مآثر تتيه بها الأمم.

إن سفر ماضي بلادنا الضخم يدون غرة في جبين حياة الدول التي ترعى القيم وتقدر الواجب الوطني والأخلاقي، فأبناء جهة، هذه صفاتهم، لا يستغرب عليهم التشبث بأصالتهم النابعة عن مغرب موحد نسبا وأرضا، قدم العروبة وأمازيغ امتزجا في عروق المواطن المغربي فكونا منه مواطنا متميزا بشهامته، وصلابة عوده، واعتزازه بأصالته النسبية، وحبه لبلده، وتجاوبه بكل مشاعره مع طبيعته الخلابة وانصهاره في حياة جهته عرفا وعادة.

وهذا ما جعل ولد الصحراء المغربية يهتم بالحياة البسيطة التي تكتنف ولد الواحة النقية طبيعة وسلوكا:

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلي من قصر منيف

لقد عاش جل أبناء الصحراء المغربية تحت الخيام باستثناء بعض أبناء الحواضر المحدثّة في القرنين 18 و19 كمدينة طرفاية والداخلة والسمارة، مع أن أبناء هذه المدن يعيشون من حين لآخر تحت الخيام وينتقلون على ظهور الجمال، إما لاداء البيعة للموكلين

العلويين في المناسبات الدينية والوطنية، أو دفاعا عن الوطن، أو طالبين أحيانا للعلم أو باحثين عن الكلا...

وقد كان أبناء الصحراء المغربية يرحلون طلبا للعلم في حواضرنا العتيقة كفاس ومراكش إضافة إلى المدارس العتيقة الشهيرة المنتشرة في صحرائنا المغربية وفي وسط المملكة وشمالها. وقد لعبت هذه المدارس العلمية دورا طلائعيا في تثقيف أبناء هذا الوطن العزيز وقوت تواصلهم وترابطهم في الكثير من مجالات الحياة، وزاد في هذا التلاحم وحدة الرؤى ووحدة المذهب والعقيدة، فقد حرص ملوك المغرب على الأخذ بمذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي وشد الاعتناء به وبدراسته وتأصيله في عهد الدولة العلوية الشريفة. فكان لتوحيد المذهب المالكي والمعتقد الأشعري أكبر عامل لقوة وحدتنا فكريا وحضارة.

ومن المعلوم أن جامعة القرويين التي عم نور إشعاع علمها كثيرا من أصقاع الدنيا. قد تخرج منها علماء أجلاء كان لهم الفضل في تأسيس هذه المدارس المتفرعة عن هذه الجامعة العتيقة. فلن ترى عميد مؤسسة علمية في الجنوب صدر علما، ونشر معارف نافعة إلا وتخرج هو نفسه أو مشايخه الآخذ عنهم من هذه المعلمة التاريخية القروية الفاسية.

ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر البعض من هذه المدارس التي ساهمت في نشر العلم وتلقيه مدرسة سجلماسة، المدرسة الناصرية، مدرسة الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، مدرسة اتشاغ الخطاط، مدرسة الشيخ محمد المامي، مدرسة أهل محمد سالم، مدرسة الصمارة العينية، مدرسة أهل عبد المعطي السباعية،

مدرسة إيلغ السوسية... إلى غير ذلك من المدارس العلمية الكثيرة، التي لا تأتي تحت حصر والتي حازت قصبة السبق في نشر العلم والمعارف، وإلى أبنائها الأوفياء وجميع سكان هذه الجهة يرجع الفضل في التصدي لد الغزو الاستعماري بقيادة العرش العلوي المجيد أيد الله ملكه، وخلد في الصالحات ذكره.

لقد اعتنى الملوك العلويون بالعلم والعلماء وذلك ديدنهم وتلك شيمتهم، فأحاطوا المدارس العلمية في الصحراء المغربية بالعناية الفائقة كي تقوم بأداء رسالتها المشرفة على الوجه الأكمل، وقد تحقق ذلك فضلا من الله جلت قدرته، وما زال البعض من هذه المدارس يقوم بواجبه أحسن قيام، فإذا تتبع المهتم إنتاج خريجي هذه المؤسسات في أي ميدان من ميادين العلوم الإسلامية، يجد أن هذا السلف الصالح ترك لنا من أعماله الفكرية الحية ما يجعلنا جديرين بالافتخار به وبمجهوده الجبار الذي بذل في الحفاظ على تراثنا الإسلامي فكرا وحضارة، واستطاع هذا السلف بواسطة مدارسه وعلمائه ودعاته ومشايخه الحريصين على قيمه بصفة عامة، أن يلحق الأجيال ما ترك لنا الرعيل الأول من ثروة علمية تغني المدارك وتنمي المعارف وتحيي التراث وتحافظ على الأصالة.

أولئك أبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرا لجامع

من تحلى بهذه القيم، وأحى هذا التاريخ المجيد وحافظ على إبراز أعمال أبناء هذا البلد وتخليد مكانتهم لتبقى مرسومة في ذاكرة الأجيال، هو أب للفضيلة ويحق الافتخار به، ويعتز المنتسب إليه وطننا ونسبا.

لقد عرف ولد الصحراء المغربية الحقيقي بالوفاء بالعهد والاخلاص للعرش العلوي المجيد والجالس عليه والتمسك بالاسلام وقيمته، والمحافظة على تطبيق مشهور مذهب مالك وما جرى به العمل، كما عرف بترجيح رواية ابن قاسم على غيرها من أقوال علماء المذاهب.

ويمتاز علماء الصحراء المغربية بعدم التعصب ويتحلون بالمرونة الكاملة في الفكر، والبعد عن التزمّت، فالآية القرآنية، والحديث النبوي على ألسنتهم، يعطرون مجالسهم دوماً وأبداً بعلوم القرآن والتفسير، وعلوم الحديث ودراسة كتبه ومسانده، ولا يفترون عن مدارس السيرة النبوية، ولهم شغف وحب لا يضاهيان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ولكي أعطيك أيها القارئ برهاناً واضحاً ودليلاً قاطعاً على عمق حب سكان هذه الجهة للرسول عليه الصلاة والسلام وآل بيته الكرام، هاأنا أسوق لك نموذجاً مختصراً جداً من شعر أحد خريجي هذه المدارس التي أومأت لها أنفاً وبالأخص مدرسة الصمارة العينية، وأعني بها أحد نبغاء هذه المؤسسة العلمية، العلامة الجليل والشاعر المجيد، والمقاوم الكبير والوفي المحب للرسول وآله صلى الله عليه وسلم، أستاذنا الكبير فضيلة ماء العينين بن العتيق، صاحب التآليف المفيدة والدواوين العديدة.

يقول هذا الشاعر من قصيدة يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، مطلعها:

وهان عليها بالمدامع جودها
كأنني إذا كفكفتها استزيدها

الأمّن لعين عز وجل جودها
تفيض لذكرى الفيضتين بعبرة

ومن لحجى اذكى به الشوق شعلة
وهل ذكرت أيامها أم تنوسيت
تشب استعاراً إذ يرام خمودها
وهل رعت أم هل أضيعت عهدا

إلى أن يقول في التخلص على الرسول (ص) :

ولكن هوى أرض الحجاز استمالني
ألا يا رسول الله حبك حببت
فما غير أرض أنت فيها ميم
وهل جنة الدنيا سوى الأربع التي
بميلادك الأقطار نارت وأصبحت
وأمسى الليالي ساقطاً دبرانها
فلما يشقني اليوم إلا شهودها
إلي به وهدانا ونجسودها
لنيل العلا من كل وجه صعيدها
حوتك وهل إلا ربيعك عيدها
محلا بتقصار السعادة جيدها
وطالعة في الخافقين سعودها

إلى آخرها، وهي قصيدة مديحية عليه (ص) طويلة ومفيدة، عدد أبياتها (92)، تدل على سعة اطلاع صاحبها وغزارة علمه وجدوة شعره وإخلاص حبه وطول نفسه في هذا الميدان.

ولم يقتصر هذا العلامة الوحيد والشاعر المجيد على ذكر مناقبه عليه الصلاة والسلام ونظم مدائحه، بل أعمل قريحته الوقادة وأبرز قصائده الجيدة في الثناء لآل بيته عليه الصلاة والسلام، وهذه بعض أبيات من إحدى قصائده الكثيرة التي يمدح بها جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، بمناسبة رجوع جلالته من منفاه السحيق هو والأسرة المالكة حاملاً معه حرية المغرب واستقلاله، مبرزاً حبه لهذه الدوحة النبوية الشريفة، ومبتهجاً بالانتصار الذي أحرز عليه العرش العلوي المجيد وشعبه الوفي رغم كيد الكائدين ومناورات المتآمرين، فقال من قصيدة طويلة هذا مطلعها:

تتابعت البشائر والخير
 وصبح السعد لاح له ضياء
 ونهج الرشيد أن له سلوك
 بمشهد طلعة الملك المفدى
 ومن مجلى جلالته توالى
 ومن طود السعادة مستقر
 امام العصر محمود السجيا
 مزاياء الأمم بها سميع
 من أولى العز الأمة بعد ذل
 وفي سبيل العلامر المنايا

إلى أن يقول:

أمير المومنين وبالتهاني
 وما نهدي إليك من التهاني
 لقد أنقذت الأمة من مصفار
 أزلت ظلامه عنهما وأنى
 كففت أكف الاستعمار عنها

إلى أن يقول:

ونعم الشعب شريك خير شعب
 تأخروا في بيانتهم فكل
 رجال الغرب فيه بدوا بدورا
 اساتذة جهابذة أباء
 الافهنا قرير العين ان لا

بحمد الله واتصل السرور
 وروض الفوز لاح له عبيير
 ووجبه الحق أن له سنور
 من ازدانت بدولته الدهور
 به الأفراح وانشرح الصدور
 بامبرته وناظرها قرير
 محمد ابن يوسفنا الشهير
 لشهرتها ويبصرها الخير
 وبعد العز ذل به الكفور
 لديه كأنه الماء النضير

هم أحمرى إذ انت لهم أمير
 لما أوتيت من شرف كثير
 عليه مع الكبير ربى الصغير
 ترى الظلماء معك وأنت نور
 فحر العبد وانفك الأسير

تعمهم الثقافة والشعور
 على أوطانه طبعها غيور
 لهم تعنوا بمشرقها البدور
 غطارفة قساورة بحور
 تبارحك المسرة والحبور

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي ضمنها تهنئته للمغفور له
 على الانتصار العظيم الذي أعطاه الله على عدوه، فحرر أمته
 بإرادة لا تقهر وشعب وفي حريص على تحقيق ما يهدف إليه
 العرش العلوي المجيد من حفظ هذه الأمة وبناء مستقبلها وصيانة

كرامتها والمحافظة على وحدتها والذب عن قيمها، وقد ازداد هذا الوطن ازدهارا في عهد الموحد الباني أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني دام في حرز السبع المثاني.

فلقد بينت أن أبناء هذه الجهة عرفوا بوفائهم وحبهم للرسول وآل بيته، وسقت هذا النموذج كبرهان على ما يكنه أبناء هذا الوطن، بصفة شمولية، من إخلاص منقطع النظير للرسول (ص) وآل بيته العلويين الشرفاء الذين نعتز بقيادتهم الرشيدة.

وهذه الظاهرة من تكريم أبناء الرسول وتقديرهم واعتقاد كل الخير في هذه السلالة النبوية، عامة على جميع جهات المملكة المغربية، مع أن حظ هذه الجهة الصحراوية المغربية لم يكن ولله الحمد ضئيلا في هذا الميدان المشرف:

إن كان رفضي حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

فاز كلب بحب أصحاب كهف كيف أشقى بحب آل النبي

لقد أتيت ببعض إنتاج هذا الشاعر المجيد والعالم الكبير، خريج مدرسة الصمارة العينية لأبرز للدارس مدى تشبث سكان الصحراء المغربية وعلمائها بحب النبي صلى الله عليه وسلم، وآل بيته الكرام، حيث يتنافسون في مدحه عليه الصلاة والسلام، بالشعر العربي العمودي الموزون الذي هو جوهر تراث أدبنا في ميدان النظم، زيادة على ما لهم من ثروة أدبية في النثر تشد القارئ، لصفاء خيالهم ودقة تصويرهم وفيض عاطفتهم. وكذلك في الأدب الحساني الذي لم يترك غرضا من أغراض الشعر العربي الأصيل إلا وتناوله بأسلوب رفيع جدا، فأديب الصحراء المغربية

معروف بصدق عاطفته وتلك شنشنة يعرفها من اخزم:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

وغير خاف أن حياتهم في الماضي - كما أشرنا في السطور
الآنفة- تتقارب جدا مع حياة سكان الجزيرة العربية الذين كانوا
يتتبعون مواضع القطر.

ويمتاز أبناء الصحراء المغربية بالتراحم فيما بينهم وحسن
النية والكرم الحاتمي مع الكل، إذ يعتنون بالضعيف والغريب وذوي
الحاجة عناية فائقة، ولا يسمحون بمس كرامتهم لأي كان:

فنفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

إن عنايتهم بالضعيف والغريب والجار، نابعة من امتثالهم لقول
الرسول صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليكرم جاره،
ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.

وتتمثل هذه العناية التي لا مثيل لها في مواساتهم لذوي الحاجة
بمالهم ومشاركتهم لهم في ما عندهم بصفة عملية.

فسكان هذه الجهة من المملكة المغربية يطبقون ما يرمي إليه
التكافل الإجتماعي الإسلامي بمعنى الكلمة. ولقد أشار إلى ذلك
العلامة الشيخ محمد الامام في قصيدة له رائعة، يصف فيها
شمائل أبناء هذه الجهة إذ يقول:

منازلهم لابن السبيل مشاعة فلا يزجر المولى ولا ينبع الكلب

ويصدق فيهم لكرمهم وأريحياتهم قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

ومن شيمهم التسامح الطبيعي، وتتوفر فيهم صفة المؤمن التي أشار إليها الحديث النبوي: المؤمن سريع الغضب سريع الرضا.

فإذا حدث تشاجر فيما بينهم بسبب من الأسباب، فسرعان ما يمحي، ولا يبقى له أدنى أثر في النفوس، لطيبوبتهم وترفعهم وصفاء طويتهم وحبهم للخير وانقيادهم للسلام وتسامحهم الفطري: لا يحمل الحق من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

تقود سكان الصحراء المغربية المثالية السامية إلى نعوت المجد وصفات الكمال، يحترم بعضهم البعض، والكبير منهم يحترم الصغير والصغير يوقر الكبير كما هو مطلوب من المسلم أن يعامل به أخاه المسلم، ومن المعلوم أن للنفوس من النقائص ما لله من الكمالات، والعصمة للأنبياء، والانسان ضعيف بطبعه، مسير غير مخير، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق. هذا في نظري شيء مسلم به، لكن عندما يكون أساس تربية هذا المجتمع قويا وتكون أصالته المعبرة عن تجذره في عمق التاريخ ثابتة - كما هو الواقع - فالزوابع التي تمر لا تغير من الأساس شيئا ولا تضر بناء المجتمع المرصوص:

فما على عالي الذري من نصب من هبة الصبا ورمية الصبي
غيره:

تأبى الطبيعة غير ما يستحسن وإذا دعت إلى النقيصة حدة
إن هم صاحبها بما لا يحسن دعت السجية للتي هي أحسن

فعلى كل مغربي أن يعتز أيما اعتزاز بتاريخ وطنه، المملكة المغربية، ويزداد تيتها بما خلده أبناء كل جهة من جهات هذا الوطن، من علم وجهاد وتضحية ووفاء ودفاع عن القيم السامية بالغالي

والنفيس، فالحديث عن هذه الأعمال المشرقة الكثيرة التي قام بها سكان جهات المملكة المغربية على امتداد التاريخ، بتفصيل وتمحيص تزيد ولد هذا الوطن اعتزازا وفخرا به، ولقد قلت في صدر هذا العرض الوجيز عن حياة صحرائنا المغربية، حضارة وفكرا، أن الكتابة عن جزئية من جوانب تاريخها يحتاج لوقت ودراسة وتنقيب من المختصين، لثروة هذا الموضوع وتنوع محاوره وغزارة مادته. ولي كامل اليقين بأن وزارة الثقافة لا تألوا جهدا في أن تنتدب لكل جهة علماء مختصين لجمع ما هنالك من تاريخ مجهول ما زال ينتظر من ينقب عليه ويبرزه في جوانب عديدة، علما وأدبا وفنوننا... فبلادنا تزخر بتاريخ عظيم غني في شتى أنواع المعارف.

وإذا قدر الله أن أعدت دراسة موضوعية لكشف ما تتوفر عليه بلادنا من ذخائر علمية متنوعة، سنكون عندها قمنا بجزء من واجبنا نحو هذا الوطن الذي ينتظر أن نشمر عن ساعد الجد لخدمته بكل غال ونفيس، في عصر لا يرحم ولا يأخذ فيه مكانته إلا الأقوى علما وفكرا واقتصادا...

لقد فرض المغرب إسمه في التاريخ، ودون أثره في كل مجال من مجالات الحياة بصمود أبنائه، واهتمامهم الشامل بجميع مظاهر الوجود، فما علينا نحن إلا أن نعرف بأعمال هؤلاء الأماجد السابقين، ونكرس الجهد لاضافة لبنات لما بناه الأولون من أعمال تناسب تطور العصر، وتجده السريع الذي لا يعرف التوقف ويعج بالابتكار والتجديد.

جوانب وحدوية في حركة الشيخ ماء العينين

محمد الظريف(*)

يطرح البحث في موضوع الوحدة في حركة الشيخ ماء العينين نفسه بإلحاح على الباحثين في تاريخ المغرب الحديث لعدة اعتبارات منها:

أولاً: مكانة الوحدة في تجربة هذا الشيخ في مستوياتها المختلفة الاجتماعية والسياسية، وموقعها في أعماله العلمية والأدبية. فهي تشكل منطلق هذه التجربة وغاية غاياتها، وروح هذه الأعمال وقطب دائرتها.

ثانياً: أهمية هذا الموضوع في الظروف الراهنة التي تعيشها بلادنا على المستوى الوطني والقومي. فنحن في أمس الحاجة إلى استلهام جوانب القوة في تراثنا لمواجهة التحديات المختلفة التي تحاول تقزيمنا وتمزيق صفوفنا، واعتمادها في إقامة مختلف الجدران الأمنية التي تقوم ببنائها، لأن التراث في أشكاله المختلفة ليس مادة ميتة تنتهي بانتهاء زمانها، وتفقد فعاليتها بزوال عهدها، ولكنه شمس دائمة الاشراف، ما تكاد تغيب وراء الأفق حتى تعود من جديد لتملأ الحياة نورا وضياء، إنه «روح الأمة» (*). أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، جامعة الحسن الثاني.

وتاريخها»⁽¹⁾. لذلك لا ينبغي أن نهيل عليه تراب النسيان، أو نحفظه في المتاحف ورفوف الخزانات، ونقدم له القرابين، «بل ينبغي أن ندرسه وندعو إلى دراسته في ضوء تجاربنا وتفكيرنا، وما يعتمل في واقعنا ونفوسنا من صراع للكشف عن روح الأصالة في أمتنا، حتى نستطيع متابعة مسار التقدم الذي تحتمه حركة التاريخ الدائبة، وحتى يتسنى لنا أن نهى انطلاقة متفتحة يلتحم فيها التراث بتأثيره على الواقع ومعركة التغيير من جهة مع المكتسبات الجديدة بفعاليتها المبدعة الخلاقة من جهة ثانية»⁽²⁾.

ثالثا : تعسف الدارسين الأجانب في تفسير الأبعاد الحقيقية للجوانب الوجدانية في هذه الحركة. فلما فشل المستعمر في طمس هذه الجوانب وإخفاء حقيقتها، جند سدنته لافراغها من محتواها الحقيقي وتقديمها في صورة تخدم أغراضه الاستعمارية.

فبول مارتى Paul Marty - على سبيل المثال - يربط هذه الجوانب بما يسمى في الأطروحة الإستعمارية بالإسلام الأفريقي، أي العادات والمعتقدات الوثنية التي طبعت إسلام الشعوب الإفريقية، فيرى أن «والد الشيخ ماء العينين لم يسمح بتداول أوراك جميع الطرق ضمن طريقته إلا نتيجة تفهمه للاتجاهات الدينية للسود، لأن الرجل السليم والفاضل، هو الذي يملك عددا من الطلاس التي تجعله في مأمن من أي احتمال، وهذا ما يفسر اتباع عدد كبير من السود لطريقته»⁽³⁾.

وقريب من هذا الزعم ما يعتقده برادفور Bradford في الوسائل التي اعتمدها الشيخ ماء العينين في تحقيق الوحدة بين قبائل الصحراء المغربية. فهو يرى أن «زواج هذا الشيخ من مائة وست

عشرة امرأة كان من الوسائل القوية التي لجأ إليها لجمع الشمل بين القبائل الصحراوية وتقوية أواصر القرابة بينها» (4)، وهو اعتقاد طريف، لكنه غير مقنع، لأن صاحبه يظل أسير النظرة الانتروبولوجية الاستعمارية التي تفرغ كل الظواهر المشرقة في العالم الإسلامي من محتواها الديني وترجعها إلى مجموعة من الأعراف والعادات والطقوس المرتبطة باللاشعور الجمعي للشعوب.

ويصل هذا التعسف قمته في الحديث عن الأبعاد السياسية لهذه الحركة، فلا يعود امتدادها في الزمان والمكان - كما يرى برادفور - إلى ما تقوم عليه من أسس وحدوية، وإنما يعود بالأساس إلى أسباب سياسية تتعلق برغبة ملوك الدولة العلوية في تسخيرها لضرب الزوايا والطرق المناهضة لتوجهاتهم. «فليس مستبعدا - كما يرى هذا الباحث - أن يكون أمر هذه الزاوية كأمر الزاوية التيجانية التي منحها السلطان مولاي سليمان كل إمكانات القوة لتقليص دور باقي الزوايا المعاصرة لها» (5).

رابعاً : اهتمام بعض رواد البحث في ثقافة الصحراء بهذا الجانب، وتأكيدهم على ضرورة إبرازه، فأية دراسة لثقافة الصحراء - حسب رأي الدكتور عباس الجراري - ينبغي أن تتم انطلاقاً من عنصر التواصل الذي ربطها بالحركة الثقافية في المغرب، لأن هذه الثقافة كانت - وماتزال - أداة وحدة ووسيلة تواصل (6).

وتظهر آثار الوحدة في حركة الشيخ ماء العينين في عدة جوانب نقتصر في إبرازها على جانبين اثنين: ثقافي وسياسي،

الجانب الأول : ويتمثل فيما خلفه الشيخ ماء العينين وأبناؤه وأحفاده ومريدوه من أعمال علمية وتركوه من آثار أدبية،

وسنقتصر فيه على التصوف والفقه باعتبارهما أبرز الأسس الثقافية التي قامت عليها الحركة المعينية.

1- التصوف: ويتحرك في اتجاهه العام في خط واحد هو تحقيق وحدة الجماعة الإسلامية، وصهر أبنائها في بوتقة روحية واحدة. ويظهر ذلك في مختلف مستوياته العلمية والعملية.

فهو ليس تجربة باطنية تأملية «يكتفى فيها بالأخبار، أو يستغنى فيها بالعلم عن حصول الأنوار»⁽⁷⁾، ولكنه علم وعمل، عادة وعبادة، سلوك اجتماعي وتربية أخلاقية. وهو لا يسعى إلى عزل الإنسان عن الدنيا، وإبعاده عن شرورها ومشاغلها، كما يفهم من التصوف بصفة عامة، ولكنه يهدف إلى السمو به عن قشور الحياة، والارتفاع به إلى مستوى الكمال.

كما أنه لا يقوم في أصل نشأته على الخنوع والاستسلام والتواكل والمصالحة مع الواقع، ولكنه ينبني على مواجهة كل ما يفسر سعادة الإنسان، ويحول دون تحقيق كماله⁽⁸⁾.

وتظهر وحدوية التصوف المعيني فيما يلي:

أولاً: وحدة الشريعة والحقيقة. وهو مبدأ أساسي في التجربة الصوفية المعينية، يقوم في أساسه على ضرورة ركوب سفينة الشريعة في بحر الحقيقة، ولزوم دخول بيت الشريعة من باب الحقيقة. وقد أكد الشيخ ماء العينين على ضرورة احترام هذا المبدأ، ولزم الاهتداء به من أي سلوك صوفي، بل اعتبره أساس التجربة الصوفية وجوهر حقيقتها. فالتصوف عنده هو «الوقوف مع آداب الشريعة ظاهراً أو باطناً، فيرى (الواقف) حكمه من الظاهر في الباطن، ومن الباطن في الظاهر، فيحصل من الحكمين كمال لم يكن بعده كمال...»⁽⁹⁾.

وكل سلوك صوفي لا يقوم على هذا المبدأ يعتبر مروقا وفسقا، لأن من «تفقه ولم يتصوف، فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما، فقد تحقق»⁽¹⁰⁾.

ثانيا : معالجة الانسان لنفسه ويتم ذلك بالتخلي عن الجوانب الظلمانية التي تميتها والتخلي بالأخلاق النورانية التي تحيىها فتنتلق من عقالها وتعانق الجمال والجلال والكمال. وقد عبر الشيخ ماء العينين عن هذه التجربة الوجدانية التي تتوحد فيها القيم المثالية عبر عمليات التخلي والتجلي فيما بته في أعماله الصوفية من آراء تربوية تهتم بأداب المريد مع ربه وشيخه وأخيه وغيره من الخلق، وخاصة في كتابه نعت البدايات وتوصيف النهايات⁽¹¹⁾.

ثالثا : المؤاخاة بين الطرق الصوفية والتأليف بين قلوب أبنائها، وقد خصص الشيخ ماء العينين لهذا الموضوع منظومته «إني مخاوي لجميع الطرق» وكتابه «مفيد الراوي على أني مخاوي». فالطرق بالنسبة إليه «وإن تعددت واختلفت فمرجعها كلها لأمر واحد هو الفناء في مشاهدة الله، والنظر إليه عن كل ما سواه»⁽¹²⁾، ولذلك عمل على توحيدها وصهرها في بوتقة روحية واحدة.

إني مخاوي لجميع الطرق	أخوة الإيمان عند المتقي
ولا أفرق بين الأولياء	كمن يفرق بين الأنبياء
قال تعالى: المومنون إخوة	وعدم التفريق فيه أسوة ⁽¹³⁾ .

وترجع وحدة الطرق حسب المنظومة الفكرية المعينية، إلى طبيعة تكوين البشرية، وما جبلت عليه في أصل نشأتها من ميل إلى الاتحاد، ونفور من التمزق، فقد «خلق الله تعالى الأرواح من

عالم الملكوت والأشباح من عالم الملك، ونفخ فيها تلك الأرواح، أي أرواح الاتحاد والائتلاف. وجعل بينهما النفوس الأمارّة التي ليست من قبيل الأرواح، ولا من قبيل الأشباح، فأرسل عليها جند العقول ليدفع بها شرها، وهي العقول المجردة الأخروية، وإلا فالعقول الغريزية والدينيوية لا تقدر على الدفع، بل هي معينة للنفس، فإذا امتحن الله عباده المومنين هيّج نفوسهم الأمارّة ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان والأخوة، وأمرهم أن يعينوا العقل والروح والقلب على النفس حتى تنهزم، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فهم كنفس واحدة لأن مصادرهم مصدر واحد، وهو آدم عليه السلام...» (14).

فالإتحاد حسب هذا القول جوهر متأصل في الذات البشرية، منحه الله لآدم عليه السلام، وأورثه ذريته الصالحة التي غلبت عقولها المجردة الأخروية النورانية على عقولها الغريزية الدينيوية. أما التفرقة فهي عنصر خسيس في الطبيعة البشرية، «لأنها لا تكون إلا من النفس الأمارّة، أما الروح فلا ينظر في التفرقة أصلاً» (15).

هذا الأصل الطبيعي للائتلاف والاختلاف في الذات البشرية، هو الأصل في دعوة الإسلام إلى وحدة الأمة الإسلامية، ونهيه عن التمزق والتشردم، وينتج عنه أن الاتحاد إيمان وصلاح، وأن الاختلاف كفر وفساد (16).

وينطلق الشيخ ماء العينين في هذا الأساس الوحدوي الذي بنى عليه طريقته من روح الإسلام الوحدوية، التي تستهدف توحيد الجماعة الإسلامية، ومن الواقع الاجتماعي والديني والسياسي

للمغرب في نهاية القرن التاسع عشر. ففي هذه الفترة، وبينما كانت القوات الاستعمارية تحاصر المغرب من جميع الجهات، وتتحين الفرصة للانقضاض عليه، كانت الصراعات القبلية تمزق كيانه الداخلي، وكان على الطرق الصوفية أن تضطلع بدورها التاريخي المعهود، وتواصل رسالة عبد الله بن ياسين والمهدي بن تومرت والشرفاء السعديين والعلويين، وتعمل على تعبئة الجماهير وإصلاح ذات البين بينها، وتهيئها للدفاع عن البلاد، غير أن معظمها كان يتغافل عن هذا الواقع المأساوي، ويتجاهل ما يهدد المغرب من أخطار، ولا يهتم إلا بجمع الصدقات والهبات، ونشر البدع والاعتقادات الساذجة والسلوكات التواكلية المثبطة للعزائم، فصار هذا الأمر يتطلب المعالجة، فبادر الشيخ ماء العينين إلى إصلاحه بما صلح به أوله، فبنى طريقته على أساس التوحيد والتربية التي تقوم على التخلي عن الشقاق والنزاع والتواكل والتحلي بالإيمان والصبر. وغيرها من المبادئ الوحدوية التي تسمو بالإنسان وترفعه إلى مقام الكمال.

وقد تمكن بفضل هذه المبادئ الوحدوية التي بنى عليها طريقته من توحيد القبائل الصحراوية، وتعبئتها لمواجهة المستعمر، وقيادتها لصد الأطماع الأجنبية التي كانت تهدد وحدة المغرب لمدة طويلة⁽¹⁷⁾.

2 - الفقه : ويسير في اتجاهه العام في نفس الخط الوحدوي الذي تسير فيه باقي مكونات الثقافة المعينية، ويظهر ذلك في مختلف الأحكام والقضايا التي عالجها الشيخ ماء العينين في أعماله الفقهية المختلفة « كتبيان الحق الذي للباطل سحق » و« دليل الرفاق

على شمس الإتفاق» و«كتاب الصلاة في فضائل بعض الصلوات» و«أحكام الضيافة» و«مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب» وغيرها⁽¹⁸⁾.

ففي كتاب «دليل الرفاق على شمس الإتفاق» - وهو أبرز عمل فقهي وحدوي معيني - يعرض الشيخ ماء العينين آراءه الوحدوية في المؤاخاة بين جميع الاتجاهات الفقهية والمساواة بين سائر المدارس التشريعية الإسلامية. فالشريعة المطهرة بالنسبة إليه (كما في الميزان لاختلاف فيها البتة، بل إنما نزلت على مرتبتين، لكل مرتبة قوم من الفريقين، مرتبة كأنها مشددة هي للأقوياء، وأخرى كأنها مخففة للضعفاء يكلفون بالصعود خارجاً عن إحدى الحالتين)⁽¹⁹⁾.

فما يبدو من خلافاً فقهية في الشريعة الإسلامية - حسب رأي الشيخ ماء العينين، في هذا القول الذي يستند فيه إلى الميزان الكبرى للشعراني - لا يعود بالأساس إلى طبيعة هذه الشريعة، وإنما هو مظهر من مظاهر مرونتها ومراعاتها لأحوال الناس واستعداداتهم الفطرية.

ولا يقنع الشيخ ماء العينين بهذه الإشارة الموجزة، ولكن يفسح المجال للإمام الشعراني ليوضح هذه الفكرة، ويعرض جزئياتها وجوانبها العامة، فيسهب في بسط جوانبها في أكثر من أربع صفحات، فيرى (أن الشريعة جاءت عامة وليس مذهب أولى بها من مذهب، فمن ادعى تخصيصها بما ذهب إليه إمامه من المقلدين، فقد أتى باباً من الكبائر)⁽²⁰⁾.

وبعد حسم الشعراني في هذه المسألة، وإدانتها لمن يخصص الشريعة الإسلامية، وتكفيره لمن يفتح باب الخلاف فيها، يقترح على

عامة المسلمين « ميزانه الكبرى » لقياس ما يمكن أن يعترضهم من مسائل فقهية، وتجنب الخلافات وتجاوز الشقاكات المذهبية. فمن خاف تعارض أدلة الشريعة - حسب رأيه - فليرجعها كلها إلى مرتبتين: عزيمة ورخصة، يرتفع عنده التعارض والخلاف، لأنها لا تخرج عن هاتين المرتبتين⁽²¹⁾.

وفي النهاية يستنتج الشعراني، على لسان الشيخ ماء العينين، « أن مجموع المذاهب هي بعينها الشريعة، ومن لم يدخل لفهم الشريعة من هذا الباب نقص علمه بها، وفاته خير كثير »⁽²²⁾.

ولا تنحصر وحدوية الفقه المعيني في هذا الجانب النظري من كتاب « دليل الرفاق »، ولكنها تميز سائر الأعمال الفقهية المعينية التي تنظم علاقة الانسان بربه، وعلاقته بأخيه الانسان. فجل الأحكام الفقهية التي تنظم علاقة الانسان بربه، من صلاة وصوم وحج وزكاة، ترمي في مجملها إلى خلق مجتمع سليم يتساوى فيه المؤمنون، وتتكافأ فيه قناعاتهم الاعتقادية.

فالطهارة بالنسبة للشيخ ماء العينين ليست مجرد نظافة حسية، ولكنها نظافة معنوية أيضا⁽²³⁾، والصلاة ليست مجرد سجود وركوع، ولكنها تؤدي دورا كبيرا في تطهير الفرد المسلم والسمو به عن الشرور والآثام، والارتفاع به إلى مستوى عال من الصفاء.

ومعظم الأعمال الفقهية التي تتناول علاقة الانسان بأخيه الانسان تؤكد على ضرورة التكافل والتعاون بين أعضاء الجماعة الاسلامية. ففي كتاب « جامع المهم من أسرار النكاح الملتئم »، يستعرض الشيخ ماء العينين أصناف النساء، وما يلائم كل صنف

منها من الرجال، فيكشف عن بعض الأسرار الخفية التي تؤدي إلى سعادة أو تعاسة الحياة الاجتماعية في بعض الأسر(24). وفي الجواب المسمى «مزيل العتب عمن طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب» يحتكم إلى القاعدة الفقهية المشهورة «درء المفسد مقدم على جلب المنافع» فيقرر استنادا إلى هذه القاعدة أن «من كان لها تعيير في قول أو فعل بين أمثالها، يجعل لها التطليق لنفسها، ولا كلام لزوجها ولا لوليها فيه...»(25) وفي كتابه «مزيله النكد عمن لا يحب الحسد» يذم كل المفسد التي تخرب العلاقات الاجتماعية وتعرض المجتمعات إلى التفكك والدمار، ويشيد بالفضائل التي تخدم الوحدة وتشيد بنيانها كالتواضع وفعل الخير وحب الناس وغيرها من أعمال الخير التي تعمق الروابط الاجتماعية وتقوي التماسك بين أفراد المجتمع(26).

الجانب الثاني : ويتمثل في المواقف السياسية التي اتخذها الشيخ ماء العينين من بعض القضايا الوطنية والإسلامية. وخاصة قضية سيادة المغرب في أراضيه الصحراوية، فلم تكن الحركة المعينية حركة انعزالية تقام فيها الطقوس، وتوزع فيها الأوراد والأذكار على الفقراء والمريدين وتجتمع فيها القبائل حول الموائد لدفن همومها وتناسي خلافاتها الإقليمية، ولكنها كانت حركة سياسية ذات مشروع متكامل، يبدأ في الدين، وينتهي بالسياسة. وهي بهذا القانون الذي يحكم صيرورة مشروعها، لا تخرج عن القانون العام الذي يضبط تطور الزوايا التي سبققتها. فجل الحركات الدينية التي برزت في تاريخ المغرب قبلها، اتبعت هذا المسار في تطورها، «زاوية، فقيام اتحاد وتحالف قبائل، فتأسيس نواة للسلطة»(27).

فعبد الله بن ياسين بدأ في رباط منعزل، وتبلورت حركته في بناء حاضرة مراكش، والمهدي بن تومرت بدأ بمحاربة البدع وتكسير آلات الموسيقى، وانتهى إلى استلام السلطة السياسية من أيدي المرابطين. وأبو بكر الدلائي بدأ بنشر الطريقة الشاذلية، وانتهى حفيده إلى تأسيس مدينة الدلاء. غير أن خصوصيات المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها الحركة المعينية، ومميزات شخصية مؤسسها البارزة، جعلها تختلف عن غيرها من الزوايا التي سبقتها أو عاصرتها. فحضور السلطة المركزية في مجموع الأقاليم المغربية. وغيرتها الدينية والوطنية، جعلت الشيخ ماء العينين يضع يده في يدها، ويتعاون معها على تنفيذ مشروعها الوطني. فكان بذلك خليفة السلاطين العلويين في المنطقة الخلفية من الجنوب المغربي، ووكيلهم في السهر على ترتيب شؤونها، يمثلهم لدى سكانها وينقل أوامرهم وقراراتهم إلى قبائلها⁽²⁸⁾.

ومن أبرز مظاهر وحدوية الحركة المعينية في هذا الجانب مايلي:

أولا : ارتباط الشيخ ماء العينين بملوك المغرب ووفائه لما في عنقه لهم من التزامات وعهود. فقد ظل طيلة نصف قرن يتردد عليهم لتجديد البيعة والتشاور معهم في مختلف القضايا التي تهم الوطن. «فوفد على مولاي عبد الرحمان سنة 1274 هـ/1857 م. في طريقه إلى الحج، فمولاي محمد بن عبد الرحمن، فمولاي الحسن، فمولاي عبد الحفيظ أخيرا. فكان يصدر عن تجلة عظيمة وإكرام لا نهاية له، خصوصا في الدولة العزيرية أيام الوزير أحمد بن موسى، فكانت الدولة تهتز متى ورد على المغرب»⁽²⁹⁾.

وقد بلغت زياراته لهم أربع عشرة زيارة منها: ثمان زيارات تمت في مراكش وزيارتان في مكناس وثلاث زيارات في فاس.

ومن الصور الحية التي ينقلها الشيخ مربيه ربه عن هذه الزيارات قوله في أول زيارته لفاس سنة 1320 هـ 1902 م: «ثم وفد على السلطان مولاي عبد العزيز عام عشرين بفاس، ولم ير شيخنا رضي الله عنه فاسا قبل ذلك، وكان يوم دخوله يوما مشهودا على العادة مما يفعل السلطان من إخراج العساكر والطبول والبنود وآلات الأفراح ووجوه الدولة وأبهة الملك، فكان اجتماعا ضخما واحتفالا شيقا، حتى أنه خرج من العلماء والصلحاء والشرفاء وأرباب المناصب والتجار وعامة الناس وخاصتهم. مالم يخرج من عاصمة فاس قبل ذلك اليوم، والمدة التي لبثنا ثمة قلما فات يوم منها إلا وإذا بطائفة تريد الزيارة من شيخنا (ض) ما بين شاعر يمدحه لله، أو ملتمس بركته، أو طالب وردا أو مصصح لحكم، أو مبتغي إجازة، أو ميمم حاجة كشفاة، أو حامل هدية، إلى غير ذلك من جميع المسالك...»⁽³⁰⁾.

وتزخر الخزانة المغربية بوثائق مهمة تؤكد هذا الجانب في الحركة المعينية، نكتفي منها بإيراد ثلاث وثائق رسمية منها:

1 - ظهير حسني يرتب بمقتضاه السلطان مولاي الحسن راتبا شهريا للشيخ ماء العينين بتاريخ 5 شعبان 1304 هـ موافق 29 أبريل 1887 م⁽³¹⁾.

2 - رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى الشيخ ماء العينين يخبره فيها بتتبعه لتطور الأحداث السياسية والدينية والثقافية في الصحراء المغربية⁽³²⁾.

3 - رسالة من الشيخ ماء العينين إلى الوزير أحمد بن موسى يطلعه فيها بتأهب الفرنسيين لغزو المنطقة الجنوبية، ومساوماتهم

له للدخول تحت طاعتهم. ورفضه لهذه المساومات، وتأكيده ولاءه وطاعته للملوك العلويين⁽³³⁾.

فإذا كان البحث التاريخي المعاصريعتد بالوثيقة، ولا شيء عنده غير الوثيقة، وما عدا الوثيقة بالنسبة إليه فهو إنشاء، فإن هذه الوثائق الثلاث وغيرها كثير، تعبر بوضوح عن ولاء الشيخ ماء العينين للملوك العلويين، واعتماد هؤلاء الملوك عليه في تبليغ رسالتهم الثقافية والدينية والسياسية إلى رعاياهم من الأقاليم الصحراوية⁽³⁴⁾.

ثانيا : تنظيم التجمعات الوحدوية داخل الصحراء وخارجها لمواجهة التحديات الأجنبية التي تهدد وحدة المغرب الترابية. فقد قاد عدة تجمعات في مراكش وفاس والصحراء لإيقاف المد الاستعماري في الجنوب المغربي، منها تجمع السمارة سنة 1906 الذي حضره وفد من الحكومة المغربية يتألف من عم السلطان وخليفته في الصحراء مولاي ادريس ووزيره سيدي المدني وكاتبه الغرفي ومحمد بن يعيش، وفي هذا التجمع أشرف على تسليم ظهائر التسمية لأربعة عشر قائدا من قواد الصحراء⁽³⁵⁾. و500 بندقية. وبعد هذا التجمع بسنتين ترأس تجمعا وحدويا آخر في السمارة أيضا للنظر في استفحال أمر النصاري بالصحراء بعد عودة عم السلطان واستيلاء فرنسا على تگانت. وقد حضر هذا التجمع عدد من أعيان القبائل الصحراوية وعلمائها، منهم أحمد بن سيدي وسيدي أحمد بن هيب من أرض شمام، وسيدي المختار بن الشيخ القاضي من قبيلة إجيغب، وسيدي بن فال بن محمد لحبيب وأخوه ابن الديد من أرض القبلة والشيخ سيدي بن الشيخ أحمد بن سليمان من قبيلة أبناء ديمان وغيرهم من الشيوخ والعلماء⁽³⁶⁾.

ومنها أيضا تجمع مراکش سنة 1327 هـ/1907 الذي حضره أهل الحل والعقد في الصحراء لتجديد البيعة للسلطان مولاي عبد الحفيظ وطلب المزيد من العدة لرد المستعمر عن البلاد⁽³⁷⁾. وفي هذا التجمع أقيمت مجموعة من القصائد الشعرية في مدح السلطان مولاي عبد الحفيظ والشيخ ماء العينين والاشادة بطموحاتهما الوجدوية من أبرزها قصيدة الأمين ابن محمد المختار بن اليدال الديماني التي يقول في مطلعها:

ألا فإلى م اللهو أنت غالط عن النهج من صوب الهدى أم مغالط
وبعد هذه المقدمة التي يصف فيها أحوال الصحراء وتكالب المستعمر على أبنائها، وبعد الاشادة بالسلطان مولاي عبد الحفيظ والشيخ ماء العينين ينتقل إلى استعراض أسماء القبائل الصحراوية التي حضرت هذا التجمع :

فدا لأمير المومنين نفوسنا أعالي الذرى أتوك من كل أمة وماليط بالسبطين من علوية وكالوفد منال الأشبح وناقص ومن آل عبد الله محمود والذي وللجكني الوفد من خير فتية وحاها صاهاها ومسومها	وأموالنا أولادنا والأسباط قبائل مالهن أخالط ومن آل بوحسين ركبنا أراهط وأبناء شمس الدين حيث المراسط من أحمد من دامن في العقد واسط ومنا بني يمان في الركب فارط ولثونها أغلالها والزوافط
.....
تدارك بهم ما من عليهم سلبنه وأرسل مجموعات الجيوش وراهم	خيول الاعادي والسنون القوامط مرابط خيل بعدهن مرابط ⁽³⁸⁾

ثالثا: تنظيم المقاومة المسلحة للدفاع عن وحدة المغرب الترابية.
بعد نجاح الشيخ ماء العينين في تكوين قاعدة اجتماعية صلبة داخل الصحراء، انتقل إلى تنفيذ الجزء الأهم من مشروعه السياسي الوجدوي، فقاد مجموعة من العمليات العسكرية للقضاء على الوجود الأجنبي في الجنوب المغربي، منها:

1 - الهجوم على حصن ما كنزي بطرفاية للقضاء على الوجود الانجليزي في المنطقة، فقد شدد ضرباته على هذا الحصن مباشرة بعد إنشائه بسنتين، فتمكن بفضل حماس أتباعه ومريديه، ودعم السلطان مولاي الحسن من تخريبه وإرغام الانجليز على التخلي عنه للحكومة المغربية سنة 1895، مقابل تعويض مادي عما صرفته شركة الشمال الغربي الافريقي من أموال في بنائه⁽³⁹⁾.

2 - الهجوم على الداخلة ابتداء من سنة 1884، وتخریب ما أقامه الاسبان من منشآت على شاطئ هذه المدينة. وقد أُلّف في هذا الموضوع كتابه «هداية من حارا في أمر النصارى» في الرد على ولد عايدة الذي طالبه الشيخ ماء العينين. برد ماغنمه مريدوه في هذا الهجوم بحكم ماله من علاقات مع الاسبان⁽⁴⁰⁾.

3 - الهجوم على القوات الفرنسية في شنقيط وانتصاره عليها في عدد من المواقع مثل تجحكة ودامان والمينان وتكانت وغيرها من المعارك التي أقلقّت الأجهزة الاستعمارية وأظهرت كفاءة المجاهدين المغاربة في الصحراء.

رابعا : الاشادة بالوحدة الإسلامية، لم يكن الشيخ ماء العينين يصدر في حركته الوحدوية عن نزعة إقليمية ضيقة، ولكنه كان يرمي إلى تحقيق غاية أبعد، ومشروع أوسع يشمل الوطن برمته والأمة الإسلامية بكاملها، ويظهر ذلك من خلال تنويهه بالخلفاء العثمانيين وإشادته بفضلهم على المسلمين، فهم في رأيه « زبدة الملوك، ودولتهم زبدة الدول، حيث لا دولة بعدها لغيرهم إلى ظهور المهدي وعيسى، ويقاثلون من هم مبادي الرجال والكفرة الفجرة، من الافرنج والانكروس وغيرهم، ولهم الجمعية الكبرى واليد

الطولى والدولة العظمى في الأقاليم السبعة وأطراف البلاد في المغرب والمشرق، ولم يعط هذا لواحد قبل دولتهم...»⁽⁴¹⁾.

فليس هذا التنويه شعورا فرديا نابعا من إعجاب شخصي بهؤلاء الملوك، ولكنه يرتبط بالأسس الوجدانية الشاملة للحركة المعينية وبالمشروع الوطني الذي وضعه ملوك الدولة العلوية لمواجهة الخطر الأجنبي، ومع القرارات السياسية التي اتخذتها الحكومة المغربية للدفاع عن سيادة المغرب وحماية حوزته القرابية. «ففي سنة 1880، وبعد مؤتمر مدريد، بعث السلطان مولاي الحسن الأول سفيراً له إلى اسطنبول، وفي سنة 1886، تلقى اقتراحاً من وزير الخارجية العثماني محمد سيد باشا بفتح سفارة تركية بطنجة»⁽⁴²⁾.

وقد خلفت الجوانب الوجدانية في هذه الحركة أصداً طيبة في نفوس المغاربة، فعبروا عن إعجابهم بها ومباركتهم لها بأشكال مختلفة منها:

1- الإشادة بالشيخ ماء العينين والتنويه بخصاله الحميدة وأعماله الجليلة. فقد استقطب هذا الشيخ بمواقفه الوجدانية اهتمام كثير من العلماء والأدباء في المشرق والمغرب، فخلدوا مآثره في قصائدهم وأشادوا بمنجزاته في دواوينهم وأشعارهم، فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأمداح، حتى صار ذكره جارياً على كل لسان، وصيته مستوطناً في كل مكان حسب تعبير ماء العينين بن الطالب إبراهيم :

فكانه من صيته متوطن من سائر الأقطار كل مكان⁽⁴³⁾

فمدحه إخوته وأبناؤه ومريدوه من مختلف القبائل الصحراوية، وتغنى بأمجاده ملوك الدولة العلوية، ونشر محاسنه شعراء سائر الأقاليم المغربية، وتردد صدى منجزاته في قصائد كثير من الشعراء المشاركة.

وقد حاول بعض مريديه أن يحصروا هذه الأمداح، فأقروا بالعجز عن حصرها واستقصائها، ومع ذلك فقد جمعوا منها دواوين كثيرة منها «ديوان الأبحر المعينية في الأمداح المعينية» للشيخ النعمة في مجلدين يحتويان على أشعار مختلفة لخمس مائة وعشرين شاعرا، وديوان في مدح الشيخ ماء العينين أيضا لمؤلف مجهول⁽⁴⁴⁾، يضم قصائد متنوعة لواحد وثمانين شاعرا، وديوان في نفس الموضوع يتوسط كتاب «سحر البيان في شمائل شيخنا الشيخ ماء العينين الحسان» لابن العتيق، يحتوي على قصائد مطولة لواحد وأربعين شاعرا. إلى غير ذلك من الأمداح التي تتضمنها بعض المؤلفات المحجورة كـ «مجمع البحرين في كرامات شيخنا الشيخ ماء العينين» للشيخ محمد العاقب بن مايابا، وقرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين للشيخ مربيه ربه و«كبور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية» وغيرها من المؤلفات التي اهتم أصحابها بجمع الأمداح المعينية⁽⁴⁵⁾.

وقد أكد جل الذين مدحوا الشيخ ماء العينين على الجانب الوجداني في حركته، فهو أمل الوحدة الإسلامية وضيائها كما يصفه السلطان مولاي عبد الحفيظ في قصيدته الترحيبية خلال زيارته له سنة 1325 هـ/1907 بمراكش :

أيا قـمـر الدهـر الـذي تـم نـوره
أضـاءت بـك الأـرجاء حـتى تـلـالـات
وزاد سرورا في الخليفة وافرا
فأهلا وسهلا مرحبا تم مرحبا
يؤمل جمع المسلمين قدومكم
أنا لك رب العرش كل فضيلة
ويا كعبـة يحـجها كل مـقتـدي
وأضحت تهني في الوري كل مقتدي
طلوع محياكم بهالة مقعد
بطالع سعد في الخلائق مسعد
كما لا لبشراهم بوفر مسدد
واقعدك الرحمان في أي مقعد⁽⁴⁶⁾

وفاس تهتز لحلوله بها، وإشراق شمسه على أهلها، يقول عبد
الواحد الفاسي في قصيدته التي يرحب به فيها خلال قدومه على
السلطان مولاي عبد العزيز سنة 1324 هـ/1906:

أهذا بـروز البـدر فـي المـحـفل الأغر
أم المسك قد فاحت عواطر نشره
أم الجواهر المكنون قد فاض بحره
ففاس قد تاهت بيمن قدومه
لذاك أمير المومنين بك اعتنى
ينادي أهل من مبصر طلعة القمر
وهب شذى الأزهار من دوحة الخضر
بفاس متى حلّ الهمام انبهر
إذا المسك منها فاح والعنبر والزهر
وأعلم بالإجلال في البدو والحضر⁽⁴⁷⁾

2 - طبع معظم أعماله العلمية والأدبية وتقرئها بما تستحقه
من إكبار وإجلال. فقد تولى ملوك الدولة العلوية طبع عدد كبير
من أعماله في مطابع فاس التاريخية، واهتموا بقراءتها وتزويد
خزاناتهم بها، كما قرظها معظم علماء المغرب وأدبائه نظما ونثرا،
منهم السلطان مولاي عبد الحفيظ وعبد الرحمان بن جعفر الكتاني،
وسيدي أحمد بن صابر البوعزاوي وسيدي ابراهيم بن سيدي
محمد الجدميوي، ومحمد بن الطالب بن عثمان بن سودة المري
وأحمد بن عبد المولى اليملاحي، وعبد السلام بن سيدي علال
الفهري الفاسي وعبد الله القباچ وغيرهم⁽⁴⁸⁾.

3- طلب الاجازات العلمية والفوائد النورانية والفتاوي الفقهية،
وإعطاؤها لعدد كبير من العلماء ورجال الدولة المغربية، منها
إجازة الشيخ ماء العينين للسلطان مولاي عبد الحفيظ⁽⁴⁹⁾، وإجازته

لباشا سلا الحاج محمد بن الطيب الصبيحي⁽⁵⁰⁾، وفوائده للوزير أحمد بن موسى وفوائده للحاج ابن يعيش⁽⁵¹⁾، وأجوبة مريده الشيخ أحمد الشمس مقدم زاويته بفاس لبعض علماء هذه المدينة مثل محمد بن عبد الواحد الإدريسي العالم الصوفي بزاوية زرهون، والفقيه سيدي المهدي الوزاني في مسألة تعجيل المعينين لصلاة العشاء قبل الوقت بالمعهود لها عند الكافة، وتعجيلهم لصلاة الجمعة، وغيرها من القضايا الفقهية التي أودعها كتابه «النفحة الأحمدية»⁽⁵²⁾.

4 - رحلة عدد كبير من أبناء الأقاليم الشمالية إلى الصحراء لأغراض علمية وسياسية. فبعد استقرار الشيخ ماء العينين بالساقية الحمراء، شد عدد كبير من المغاربة في الشمال الرحال إلى مدرسته للتزود من علمي الظاهر والباطن، منهم الضوء السباعي البقاري المتوفى سنة 1326 هـ وابن عمه الدرباكي الذي سافر إلى تيرس ومكث بها ما يزيد على شهرين ورجع إلى أهله في بلاد الحوز، والقاضي سيدي التهامي المكناسي الذي حمل إلى الشيخ عددا من هدايا أحبته في الحوز منها كتاب المكودي بخط يده، وابن عمه سيدي أحمد بن بوفريو السباعي البقاري، وسيدي محمد بن عبد الله المشهور بابن عب، وسيدي محمد الضوء بن عبد الكريم المومني، وعلال الحمري الذي قدم عليه من بلاد أحمر وأهدى له ما يملكه من غنم وغيرهم من المريدين الذين سالت أباطح الصحراء بأعناق مطيهم لرؤية الشيخ ماء العينين والتزود بعلمه⁽⁵³⁾.

ومن أبرز الرحلات الوحدوية التي قام بها أبناء الأقاليم الشمالية إلى مضارب الشيخ ماء العينين بالصحراء تلكم الرحلة

التي قامت بها البعثة المغربية التي توجهت إلى طرفاية لاستلامها من الانجليز في 3 من يوليوز 1895 / 10 محرم 1313 هـ. « فخلال مقام هذه البعثة بطرفاية وجه إليها الشيخ ماء العينين ابنه محمد سيداتي وصهره الأمجد وحفيده المحفوظ يبلغها تهنئة قبيلته وأتباع طريقته بالنجاح الذي كللت به مساعي أبيه من قبله وما سعى إليه السلطان مولاي عبد العزيز، واغتتم الوفد الفرصة، فوجه الدعوة إلى البعثة السلطانية للوصول إلى الشيخ ماء العينين وزيارته في قلب الصحراء، فسافرت البعثة على ظهور الرواحل وسارت حتى بلغت مضارب خيامه بذي النبط من الساقية الحمراء يوم الجمعة 26 يوليوز 1895 / 3 صفر 1313، وحضروا يوما صلاة العصر معه، فلما فرغوا منها قام الشاعر ابراهيم بن محمد البواري من تلاميذ الشيخ فأنشد حول زرب المسجد مرحبا بهم:

أهلا بهم من خمسة أعلام	بل خمسة كقواعد الاسلام
رسل الأمير ابن الأمير إمامنا	عبد العزيز بن العزيز الامام
من خصه المولى بأعلا رتبة	تلك الخلافة رحمة الانام
لازال مخصصا بكل فضيلة	اذ خصنا بأئمة الاقوام
ولانتم من عند شيخ فاضل	ماء العيون المصطفى بمقام

وبعدما أقاموا ضيوفا في مضارب الشيخ ماء العينين مدة أسبوعين عادوا إلى طرفاية يوم 17 صفر على غير الطريق الذي أتوا منه⁽⁵⁴⁾، هذه بعض المظاهر الوجدانية في حركة الشيخ ماء العينين، حاولنا استعراضها باختصار شديد، لأن المقام لا يسمح باستقصائها وحصر مختلف جوانبها، وذلك لغناها وتعددتها وامتدادها في الزمان والمكان.

وحسبنا إثارة الانتباه إليها وكشف الحجاب عنها، لتأخذ حجمها الحقيقي وتوظف في خدمة قضيتنا الوطنية إلى جانب ما يحفل به ملف هذه القضية من ظواهر ورسائل وتقارير، وإن كان هذا التنبيه وحده غير كاف لتحقيق ما نأمله من انتصارات، لأن المعركة الثقافية لا يمكن أن تتوج بالنجاح اعتماداً على الآمال وحدها، بل لابد من توفر الأدوات اللازمة لهذه المعركة لمواجهة الخصوم ودحض أكاذيبهم ومغالطاتهم من رسائل وأعمال أدبية وعلمية ودراسات حول ثقافة الصحراء وأدبائها، مثل أعمال استاذنا الدكتور عباس الجراري الرائدة في هذا المجال، وغيرها من الأعمال التي يمكن أن تعزز قضيتنا الوطنية وتقف في صف واحد مع جنودنا البواسل الذين يواجهون العدو بإيمان قوي وعزم راسخ.

الحمد لله وحده

وَصَلَّى اللّٰهُ عَلٰى سَائِرِ الْمُرُوءَاتِ

نَعَزِيَّا بِجَوْلَانَةِ وَقُوَّتِهِ وَدَامِلِ شَنْدِ وَمَنْتِهِ لِلحَيْجَةِ الْبَيْلِ الْغَيْرِ الْبَرْكَةِ
مَا الْعَيْنِ رَحْمَةً بِحَيْكَةِ مَسْتَنْشِدِ رِيَالِ الْبَدِ الْعَيْنِ رَعَانَةِ لَهُ أَيْمَانُ وَبَصَرُهُ
مَرِيَّةَ الْعِلْمِ الْبَرْكَةِ وَنَشْرُكُمْ بِضَامٍ خَلَا قَضَا أَمَانٍ مَرِيَّةَ الْبَصَرِ الْخُرُوسَةِ
بِاللَّهِ أَيْ دَكُونِ وَأَبْرَحُو وَمَا التَّاجِبِ مَسْتَنْشِدِ كُلِّكُمْ وَالْمَشْلُوعِ بِرِيَّةَ سَعْيَانِ
عام 304

۴
سیر بیرون

~~SECRET~~

حسنہ لکھو اور مستحق

عنود را مرگم به من

1-2-3-4

بلکہ ادب آموزگار

مرکز ملی ونگارخانه ریاست

الوثيقة رقم 1

ظهیر حسنی یرتب به السلطان مولای الحسن الأول أجرة شهرية للشيخ ماء العینین 5 شعبان 1314 هـ / 29 أبريل 1887 م.

أنظر : - الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 82.
محمد الظريف. رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب، الرباط

الحمد لله

محبتنا الارض المزايا الخيرة ابرياء العيون
 مودة كرامة ومكان عليك ورعت الله تعالى
 وبركاته وبعدها حل كذا بك بدو انصراة
 التي بدلكم بلية كتبت لك بمدة كذا به
 التي كتبت مع النسخة من اربعة باسم
 وانشرت بيدك يدك على عيني محبتك مع
 وبل بخار الانعام عليك بزاوية بمراسي
 وببردية ماء اعلانية عليك وعلمنا ما ذكر
 مرانك البت تلبيط به ابرياء التي كتبت
 ووجهت لنا نسخة منه وطرد رسا بال
 املا ما ايت به انصراة عملك كذا ري بهو
 ما ينبغي ان يجلب به عذرنا وانا
 ما يكون عليه عملك مع بتر المزايا
 بل كذا به وكرم المزايا على ما يظن
 واما الزاوية بفرامنا على ما مر
 بتتميز بصفة لك جعلها به كذا امرنا
 اخلنا مولاى عملا وراى صيب امرنا
 ما ينبغي والى كذا حث اربعة ازواج
 بد كذا مع ما يكتفى من المزايا
 ما مية تمزكت وراى ما انقضاء

واما النسخة من
 التي كتبت
 بفرامنا
 وانتم

علمنا ما ذكر
 (م)

الوثيقة رقم 2 :

رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى الشيخ ماء العينين، 12 شعبان 1306 هـ - 1889 م.
 أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 83.

[illegible]

الوثيقة رقم 4

إجازة الشيخ ماء العينين للسلطان مولاي عبد الحفيظ. 11 جمادى الأولى عام 1322 هـ / 1904 م.
أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين. ص 120. محمد الظريف، رسالة جامعية لنيل
دبلوم الدراسات العليا. إشراف الدكتور عباس الجراري 1986. مرقونة بخزانة كلية الآداب، الرباط.

[illegible]

الوثيقة رقم 5

إجازة الشيخ ماء العينين للباشا محمد الصبيحي، جمادى الأولى - عام 1324 هـ / 1905 م.
الخزانة الصبيحية، سلا.

أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص : 122.

وبلى الله وجهه وسيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا ينجب فلا يهمل به وإفلاحة ولا يخلد على صراط الحق ولا يستر في غم وعلم له في آياته أما بعد فإني
 كاتبة لغير الخبير في هذا العلم الذي لا يهمل به ولا يستر في غم وعلم له في آياته أما بعد فإني
 رضاء أن أعلم ومن هو الذي لا يهمل به ولا يستر في غم وعلم له في آياته أما بعد فإني
 العيني في كل ما يجوز له وفيه إلهام إلهي في رايته وتعب إليه دلهج له في رايته في معقود ومنقود ودرج
 راقون وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير وتفسير
 كما في كتابه في هذا العلم الذي لا يهمل به ولا يستر في غم وعلم له في آياته أما بعد فإني
 وأما في كتابه في هذا العلم الذي لا يهمل به ولا يستر في غم وعلم له في آياته أما بعد فإني
 والله أعلم

الوثيقة رقم 6

إستجازة الصبيحي للشيخ ماء العينين 16 جمادى الأولى - عام 1324 هـ / 1905 .
 الخزانة الصبيحية، سلا.

أنظر : الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص : 121.

الهوامش :

- (1) الفكر والوحدة. الدكتور عباس الجراري، ص 146.
- (2) وحدة المغرب المذهبية، ص 31. الدكتور عباس الجراري.
- (3) الطريقة الفاضلية. بول مارتني. مجلة العالم الاسلامي، ص 143، 1915.
- (4) ماء العينين القلقي. برادفور مجلة الأفارقة ص 180، 1977.
- (5) ماء العينين القلقي، برادفور، الأفارقة، ص 187، 1977.
- (6) ثقافة الصحراء، الدكتور عباس الجراري، ص 61.
- (7) منيل المثارب على الحمد من كفاء الواجب الشيخ ماء العينين ص 82.
- (8) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص 204.
- (9) الايضاح لبعض الاصطلاح، الشيخ ماء العينين، ص 7.
- (10) ينسب هذا القول إلى الامام مالك كما جاء في كتاب النفحة الأحمدية للشيخ أحمد الشمس مريد الشيخ ماء العينين ص 138.
- (11) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 204.
- (12) نعت البدايات، الشيخ ماء العينين، ص 11.
- (13) مفيد الراوي، ص 3.
- (14) مفيد الراوي على أني مخاوي، الشيخ ماء العينين، ص 7.
- (15) نفس المصدر السابق، ص 7.
- (16) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 224.
- (17) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 65.
- (18) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين من ص 287 إلى 291.
- (19) دليل الرفاق على شمس الاتفاق، الشيخ ماء العينين، ص 3.
- (20) دليل الرفاق على شمس الاتفاق. الشيخ ماء العينين، ص 3.
- (21) نفس المصدر السابق، ص 2-3.
- (22) نفسه، ص 5.
- (23) نفسه، ص 48. ج 1.
- (24) جامع المهم من أسرار النكاح الملتئم، الشيخ ماء العينين، ورقة 132. ب خع الرباط. مخطوط د 1597.
- (25) مزيل العتب عن من طلقت نفسها أو طلقها أهلها بالسب. الشيخ ماء العينين، ورقة 131، مخطوط مجموع.
- (26) الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، ص 304.
- (27) الصحراء الغربية أو عقدة التجزئة في المغرب العربي، على الشامي، ص 103.

- (28) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 80.
- (29) المعسول، المختار السوسي، ص 84. ج 4.
- (30) قرة العينين في كرامات الشيخ ماء العينين، الشيخ مربيه ربه، ورقة 101، مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط.
- (31) وثيقة رقم 1.
- (32) وثيقة رقم 2.
- (33) وثيقة رقم 3.
- (34) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، محمد الظريف، ص 82.
- (35) الجاش الربيط، الشيخ محمد الإمام، ص 23. كان تاريخ هذا التجمع في 7 ربيع الثاني 1323 هـ الموافق 11 يونيو 1906.
- (36) الجاش الربيط، الشيخ محمد الإمام، ص 24.
- (37) نفسه، ص 36.
- (38) الأبحر المعينية في الأمداح، المعينية 150 أ.
- (39) حفريات صحراوية. عبد الوهاب بنمنصور، ص 8.
- (40) هداية من حارا في أمر النصاري، الشيخ ماء العينين، نسخة مخطوطة خع الرباط.
- (41) مبصر المتشوف على منتخب التصوف، الشيخ ماء العينين ج II، ص 176.
- (42) ماء العينين القلقي، برادفور الافارقة، ص 176. 1967، مجلد 12. أقيم هذا المؤتمر للنظر في مسألة داء الحماية القنصلية بالمغرب وتقرر فيه سيادة السلطان على وحدة بلاده.
- (43) الأبحر المعينية، الشيخ النعمة ج I، ورقة 4.
- (44) الخزانة العامة، قسم المخطوطات، د 1609.
- (45) الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 401.
- (46) الأبحر المعينية ورقة 195، ج I.
- (47) نفسه. ورقة 146، ج I.
- (48) يمكن الرجوع في هذا الكتاب إلى التقارير المطبوعة في ذيل مؤلفات الشيخ ماء العينين وكذا الأبحر المعينية.
- (49) وثيقة رقم 4.
- (50) وثيقة رقم 5.
- (51) توجد هذه الفوائد في مجموع مخطوط بالخزانة العامة د 1597، ورقة 115 ب الرباط.
- (52) الحياة الأدبية في الزاوية المعينية، ص 295.
- (53) النفحة الأحمدية، الشيخ أحمد الشمس، ص 118، سحر البيان. ابن العتيق، ورقة 161.

الطباعة الحجرية بالمغرب وإشعاع الثقافة الصحراوية للشيخ ماء العينين

خالد بن الصغير(*)

تقدم الباحث فوزي عبد الرزاق العراقي الأصل ، الأمريكي الجنسية، بمناقشة أطروحة نال بها دكتوراه الدولة من جامعة هارفارد الأمريكية سنة 1990 ، في موضوع تحت عنوان :

The kingdom of the book: the history of printing as an agency of change in morocco between 1865 and 1912. Ph. D, 1990, boston university.

ونظرا لأهمية هذه الأطروحة الواقعة في حوالي أربعمائة صفحة، التي انفرد فيها صاحبها بتغطية شاملة وعميقة لموضوع على مستوى عال من الأهمية ، هو تاريخ الطباعة في المغرب ، قمت بترجمتها إلى العربية ، وهي الآن تحت الطبع ، وستصدر قريبا ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، في سلسلة نصوص وأعمال مترجمة تحت العنوان التالي :

مملكة الكتاب : تاريخ الطباعة في المغرب (1865 – 1912)

وقد خصص صاحب الكتاب حيزا هاما من فصله السابع بعنوان: « العلماء والطباعة »، لدراسة قضايا عديدة ، كانت من بينها علاقة الشيخ ماء العينين - كنموذج بارز للمثقف والعالم الصحراوي - بالمطبعة الحجرية التي كان المخزن قد تولى في بداية الأمر مباشرة

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، التقدم، الرباط.

تسيير شؤونها في فاس قبل أن تنتقل إلى أيادي الخواص . وقد ارتأينا اقتطاف هذا القسم الهام من الكتاب المشار إليه أعلاه ، وتقديمه إلى قراء المناهل في إطار عددها المخصص بكامله لملف الثقافة الصحراوية المغربية .

كانت التحولات التي أحدثتها الطباعة في حياة العلماء الذين كانوا أيضا يمارسون التأليف بمعناه الواسع ذات أهمية كبرى . ولنا في حياة ماء العينين (الذي توفي سنة 1910)⁽¹⁾ ونشاطاته المتعددة خير نموذج يمكننا من إعطاء صورة حقيقية عن مثل تلك التحولات .

الإسم الكامل لماء العينين هو: محمد مصطفى ابن محمد فاضل ابن مامين القلقمي، كانت ولادته سنة 1830 في أقصى جنوب موريتانيا بمنطقة الحوض⁽²⁾. وهو الإبن الثاني عشر من بين إخوته الثمانية والأربعين . وكان والده محمد فاضل متصوفا بما في الكلمة من معنى ، وكانت له الريادة داخل الطريقة القادرية بحكم نسبه الشريف . ونتيجة اتساع عدد مريديه ، تسمت الطريقة التي كان يتبعها باسمه ، وأصبحت تعرف بالطريقة الفاضلية . وحصل الأمر نفسه مع ابنه ماء العينين الذي أصبحت طريقته تعرف بالمعينية⁽³⁾.

ويبدو أن من الأمور التي تميز بها ماء العينين عن إخوته العديدين انفراده بالتوجه إلى فاس بغية استكمال التكوين وتحقيق المزيد من التحصيل⁽⁴⁾ . لكن لا أحد يعرف - حتى الآن - متى حل ماء العينين بفاس ، ومن هم العلماء المغاربة الذين تتلمذ عليهم هناك . ثم إن المهتمين بدراسة حياة ماء العينين يفيدوننا

بأن الرجل قد التقى بالسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام (1822-1859) وخلفه من بعده سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859-1873)، وذلك أثناء زيارته التي قام بها إلى المشرق لأداء فريضة الحج⁽⁵⁾. وهنا أيضا ، لا أحد يعلم بصفة مؤكدة الأسباب التي جعلت ماء العينين يبذل الجهود للالتقاء بالسلطانين ، ولا الأسباب التي جعلتهما يستقبلانه في لقاءات خاصة على أرض المغرب .

لكن لو صحت هذه المعلومات لأمكننا الميل إلى الظن أن لقاءات من ذلك القبيل ، وطبيعة العلاقات القائمة بين السلطانين وماء العينين ، قد كانت مفيدة لكلا الطرفين . والسبب في ذلك أن ماء العينين - كما تشير إلى ذلك كتاباته - كان زعيما صاعدا يشق طريقه ، ولديه حاجة ماسة إلى السند المادي والمعنوي ، دعما للمكانة الاجتماعية والدينية التي ورثها عن والده .

ومن المحتمل جدا أن يكون السلطانان بصدد تهييء ماء العينين لضمان الدفاع عن الأطراف الجنوبية للبلاد ضد محاولات الأوربيين التوسعية. ويعتبر ذلك صحيحا عن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي خسر حرب تطوان ضد إسبانيا ، ووجد نفسه وقد ألزمته تلك الهزيمة بالتنازل لها عن محطة تجارية على السواحل الصحراوية⁽⁶⁾. وقد أدرك السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن القيمة العسكرية والسياسية لماء العينين ، بصفته مدافعا عن المغرب والإسلام في الصحراء . ولذلك فإنه قد عمل هو وكل السلاطين ورجال المخزن الذين أتوا من بعده على تذليل الصعاب وفتح الطريق أمام ماء العينين ليصبح أشهر رائد على المستوى الديني والفكري في البلاد .

أما الجانب الثاني الذي له دلالة خاصة لماء العينين في إطار علاقاته مع السلاطين المغاربة، فهو أنه قد نجح، إلى حدود سنة 1890، في إرساء قاعدة متينة لنفوذه، ويمكن نفسه من اكتساب شعبية كبيرة في الصحراء، دون أن يعتمد في تحقيق ذلك على تكنولوجيا الطباعة كعنصر مساعد⁽⁷⁾. ومن الأهمية بمكان معرفة الوسائل التي اعتمد عليها ماء العينين لإرساء نفوذه الديني في الصحراء، لأنه كفيل بتقديم فكرة واضحة عن الأسس التي اعتمدها حتى جعل حركته تحتل المكانة السامية في عقول أتباعه في الصحراء وقلوبهم، وفي الأوساط الدينية والسياسية داخل المغرب أيضا. كما أن معرفة تلك الوسائل ستمكننا أيضا من توضيح مدى قابلية الطباعة كأداة لنشر المعرفة وحفظها من الضياع.

يمكن الفحص الدقيق لكتابات ماء العينين وأنشطته المختلفة، من رصد بعض العوامل المساهمة في النجاح الذي حققه هذا الرائد الديني والفكري في الأوساط الصحراوية. ومن هذه العوامل علاقاته الاجتماعية وصلاته الأسرية. فقد حظي ماء العينين إلى جانب المكانة السامية التي كان والده يحتلها بصفته زعيما دينيا معترفا به على نطاق واسع، حظي بمساعدة إخوته السبعة والعشرين الذين بذلوا قصارى جهودهم لنشر نفوذه في ربوع الصحراء. ويعتقد أيضا أن ماء العينين اتخذ لنفسه أزيد من مائة زوجة⁽⁸⁾، وفقا للأسلوب الذي اتبعه النبي محمد عليه السلام. ويبدو أن الغاية من ذلك كانت توحيد القبائل الصحراوية العديدة، وجمع فصائلها المختلفة. وحسب النتائج التي توصل إليها الباحث محمد الظريف، بعد الدراسة التي أنجزها في موضوع المعينية بالمغرب، فإن عملية التوحيد تلك هي التي مكنت ماء

العينين من إخضاع القبائل الصحراوية لنفوذه ، والعمل بالتالي على كل ما من شأنه أن يصد الأوربيين عن الإقدام بأي مغامرة داخل المجال الصحراوي⁽⁹⁾. وبالفعل ، حينما حاول أحد شيوخ القبائل في منطقة أدرار الدخول في تسوية منفردة مع إسبانيا ، يسمح بموجبها للرعايا الإسبانيين بربط صلات تجارية مع المناطق الداخلية ، فإن ماء العينين لم يتردد في مهاجمة المحطة الإسبانية في منطقة أدرار⁽¹⁰⁾. كما وضع كتابا تحت عنوان : إرشاد الحيارى في أمر النصارى ، نصح فيه المسلمين بعدم وضع ثقتهم في المسيحيين ، بدعوى أنهم كلما تمكنوا من الدخول إلى بلد إسلامي سيطروا عليه وهيمنوا⁽¹¹⁾.

وكانت الأنشطة التعليمية والدينية هي العامل الثاني الذي ساهم في تمكين ماء العينين من تحقيق نجاحه في الصحراء . فقد استطاع ماء العينين - اعتمادا على ما حققه من نجاح في المضمار الاجتماعي ، وبفضل التعزيزات المادية التي لم يتوقف تدفقها من العاصمة مراكش⁽¹²⁾ (ربما في نهاية السبعينيات أو عند مطلع الثمانينيات من القرن التاسع) - استطاع أن يقيم لنفسه مركزا دائما في السمارة⁽¹³⁾. وأنشأ هنالك خزانة كتب كبيرة ، اكتفى بالاعتماد في تجهيزها على الإمكانيات المحلية فقط . إذ كدست قرابة أربعة آلاف كتاب داخل مجموعة صناديق ، وضعت جميعها في خيمة كبيرة ، وأسند مهمة تدبير شؤونها إلى إحدى زوجاته⁽¹⁴⁾. ونتيجة لاطلاعه الواسع على مختلف العلوم الإسلامية ، وامتلاكه مجموعة خاصة من أمهات الكتب ، أصبح ماء العينين قبلة لجموع الطلبة الذين بدأوا يحجون إليه قادمين من مختلف أرجاء الصحراء . وكان أولئك الطلبة يحصلون خلال مدة إقامتهم

بالسمارة على السكن والطعام ، بالإضافة إلى تحصيلهم العلم وتدرجهم في مختلف المستويات التعليمية . وعندما يستكملون تكوينهم يعينون مساعدين للشيخ ماء العينين ، فيوزعون على المناطق الصحراوية كمدرسين يساهمون في نشر المعرفة بين سكانها ، أو كجواسيس يجمعون المعلومات عن تحركات الأوربيين الساعية إلى استكشاف خبايا المناطق الداخلية⁽¹⁵⁾.

كان ماء العينين يقدم كل مستلزمات العيش من أكل وإيواء لأتباعه المقيمين معه في مخيمه بالسمارة ، والذين قدر عددهم بحوالي عشرة آلاف⁽¹⁶⁾ . يضاف إلى ذلك بعض الخدمات الدينية ، على شكل تمائم وتعاويذ مكتوبة لأجلهم ، حماية لهم من المرض والفقر ، وتمكينهم بالتالي من التمتع بالرخاء والطمأنينة⁽¹⁷⁾. وكان أتباع ماء العينين يرون في رائدهم قطبا حقيقيا ، ويعتقدون في قدراته الخارقة ، كمخاطبة الجن وكتابة الرسائل إلى أراض بعيدة لتأتيه منها القوافل محملة بالمؤونة والزاد . وكل هذه الأمور تعني شيئا واحدا في نظرنا ، ألا وهو أن ماء العينين لم يكن بالفعل في حاجة إلى استعمال تكنولوجيا الطباعة ، ولا إلى الكتب المطبوعة ، ليصبح أعلى سلطة حاكمة في الصحراء .

ولكن على الرغم من النجاح الذي حققه ماء العينين في ميدان التأليف ، إذ يعتقد أنه كتب أزيد من ثلاثمائة عنوان⁽¹⁸⁾ فإن شهرته وكتاباتاته ظلت حبيسة الأوساط والجماعات الصحراوية إلى حدود سنة 1891 ، حين بدأت مؤلفاته تعرف رواجاً في بقية أرجاء المغرب بفضل الطباعة . وكان على ماء العينين قضاء حوالي خمس وأربعين سنة في ممارسة أنشطته الدينية ، وتحرير المؤلفات

العلمية والتعليمية ، قبل أن تجد أعماله طريقها إلى فاس مركز الثقافة ، ومن ثم إلى بقية الحواضر المغربية . وفي الواقع ، لولا وجود الطباعة ، إلى جانب البيئة المناسبة التي ظهرت فيها تلك التكنولوجيا وقتئذ ، لما تمكنت كتابات ماء العينين من الوصول إلى الجمهور العريض من المغاربة ، وكان الضياع مصير غالبيتها العظمى⁽¹⁹⁾. إلا أن كل مؤلفاته المطبوعة حفوظ عليها ، واتضحت أهميتها من حيث هي مصادر لا غنى عنها في تتبع الملابس التي رافقت صعود نجمه وانتشار نفوذه ما بين 1891 و 1900 ، كزعيم ديني يحظى بشهرة واسعة ، وكواحد من كبار العلماء في المغرب .

حينما نفحص خواتم كتب ماء العينين المطبوعة فحفا دقيقا ومتأنيا ، نجد أن اسم أحمد بن موسى المعروف ببا احمد (والمتوفى سنة 1900) يرد فيها مرارا وتكرارا . ويستفاد منها أن هذا الشخص هو الذي أمر بطبعها ، وهو الذي تولى الإنفاق عليها في بادئ الأمر⁽²⁰⁾. ويمكننا البحث في العلاقة الموجودة بين ماء العينين وأحمد بن موسى ، من تسليط الأضواء على أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت ماء العينين والطباعة يكتسحان المغرب ، وينتشران بنجاح في مختلف أرجاء البلاد ، وذلك بدءا من سنة 1891 فما بعد .

كان أحمد بن موسى حاجبا للسلطان على عهد المولى الحسن (1873-1894) وإلى حدود سنة 1894 ، ثم أصبح صدرا أعظم في عهد السلطان المولى عبد العزيز (1894 - 1907) إلى حدود سنة 1900 تاريخ وفاته⁽²¹⁾. ومن القضايا المهمة بصدد شخصية بن موسى ،

أنه حين كان يشغل منصب الحاجب السلطاني ، تولدت بينه وبين الجامعي الذي كان وقتئذ صدرا أعظم ، وفي الوقت نفسه عما للسلطان المولى الحسن ، عداوة شديدة نشب صراع مرير بينهما على السلطة . وتعود أسباب ذلك الصراع في أصولها ، إلى السنوات الأولى من فترة حكم المولى الحسن ، أي إلى سبعينيات القرن التاسع عشر ، حين أبعد عم بن موسى ، وهو عبد الله بن أحمد البخاري⁽²²⁾، من منصب قائد الفرقة العسكرية الجديدة التي كان قد أنشأها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر ، وأسندت مهمة الإشراف عليها إلى الأخ الأصغر للصدر الأعظم الجامعي . زد على ذلك ، أن محمد غريط الذي كان من الكتاب المعاصرين وأحد رجال المخزن ، يخبرنا أن الجامعي كان يضايق بن موسى باستمرار ويحمله مسؤولية كل المشاكل المطروحة كبيرها وصغيرها⁽²³⁾.

ونظرا لانحدار أحمد بن موسى من أصل إفريقي (ويحتمل أن يكون من سلالة العبيد)⁽²⁴⁾ ، فلن يسعه إلا النظر بعين الرضى والإعجاب إلى صعود نجم ماء العينين بصفته زعيما إفريقيا آخر ارتفعت درجة شعبيته وعلت مكانته ، في الدفاع عن الإسلام وعن المغرب . خاصة وأن ماء العينين كان من أقطاب العلماء ، وتبوأ درجة رفيعة في الريادة الدينية . وكل هذه العوامل جعلت بن موسى يجد في ماء العينين كل المقومات الضرورية والمطلوبة للتمكن من دعم مكانته عند السلطان من جهة ، وتحقيق طموحاته السياسية اعتمادا على المكانة الروحية لماء العينين من جهة ثانية . وحتى يحالفه النجاح في بلوغ أهدافه المسطرة ، يبدو أن بن موسى قد مد يد المساعدة إلى ماء العينين فمكنه من إنشاء هيئاته

التنظيمية التي اتخذت شكل شبكة تتكون من عدة زوايا تابعة لطريقته الدينية⁽²⁵⁾. وكانت الزاوية المركزية في مدينة فاس ، بينما وزعت بقية فروعها على مختلف أرجاء البلاد ، من الصويرة إلى مراكش في الجنوب ، وبمدينتي سلا والرباط في الوسط ، وفي تطوان وملييلية بالشمال⁽²⁶⁾. وكان أحمد بن الشمس (توفي سنة 1923) المنحدر من موريتانيا ، وأحد طلبة ماء العينين هو الذي يتولى الإشراف على تسيير شؤون الزاوية المركزية في فاس⁽²⁷⁾. وتـدنا خواتم كتب ماء العينين المطبوعة في فاس، بأن من بين المهام التي كان يقوم بها بن الشمس هي الترخيص لكل من يرغب في نشر كتابات ماء العينين بذلك. كما أنه تولى القيام في الفترة الممتدة ما بين 1891 و 1912 بالنشر والتمويل المباشر لخمسة عشر عنوانا، على الأقل، من مؤلفات ماء العينين⁽²⁸⁾.

ومن الخدمات المهمة الأخرى التي قدمها أحمد بن موسى لشخص ماء العينين وللطباعة في المغرب ، إقدامه على كسر هيمنة الأخوين الأزرق اللذين كانا يحتكران جل أعمال الطباعة بفاس ، وذلك بتشجيعه لعناصر جديدة ، أمثال اليملاحي والذويب، على إنجاز مشاريعهم المطبعية الخاصة . وهنا أيضا ، كان هدف بن موسى هو الإسراع في تنفيذ حملته الدعائية ليكسب ماء العينين مزيدا من الشهرة والشعبية في الأوساط الغربية بوجه عام. ذلك بأن جزءاً كبيراً من الكتب التي طبعت في المغرب ما بين 1891 و 1900 كانت من مؤلفات ماء العينين. وينقلنا السؤال عن نجاح أحمد بن موسى أو عدمه في إبراز مكانة ماء العينين من خلال استعماله للطباعة ، ينقلنا إلى الحديث عن عامل آخر له أهميته الخاصة . ويتعلق الأمر بالاستعداد الذي كان عند مختلف عناصر

تشكيلة المجتمع المغربي لاحتضان كتابات ماء العينين وتقدير قيمتها الكبيرة إلى حد الإعجاب بها .

كان من بين تلك العناصر أشخاص يحتلون أعلى مراتب السلم الاجتماعي ، سارعوا إلى المراهنة على الشعبية المتنامية لماء العينين . ومثالا على ذلك ، نجد إلى جانب أحمد بن موسى ، الذي أعلن عن انتمائه إلى الطريقة الدينية لماء العينين ، عناصر من أسمى موظفي المخزن ، كما هو حال مولاي عبد الحفيظ أخ السلطان مولاي عبد العزيز ، ومحتسب مدينة سلا محمد الصبيحي ، فضلا عن العديد من كبار العلماء أمثال ابن الخياط والمهدي الوزاني الذين حصلوا على إجازات علمية من ماء العينين⁽²⁹⁾.

نتيجة لهذا الاعتراف بمكانة ماء العينين وللدلالات الكثيرة التي أصبح شخصه يكتسبها في أعين الناس ، انهمك العديد من العلماء في نظم الأشعار وسخروها في تعداد خصاله وتمجيد قدراته الباهرة . وجمعت تلك الأشعار ، إلى جانب المعلومات الخاصة بحياته ، فنشرت جميعها في فاس وعرضت على جمهور القراء⁽³⁰⁾. كما قضى بعض العلماء أمثال عبد الرحمن وجعفر الكتاني سنوات عديدة من حياتهم في نسخ مؤلفات ماء العينين وتصحيحها وتحضيرها للنشر⁽³¹⁾. وراهن الطابعون والناشرون ، أمثال العربي الأزرق⁽³²⁾ واليملاحي⁽³³⁾ والذويب⁽³⁴⁾، على تنامي ظاهرة ماء العينين ، فتنافسوا على نشر مزيد من كتاباته وترويجها، حتى ان مؤلفاته بلغت حوالي الربع من مجموع الكتب التي نشرها أولئك الطابعون الثلاثة في فاس ما بين 1891 و1900⁽³⁵⁾.

وكان النداء السياسي القوي الذي وجهه ماء العينين إلى بقية الطرق الصوفية ، وخاصة منها الطريقة الكتانية التي يتميز

زعماءها ، عبد الكبير وابناه محمد وعبد الحي ، بالحيوية والفعالية ، كان من العوامل الهامة الأخرى التي جعلت شعبيته تشيع بسرعة وتفرض وجودها على الساحة المغربية . ومن الأمور التي استهوت زعماء الطريقة الكتانية وجعلتهم يميلون إلى مشاطرة ماء العينين إيديولوجيته السياسية ، مناداته الأخيرة ، في كتابيه : « مفيد الراوي » و « مبصر المتشوف » ، بتعميم الأخوة بين كل الطرق الصوفية ، سواء على المستويات المحلية أم الدولية . ولتحقيق هدفه المنشود ، اقترح العمل بوسيلة فعالة وعملية ، ألا وهي إجماع كل الطرق الصوفية على استعمال حزب موحد يكون مستمدا في أساسه من جميع الأحزاب الرئيسية المعمول بها عند غالبية الطرق الصوفية⁽³⁶⁾ .

وتعني لفظة حزب ، جماعة أو تجمعا معينا . ومن الناحية الدينية ، تستعمل لفظة الحزب إشارة إلى الأقسام الستين التي يتكون منها القرآن الكريم⁽³⁷⁾ . غير أنها تعني شيئا آخر عند الطرق الصوفية ، إذ يقصدون بها أسطرا أو صفحات قليلة تتضمن جملا إنشائية تعبدية وضعها زعماء الطريقة الدينية ، قدماء كانوا أو معاصرين . وعليه ، فإن كل مجموعة طرقية يستظهر أتباعها الحزب الخاص بها وينشدونه فيكون بذلك رمزا لوحدها ، وفي الوقت نفسه وسيلة للتمييز بين المجموعات ، لأن لكل مجموعة كتابها المختلفين الذين يضعون نصوص أحزابها ، ولأن هنالك تباينا في درجات القوة وفي مستويات الورع ، وأيضا في سمو المكانة الدينية لكل حزب .

وعلى الرغم من تحرير زعماء الطريقة الكتانية لأحزابهم الخاصة وتحديد حركات رقصهم بأنفسهم⁽³⁸⁾ ، فقد تبنا جميعا إيديولوجية

ماء العينين ، وأكسبوا مؤلفاته شهرة خاصة حين تمكنوا من طبعها في المؤسسة التي كان يدير أعمالها الذويب أحد أبرز أعضاء الطريقة الكتانية حيوية ونشاطا . وكما سبقت الإشارة إلى ذلك ، كان عبد الرحمن وجعفر ، وهما من العناصر الريادية داخل الأسرة الكتانية ، من العلماء الذين ساهموا في نشر العديد من أعمال ماء العينين⁽³⁹⁾.

وهناك سبب أساسي جعل الكتانيين يتبنون إيديولوجية ماء العينين ، ويتمثل في وجود فراغ سياسي في المغرب ما بين 1894 و1900، حين بادر الصدر الأعظم أحمد بن موسى إلى تركيز سلطة المخزن بكاملها في يديه ، إذ تعمد اختيار أصغر أبناء السلطان المتوفى ورشحه خلفا له على حكم البلاد عوضا عن أحد أخويه الكبيرين ، مولاي محمد ومولاي عبد الحفيظ⁽⁴⁰⁾. وتجدر الإشارة إلى أن أحمد بن موسى عندما أحس بتنامي شعبية الطريقة الكتانية سنة 1897 وحاول معرفة النوايا السياسية التي كان محمد الكتاني يضمورها، لم يجد من يستشير في تقرير مصير الكتانيين - ويا لسخرية الأقدار ! - غير ماء العينين . لكن هذا الأخير ، كان على علم تام بفضل الطريقة الكتانية عليه ، ومساهماتها الفعالة في نشر أفكاره ومؤلفاته ، فما كان منه إلا أن أخلى سبيلها وبرأ ساحتها من كل الشبهات . بل أصبح محمد الكتاني أكثر جرأة عما كان عليه من قبل في ممارسة أنشطته ، واستمر على ذلك النحو إلى أن قتل على يد السلطان مولاي عبد الحفيظ سنة 1910⁽⁴¹⁾.

وكان زعماء الطريقة الكتانية يجدون عند ماء العينين شيئا ثمينا لا يمكنهم الاستغناء عنه لبلوغ أهدافهم ، ألا وهو عداؤه

الشديد للأوربيين بالإضافة إلى النداء الذي وجهه إلى أتباعه المغاربة لتحقيق التعاون مع سلاطين العثمانيين والاستفادة من خبراتهم وتوجهاتهم الإصلاحية بدل الإعتماد في ذلك على الأوربيين. وقد تكرر مثل هذا النداء في كتابات ماء العينين ، كما في مؤلفه مبصر المتشوف الذي وصف فيه السلاطين العثمانيين بالعبارات التالية :

« فهم زبدة الملوك ، ودولتهم زبدة الدول ، حيث لا دولة بعدها لغيرهم . [لأنهم] يقاتلون مدهم مبادي الرجال من الكفرة الفجرة من الافرنج والآنغروس⁽⁴²⁾ وغيرهم . ولهم الجمعية الكبرى واليد الطولى والدولة العظمى »⁽⁴³⁾.

كانت مثل هذه الكتابات المشحونة بالإحساسات المعادية للأوربيين قوية بما يكفي لتمكين الزعماء الكتانيين من النجاح في إسماع صوتهم الذي لم يتوقف عن المطالبة بإحلال الخبراء العثمانيين محل الأوربيين في المغرب . وفي الواقع ، كانت لجل العناصر الريادية في الطريقة الكتانية - ومنهم جعفر الكتاني وولداه عبد الرحمن ومحمد ثم عبد الكبير الكتاني وولداه محمد وعبد الحي - علاقات متينة واتصالات مستمرة مع مختلف العلماء العرب في المشرق ، والذين كانوا في خدمة الدولة العثمانية . وكان من أولئك العلماء بافضل الحضرمي وأبو الهدى الصيادي اللذان كانا يشرفان على إدارة منظمة الجامعة الإسلامية في إستانبول والدعوة إلى التوحيد بين كل الطرق الصوفية⁽⁴⁴⁾. وكانت أيضا لزعماء الطريقة الكتانية اتصالات قوية مع يوسف النبهاني الذي كان في خدمة العثمانيين مسؤولا عن إصدار

« الجوائب » صحيفتهم الرسمية⁽⁴⁵⁾ . وبناء على كل هاته المعطيات ، تتضح لنا كل الدوافع التي جعلت العناصر القيادية داخل الطريقة الكتانية تعتنق أفكار ماء العينين وتفسح المجال أمام كتاباته لتعرف انتشارا واسعا عبر وسيلة الطباعة .

وهناك نقطة أخيرة تتعلق بأدبيات الحزب عند ماء العينين ، وهي لجوء عامة الناس في المغرب إلى استعمال كتاباته تماشيا لحمايتهم من مختلف الأمراض والأخطار التي كانت تهدد حياتهم اليومية وقتئذ⁽⁴⁶⁾ . وهذه نقطة أخرى تضاف إلى الأسس التي أقام عليها ماء العينين شعبيته في المغرب . وتعني هذه الأمور كلها أنه بقدر ما كانت تستعمل آلة الطباعة لتعميق شعبية ماء العينين في المغرب ، كان ماء العينين نفسه مُستخدماً بطريقة أو بأخرى في تحقيق غايات متعددة ومتنوعة للمخزن والعلماء وحتى عامة الناس . معنى هذا أن أهمية الطباعة أصبحت واضحة داخل المجتمع المغربي ابتداء من ثمانينيات القرن التاسع عشر .

ويمكن القول بإيجاز ، إنه من الواضح جدا أن علما على غرار ماء العينين لم يكن في حاجة إلى الطباعة ليتحول إلى زعيم ديني وسياسي له مكانته المهيمنة والمتحكمة في مصير المجموعات القبلية داخل مجاله الصحراوي . بل كان ذلك المجال بحكم بنياته السوسيواقتصادية والدينية والتعليمية القائمة كافيا لتمكينه من إدراك ما حققه من مكانة سامية . ومع ذلك ، فإنه على الرغم من المساندة المطلقة التي لقيها ماء العينين من إخوانه الصحراويين ، فما كان لشهرته الدينية ولا لكتاباته التي تجاوزت الثلاثمائة مؤلف أن تمكنه من التحول إلى شخصية تحظى

بشعبية كبيرة في المغرب ، لأن تزايد الأطماع الأوربية تجاه المغرب وتصاعد لهجة التهديدات له منذ أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، بالإضافة إلى النجاح الذي حالف ماء العينين في توحيده لسكان الصحراء ، كانت جميعها عوامل جعلت هذا الرجل يحظى باهتمام شخصيات المغرب البارزة التي كانت تتحكم آنذاك في مصير البلاد . إلا أن الطباعة شكلت مع تلك العناصر الحيوية إمكانية عظيمة سهلت من جعل ماء العينين أكثر الزعماء شهرة في زمانه.

الاغتسله خلعة وازواج وبنادى وملتوا ملتوا الى العلاح فلما جمع
 باؤمى واحسر فنعلا وفتح انتاسه نفعلا وبترج الشريعة والتفيدة
 املا وجزما وبنال النسخ للنفى والبعد وانتفع بعلمه النبى والبليز
 وانتشرت انوار مع جته في جميع الاقطاع انتشار الشمس في انوار ذات
 في الارقباع وكيف لا ومنو الفكتب المثرية الشيخ سبل والاعينين
 ابر شينه الفكتب الربانية الشيخ محمد قاضل بن قاسم ادام الله وجوده
 للاندل وجعلنا من مرقه وحجبه في منزلة الزاروق دار السلام وامسى
 وكاي البزاع مركب من كتاب السعير يوم الاحزاب صار بالسرور
 والافراح لنا يوم عير فتح فتح النور علم اربعة عشر وثلاثمائة والى
 من مبرقه على يد السلام بكعبة قاس المبرور سنة من كل قاس الجزء الاول
 وبعض الملازم المشار لنا في داخه من سنة الجزء الثاني بكعبة ابر عير المولى
 المذكر وما ذكر من الجزء الثاني بكعبة المعلم العزبة للارز
 بتجميع النفع في العالم النبى الخيم الخمس اية العباس سبل اخبر العباد
 النبوة عزاء جعله الله في كل قايه رضاء يار وخالك عزاء الوزير
 الا فتح والرشور الانكم من غير سياسته متلاكهم الامواج عزبت
 فرائع سابع شراية نعيم ملج اجاج التويسر المكل والقارر البكل الاجل
 النامع النامع الزيادة في اجازة المصالح ذوالخلف الاخر ابو العباس
 سبل احمد بن الوزير المفسر السير موقتي بن احمد لا زال غزاة في جيسى
 الرياسة ووزاة في عفر حيدر النجامة والكياسة وامير في طلق في
 افتكر صولة جواد الملة الاخير وعلا كل غارة للفرجة وتكمل
 بتاج البق والنصر والكلم وتغلر بسيف العزم بعشم مفاة مزاجه ووز
 قمل الاقلوب محبة فيه وسغل الاشر بشكر بره ولا تستر فيه الشكلا
 ابر الشكلا ربر الشكلا ربر الشكلا ربر الشكلا ربر الشكلا ربر الشكلا
 ابو فارس وافر وافر وافر وافر وافر وافر وافر وافر وافر وافر
 ابر مولانا الحسين بن مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمن مولانا

بالنعير والكف وكما السكوة * امير المؤمنين دلة العذر القاهر * وتلج
 العز والمقاهر * اجمل فجلست على منصة التميز * ابد سلكا رواج رابع مولانا
 عبد العزيز * اعز الله به بيضة اسلح * وخلف فلكه غزاة * جبر الليل
 والليل * بجلا حيله عليه وعلى اله افضل الصلاة * وانكر السلح * وفزع
 اللسان عن ابتلاع كبه * بما تقيله البكر من قها سير ما اختار عليه وبعده
 جعلت مؤرخا لا ابتلاع الكنع * ومشيئا برصفا ان حلا واليسر
 ارجو حرج المتاسر فرتنا ملى
 ام العيز الفريز * فرتنا
 ام العزراة تبسم عسر لال
 ومثل سمح الزمان يكبح سرج
 بلى قبحر فطمة ومرتنا
 وحيد الزمان ترجمه عرنفيس
 ورصبة ورصعة برز
 قبحا رئيس وخبره كنيح
 كثير النفع يري للمعالي
 قللا زع زسة واخر عكبه
 بيا للشيخ ما العيشير ما
 بكم جمل رقا لا ببل ثيل
 وكف فروع انا زلتم فلو بيا
 بمرته ثلث الركب
 وقد ارخته بشريف طيب

2:1000:2000:1000:1000:2

الهوامش :

- (1) B. G. Martin, Muslim Brotherhoods in Nineteenth-Century Africa, pp.125 - 151 .
- (2) المرجع نفسه.
- (3) المرجع نفسه .
- (4) محمد الظريف ، الحياة الأدبية في الزاوية المعينية ، (ثلاثة أجزاء) ، دبلوم الدراسات العليا في الآداب ، نوقشت بكلية الآداب بالرباط سنة 1987 ، غير منشورة ، الجزء 1 ، ص 109 .
- (5) عبد الحفيظ الفاسي ، معجم الشيوخ ، الجزء 2 ، ص 37 - 46 .
- (6) عبد الوهاب ابن منصور ، حفريات صحراوية ، ص 69 ، 81 .
- (7) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 82 . وتوجد بها نسخة مصورة لرسالة وجهها السلطان مولاي الحسن إلى أمناء الصويرة ، يأمرهم فيها بإدراج إسم ماء العينين ضمن لائحة الحاصلين على الرواتب . وهي بتاريخ 29 أبريل 1887 ، وتعتبر - لحد الآن - أقدم وثيقة يظهر فيها اسم ماء العينين في المراسلات المخزنية .
- (8) محمد المختار السوسي ، المعسول (عشرون جزءا) ، مطبعة النجاح ، 1960-1963 ، الجزء 4 ، ص 97 .
- (9) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 54 ، 75 ، 79 ، 105 .
- (10) الجزء 1 ، ص 46 .
- (11) فوزي عبد الرزاق ، المطبوعات الحجرية في المغرب ، فهرس مع مقدمة تاريخية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1989 ، ص 173 - 174 .
- (12) Martin, op. cit, p. 136.
- (13) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 44 .
- (14) المرجع نفسه ، الجزء 1 ، ص 124 - 126 ، 130 .
- (15) المرجع نفسه ، الجزء 1 ، ص 12 .
- (16) Martin, op.cit.
- (17) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 238 .
- (18) المرجع نفسه ، الجزء 1 ، ص 126 - 127 ، 155 .
- (19) المرجع نفسه . ما تزال العديد من كتابات ماء العينين مجهولة إلى اليوم ، إما لضياعتها وإما لكونها موزعة على العديد من أحفاده وذريته في مختلف الجهات الصحراوية .
- (20) عبد الرزاق ، المرجع السابق .
- (21) محمد غريط ، فواصل الجمان ، ص 82 - 89 .
- (22) وهو الشخص نفسه الذي مارس ضغوطه على الطابع المصري القباني ،

وجعله يغادر المغرب ليعود إلى بلده. انظر الروندة ، حديث مع الطيب الأزرق . وهو وثيقة غير منشورة تقع في صفحة واحدة .

(23) غريط ، المرجع السابق .

(24) يؤكد غريط ، المرجع السابق ، أن أسرة أحمد بن موسى تنحدر من

الموالي ، أي أن أصله من العبيد البربر . ويشير مصطفى العلوي في كتابه الحسن الأول ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1986 ، ص 193 ، إلى أن والده بن موسى كانت يهودية . غير أنه نتيجة لارتباط أفراد أسرة بن موسى بعبيد البخاري منذ أيام المولى سليمان (1820) ، وبما أن العادة قد جرت على تسميتهم بالبخاري ، فأرجع الظن أن تعود جذور أفراد أسرة بن موسى إلى أصل إفريقي ، قد يكون موريتانيا أو غيرها من بلدان المغرب الإفريقي ، هذا على الرغم من أن بن موسى لم يكن أسود اللون .

(25) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 55 .

(26) المرجع نفسه .

(27) الفاسي ، المرجع السابق؛ الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 125-127 .

(28) عبد الرزاق ، المرجع السابق؛ الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 12 .

(29) الفاسي ، المرجع السابق ، الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 12 .

(30) مجموع اشتمل على سبع فضائل في مدح ماء العينين . وساهم فيه كل

من عبد الرحمن الكتاني ، وعبد الله الفاسي ، ومحمد العلوي ، وعبد

الواحد الفاسي ، وعبد الله القباج ، وأحمد الزعيمي .

(31) عبد الرزاق ، المرجع السابق ، ص 127 - 166 .

(32) نفسه ، ص 127 - 129 .

(33) نفسه ، 185 - 187 .

(34) نفسه ، ص 144 .

(35) المرجع نفسه ، ص 190 - 195 .

(36) ماء العينين ، مفيد الراوي ، ص 4 . انظر أيضا ، أبو بكر بناني ، إتحاف

العناية ، ص 110 . ويشير فيه إلى أن الهدف الذي كان يسعى ماء العينين

إلى تحقيقه هو التوحيد بين مختلف الطرق الدينية بالمغرب لتصبح هناك

طريقة واحدة بديلة .

(37) Lane, Edward William. Madd al-qamus: an Arabic-English lexicon. 8 vols.

London: William and Novgate, 1863.

انظر مادتي . " حزب " و " حزابة " .

(38) عبد الكبير الكتاني ، نجوم المهتدين في دلائل الاجتماع للذكر على طريقة المشايخ المتأخرين برفع الأرجل من الأرض والاهتزاز شوقاً إلى رب العالمين، فاس ، 1914 . يتضمن هذا النص الذي وضعه مؤسس الزاوية الكتانية وصفا للطريقة التي يجب أن يتم بها الرقص أثناء ممارسة الطقوس الدينية الخاصة بالكتانيين . إذ تضرب الأرض بالقدم اليمنى ، وبينما تكون الساق اليسرى مرتفعة إلى أعلى يحرك الشخص جسده بقوة ، وتكرر العملية إلى ما لا نهاية . والكتانيون لا يطرقون الأبواب قبل الدخول إلى البيوت ، بل يكبرون الله لإشعار الناس بحضورهم .

(39) انظر الهامش 41 فيما سيأتي .

(40) غريط ، المرجع السابق ؛ العلوي ، الحسن الأول ، ص 193 . ويحاول غريط إثارة الانتباه إلى أن بن موسى واثنين من قرابته كانا يحتلان مناصب سامية في الجهاز المخزني للسلطان مولاي عبد العزيز ، فارقوا الحياة في مدة زمنية متقاربة جداً ، دون أن يقدم أي تفسير لذلك . غير أن العلوي يشير إلى تسميمهم على يد أفراد من الأسرة السلطانية .

(41) عبد الحي الكتاني ، المظاهر ، الجزء 1 ، ص 788 - 793 .

Burke, "Moroccan 'Ulama "in Keddie, Scholars, Saints and Sufis, p.111.

(42) ويعني بهم الفرنسيين والإنجليز .

(43) انظر الجزء الثاني من مبصر المتشوف ، ص 176 .

(44) كانت لجنة الجامعة الإسلامية في إستنبول تتكون من أربع شخصيات

قيادية هي : بافضل الحضرمي ، والشيخ أسعد أفندي ، وأبو الهدى الصيادي، وظافر المدني . وكان كل واحد منهم مسؤولاً عن طريقة واحدة أو عن عدة طرق في إحدى جهات العالم الإسلامي . وعلى سبيل المثال ، كان بافضل مسؤولاً عن الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، وجهات الشرق الإفريقي وساحل ملبار الواقع في الهند التي كانت الطريقة العلوية منتشرة فيها . وكانت تلك اللجنة تدعو إلى المباديء نفسها التي كان ماء العينين ورواد الطريقة الكتانية يتبنونها والتي تهدف إلى تحقيق الوحدة بين كل الطرق الصوفية عن طريق الاعتماد على أحزاب ذات نصوص موحدة المضامين . لقد كانت هناك علاقات متينة بين العلماء العثمانيين وكل من ماء العينين والعناصر القيادية في الطريقة الكتانية . وبالإضافة إلى المعلومات التي يقدمها لنا ماء العينين في كتابه مبصر المتشوف (انظر الهامش أعلاه رقم 43) ، يخبرنا في كتاب آخر تحت عنوان نعت البدايات ، ص 40 ، بأنه عندما وصل إلى مكة قابله المدعو عبد الرحمن أفندي الذي أعطاه هدايا ثمينة ، وأخبره بأنه رأى النبي صلى الله

عليه وسلم في منامه ، وأن النبي (ص) هو الذي أخبره عن ماء العينين ووالده وأن هذا الأخير خليفته في الأرض . وكان علماء العثمانيين يلجأون إلى استعمال أساليب مماثلة في مكة مع الزعماء الدينيين الوافدين من شرق إفريقيا ، والذين كانوا يثورون على الأوربيين بمجرد عودتهم إلى أوطانهم ، انظر :

Martin, " Notes on some members of the learned class of Zanzibar and East Africa in the Nineteenth Century ", in African Historical Studies vol.IV, n°3 (1971),pp 525-545.

وفيما يتعلق بالعلاقات القائمة بين زعماء الطريقة الكتانية وأعضاء لجنة الجامعة الإسلامية ، يفيدنا كتاب المظاهر السامية لعبد الحي الكتاني بأن والده عبد الكبير قد حصل على إجازة من بافضل الحضرمي المنتمي إلى الطريقة العلوية . وأنه التقى في مكة ببافضل الحضرمي (انظر: فهرس الفهارس ، الجزء 2 ، ص 140) . وعلاوة على ذلك ، حسب ما جاء عند الفاسي في كتابه مجموع ، فإن أبا الهدى الصيادي قد وضع كتابا عن الأدارسة في المغرب تحت عنوان الإيضاح المطرب (غير منشور) ، كما حصل منه السلطان مولاي عبد الحفيظ على إجازة عن طريق المراسلة . للمزيد من المعلومات عن هذه النقطة من التاريخ المغربي والتي ما زال يكتنفها الكثير من الغموض ، انظر المنوني ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، الذي يحتوي على معطيات قيمة عن العلماء الذين زاروا البلاد المغربية في إطار موضوع الإصلاحات قبل سنة 1912 .

(45) الفاسي ، المرجع السابق ، الجزء 2 ، ص 161 - 162 ؛ يوسف النبهاني ، جامع كرامات الأولياء ، ص 226-229.

(46) الظريف ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 155 - 158 . ويؤكد الباحث نفسه في الصفحة 160 من المرجع نفسه أن ماء العينين كتب حزبا خاصا لفائدة الوزير أحمد بن موسى بعنوان : منيلة القصد لكل جاء وطاردة الآفات من كل ما مضى وما قد يأتي .

الصحراء أرض الشعر ومهد التقاليد

محمد المختار ولدبايه(*)

مضت الآن عشرون سنة على استرجاع المغرب للأقاليم الصحراوية، وهي مناسبة تستدعي التذكير بما كانت عليه الصحراء قبل هذا العهد.

في مستهل هذا القرن احتل المستعمر الاسباني الساقية الحمراء ووادي الذهب، وبقي فيها نحو من سبعين سنة تخللتها حركات جهادية تحررية معروفة.

ثم لما أفل نجم الاستعمار حاول الاسبان الحفاظ عليها وادّعوا أنهم وجدوها أرضا خلاء لا أنيس بها، ودافعوا عن هذه الأطروحة في المحكمة الدولية بلاهاي، غير أن الواقع فند ادعاءاتهم واعترفت المحكمة أنها كانت مأهولة بقبائل تدين بالولاء والبيعة للملك المغرب.

يومئذ قرر العاهل المغربي استعادة الصحراء بطريقة من أبداع ما استعمل ضد الاستعمار في هذا القرن. إنها المسيرة الخضراء التي صارت خط تحول في تاريخ الصحراء وتاريخ المغرب كله، إذ عرف قائدها كيف يقوم بأقوى هجوم بسلاح السلم وقدائف الحكمة والانضباط، ولقد كانت استجابة شعبه رائعة ومدهشة.

(*) أستاذ جامعي.

واليوم قد تبدلت أرض الصحراء غير أرضها، إذ بالأمس القريب ماكان فيها إلا قَرِيَّات يسكنها المستعمر وقبائل رحل تتبع مواقع القطر، فعبدت طرقها وشيدت فيها الجوامع الفخمة والمدارس المتنوعة والمطارات والموانئ الحديثة، ومدت فيها شبكات الماء العذب، وأقيمت المزارع والمروج، ودخلت في وتيرة النمو والتطور.

لقد قلنا إنها كانت كاسمها صحراء، غير أن هذا لا يعني على الإطلاق كونها قفاراً بلا سكان. ان لها أهلاً يحبونها ويثبتون أنها أرض الأدب والشعر ومعبراً للتبادل ومهد البطولات.

« جعلت كل أرض لأهلها شاماً » انها قولة مشهورة جرت على ألسن الناس، ونماها بعضهم إلى الحديث الشريف، وإذا كانت غير موجودة في مدونات السنة النبوية، فإن معناها صحيح في التجربة المعيشة، فالناس قد جبلت على حب أوطانها، إذ بأماكن نشأتها ترتبط النفوس كارتباط أولي الأرحام، ويحق لكل أحد أن يقول مثل ما قال الشاعر القديم:

أحب بلاد الله ما بين منعج عليّ وسلمي أن يصبوب سحابها
بلاد بها نيطت عليّ تمنامي وأول أرض مس جلدي ترابها

وقد تكون هذه الأوطان أرضاً خصبة جميلة كثيرة الأنهار والأشجار فيشيد الشاعر بمحاسنها حينما يفارقها، مثلما وقع لابن حمديس حين اغترب عن صقلية فجعل يبكيها قائلاً:

ولولا ملوحة ماء العيون حسبت دموعي أنهارها

وقد تكون هذه الأوطان أراضٍ جرداء لا ماء فيها ولا شجر، بيد أن هذا لا يعوق الشاعر أن يحبها، وأن يشفق أيامه فيها، وكأنه يبحث فيها عن قطع من ماضي حياته استودعها في تلك الأماكن،

ويحاول كلما مر بها أن يستعيد أيام سروره فيها. ومثالا لذلك، يقول الشاعر الشهير امحمد بن الطلبة اليعقوبي عن الصحراء:

منازل قد كان السرور محالفي بها فهي عندي بين سلمي ومنعج
فالصحراء عند الشعراء من ذويها لم تكن تلك المهامه التي قال
فيها ذو الرمة:

يتيه قطا الفلاة بها أواما ويهلك في جوانبها النسيم
وليس كما يراها الجغرافيون والرحالة وكأنها ليست إلا كثباناً
زاحفة تكتسح أمواجهها كل ما اعترض طريقها، وبعضهم لا ينظر
منها إلا أبحرا من رمال مخيفة يغمرها السراب ويتبارى فيها
اللهيب والزمهرير، يترقب المار في مسالكها الوعرة أن تنقض
عليه العواصف، فيعمي العجاج بصره، ويصم الأزيز مسمعه،
ويذبل حر السموم لسانه.

إن هذه الصورة الموحشة لا تعبر في الحقيقة عن طبيعة
الصحراء التي تعطي لمن كشف أسرارها مظاهر الجمال وفرص
التحدي ونشوة النصر.

إنها صورة صحراء الجغرافيين والرحالة المهتمين بكل ما يثير،
ولكنها ليست صحراء الشعراء ولا صحراء العارفين.
إن هؤلاء لا يرون في أفاقها الواسعة مجالا رحبا للحرية
والانطلاق:

كان لم ننتجع في الدهر مرعى	خصيبا مابه أثر انتجاع
ولم ننزل من الصحراء أرضا	بساطا كالسماء في الاتساع
ولم نسمع بها والليل داج	هزيم القمر في الشول الرتاع

إنهم ينظرون إلى واحاتها التي تتركز فيها الحياة على أنها قطع
من النعيم، كلما صعبت الحياة حولها ازداد شعور الانسان بالحياة

فيها، وكلما اضناه السير وأنهكه البحث عن مبتغاه، تعاظمت
سعادته بالفوز واللقاء، كما يصور ابن الطلبه رحلته الليلية في
طلب الأحبة.

بيننا تقحّم في الظلماء جافلةً	لاحت لها النار بالعليا من الريع
إذا سجت هبّ الريح يصفقها	صفقا وألوى بها ريع المبيديع
ياموقد النار أوقدها فلا شللا	لا زال شملك مرسوما بتجميع
فدى لنار هدتني أنت توقدها	شُبِّتْ بأرطى وأطلاح ويَتُـوَع
نَارُ تُشَبُّ بَغْـسَارٍ فِي ذَرَى إِضْمٍ	هدت حميدا إلى حُورِ المداميع
والغار والنَّدُّ والعلياء من إضم	تفدي اليتوع وعلياء المبيديع

وعن جمال الصحراء يتحدث ابن الشيخ سيديا، مشبها تربتها
ببريق الفضة وقت الظهيرة وفي الليالي القمرية، ويراهها ذهباً في
الصبيحة والعشي، وفي ذلك يقول:

يُفَضُّضُهَا الْهَجِيرُ وَكُلُّ بَدْرٍ وتذهبها الغدايا والعشايا

إن هذا الشاعر قد زار الصحراء المغربية فلم يرض عن مياهها
ولانباتها. وفضل عليها صحراء أوكار التي قال عنها إنها:

تنبت السرح والسيال وأرطى حاكيا في الرمال وشم العذارى

غير أن هذا يخالف ما يقوله امحمد بن الطلبه وماء العينين بن
العتيق إذا نحن اقتصرنا على هذين الشاعرين من بين الذين تغنوا
بأباطح هذه الصحراء وأشادوا بها.

لقد نوه ابن الطلبه في شعره بأكثر من ثلاثين موضعا من
الصحراء في قصيدته الجيمية المشهورة، نورد منها قوله:

وذكرة أظعان تربع باللوى	لوى الموج فالخَبَّتَيْنِ من نعف دُوْجِجٍ
إلى البير فالحواء فالفج فالصوى	صوى تشلّ فالأجواد فالنُعْفِ من إِج
تحل بأكناف الزفال فتيرس	إلى زيز فالأرويتين فالأعوج...

وبعد ابن الطلبة كان ماء العينين بن العتيق من الشعراء المبدعين الذين خلدوا في قصائدهم مجموعة من الأماكن الصحراوية، فنقرأ له قوله :

ألا من لعين عزٌ وجداً هجودها	وهان عليها بالمدامع جُودها
تفيض لذكرى الغيظتين بعبرة	كأنني إذا كفكفتها أستزيدها
سلا سلمات المهر أين ترحلت	مهاري اللواتي بارحتها وقودها
وهل ذكرت أيامها أم تنوسيت	وهل رعيت أم هل أضيعت عهدا
وهل سمرات الديس غودرن ذُبلاً	أم اخضر لما أدبر الصيف عودها
وهل جاد أرجاء المزرُب صيبٌ	فبثُ زرابيُ النبات مجودها

وبالاضافة إلى هذه الفكرة السائدة الخاطئة، فإن فكرة سائدة أخرى تقول إن الصحراء كانت بحراً عازلاً بين الشمال والجنوب، وهي فكرة كأختها خاطئة. فهي بالرغم من وعورة اجتيازها لم تكن في التاريخ إلا معبراً للفتاحين والدعاة والتجار. ولقد حرص أولوا الحكم في بدء الفتح الإسلامي أن يؤمنوا سبلها وأن يوفروا لقوافلها محطات المياه ومعالم الطريق.

بدأ هذا العمل في عهد عبد الرحمن بن حبيب الفهري. واستمر فيما بعده. فازدهر تبادل البضائع بين حافتيها من صناعة الشمال وذهب الجنوب.

ومن الطريف أن نظام هذا التبادل لم يقتصر على مؤسسات الدول، بل كانت الشركات الخاصة تقوم فيه بدور متميز.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك، الشركة التي أسسها آل المقرئ، فقد اشتهرت ذرية عبد الرحمن المقرئ بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلاً للرحيل وراية عند المسير، ويصف لنا المقرئ في نفح الطيب أمر أسلافه هؤلاء

فيقول إن أبناء يحيى المقرئ خمسة، عقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء. فكان عبد الرحمن وهو الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلى بأيوالاتن، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار.

«وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتببر، والسجلماسي كلسان الميزان، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم. ولما افتتح التكرور كورة أيوالاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها بعد أن جمع من كان منهم إلى نفسه الرجال ونصب دونها ودون مالهم القتال، ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب والخلصة الأقرب، ثم صار يكتب من بتلمسان فيقتضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبئ عن ذلك»⁽¹⁾

وقد استعمل ملوك المغرب الوسائل السياسية والدبلوماسية اللازمة لضمان حرية التجارة بين أطراف الصحراء، ومن ذلك إبرام العهود والاتفاقيات مع ملوك المناطق المتاخمة، كما وجهوا الرسائل التي تحمل نفس المضمون. ومن ذلك الرسالة التي كتبها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الموحي إلى ملك السودان بغانة، لما بلغه تضيقه على التجار. فكتب إليه يقول :

«نحن نتجاوز بالاحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية ومعلوم أن العدل من (1) نفع الطيب، المقرئ، ج 5 : 205. تحقيق الدكتور إحسان عباس.

لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة. والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدد. وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لأحتبسنا من في جهاتها من أهل تلك الناحية - لكننا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي مثله»⁽²⁾.

وقد استمر هذا المجهود في عهد المنصور الذهبي صاحب الحملات المشهورة، وفي عهد المولى اسماعيل الذي أمن الطريق إلى تيشيت. لقد بينا أن الصحراء ليست كما يدعي المستعمر، أرضا غير مأهولة، لكنها وطن قبائل شرف النسب والحسب، كان منها أبطال الجهاد وحماة الكرامة. وإنهم كسائر العشائر البدوية، يمتازون بطبائع خاصة، منها الصبر والمثابرة وإن لم تصحبهما دائما الأناة والتؤدة، وشجاعة تصل في أغلب الأحيان إلى طور المغامرة، وحرص على ممارسة الحرية ولو أدى ذلك إلى مخاطر الفوضى. ودفاع عن شرف القبيلة ولو أدى ذلك إلى مسالك الحيف، ومراعاة للعهود والتضحية في سبيل الوفاء بها، طالما شعر صاحبها بحرية الاختيار. وليس بالبعيد إن شاء الله، ذلك اليوم الذي تختفي فيه آخر مظاهر التفرقة، وتلم الصحراء شمل جميع أبنائها في ظل دولة ترعى كرامتهم وتحفظ حقوقهم، وتوفر لهم حياة العز والحرية.

وتزول بذلك بعض العقبات التي تعوق طريق بناء مغرب عربي موحد الصفوف تجاه الاعداء والخصوم في الخارج، تتضافر فيه الجهود وتتسق الأعمال لصالح دولة ومواطنيها، وتستعيد به حضارة الاسلام مجدها ومكانتها في عالم اليوم.

(2) نفح الطيب، ج 3، ص 105، تحقيق إحسان عباس.

اللغة الحسانية:

أساس التواصل بين الجنوب والشمال المغربيين

محمد عالي خنفر(*)

1- اللغة الحسانية جزء لا يتجزأ من الثقافة الوطنية المغربية:
تنبغي الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أنه يستحيل الحديث عن ثقافة ما في إطار مغلق، بمعزل عن ثقافة، أو ثقافات، أخرى، ذلك أن أية ثقافة لا يمكن النظر إليها إلا باعتبارها داخلة في علاقة جدلية مع غيرها، أي في علاقة تكامل وانسجام بين ما هو خاص وما هو عام، أو في علاقة تبادل بين أخذ وبذل، أو في علاقة توتر بين صراع واصطدام، أو في غير ذلك من العلاقات... وبعبارة أخرى أنها كائنة، لا محالة، في مجموعة من العلاقات المتفاعلة فيما بينها تفاعلا جدليا.

ومن هذا المنطلق نعتبر أن الثقافة الحسانية ليست إلا مكونا من مكونات ثقافتنا الوطنية، كالثقافة العربية والإسلامية، والأمازيغية، والشعبية وما إليها، مما يشكل بوتقة واحدة من المكونات الأساسية لثقافتنا الوطنية ولهويتها من جهة.

كما نعتبر أن ثقافتنا الوطنية ليست إلا مكونا من مكونات ثقافتنا القومية، بل نرى أنها حد من حدود هويتنا الإنسانية بصفة عامة من جهة أخرى.

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك سيدي عثمان، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء،

وفي هذا الصدد يقول العلامة محمد المختار السوسي: «... انني من الذين يرون المغرب جزءا لا يتجزأ، بل أرى العالم العربي كله من ضفاف الأطلسي إلى ضفاف الرافدين وطنا واحدا، بل أرى جميع بلاد الاسلام كتلة متراسة من غرب افريقيا إلى اندونيسية، لا يدين بدين الاسلام الحق من يراها بعين الوطنية الضيقة التي هي من بقايا الاستعمار الغربي في الشرق، بل لو شئت أن أقول - ويؤيدني ديني فيما أقول - انني أرى الانسانية جمعاء أسرة واحدة، لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتقوى، والناس من آدم، وأدم من تراب»⁽¹⁾.

وبمعنى آخر نرى أن كل هذه الثقافات الفردية / الخاصة، والمشاركة العامة، في أي زمان وفي أي مكان، جهويا وكونيا، تؤلف مجتمعة بالضرورة تركيبة ثقافية عامة، في نهاية المطاف، هي ما نصلح عليها بالثقافة الوطنية، أو الثقافة القومية أو الإنسانية، حسب مناسبة المقال للمقام، وأن كل هذه الثقافات تترابط فيما بينها ترابطا جدليا لا تنفصم عراه، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتصور أن احداها تعيش وحيدة، بمعزل عن الأخرى، خاصة في وقتنا الحاضر الذي تضاءلت فيه الحدود بين المسافات الزمانية والمكانية، وتكاثفت فيه وسائل الاتصالات السمعية والبصرية بين الأفراد والجماعات، حتى أصبح العالم، بتعدد أمصاره، وتنوع أممه، يوصف بأنه قرية صغيرة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، 13).

2 - صحراء المغرب مجال الثقافة الحسانية :

إن الثقافة الحسانية، في الواقع، ما هي إلا نسيج من الثقافات الفردية والخصوصية المتنوعة: فكريا ويدويا، والمتعددة: كميا ونوعيا، التي أبدعها وأنتجها الانسان الحساني المغربي الكائن في صحراء المغرب بصفة خاصة، والموجود في مناطق صحراوية أخرى مجاورة: في موريتانيا، ومنطقة تيندوف بصفة عامة.

يمتد مجال هذه المناطق مجتمعة على مساحة مربعة يتوسطها مدار السرطان، وتصل أبعادها إلى حوالي ثلاث عشرة 13° درجة في كل حد منها، تبلغ مساحتها الاجمالية حوالي: مليونين ونصف 2.500.000 كيلو متر مربع، يحدها من جهة الجنوب: دائرة عرض: خمس عشرة: 15° درجة شمال خط الاستواء، ويمر خط هذه الدائرة من مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي غربا، إلى مدينة ولاته بموريتانيا شرقا. ويحدها من جهة الشمال : خط دائرة عرض ثمان وعشرين: 28° درجة، من خط الاستواء شمالا، وهو الخط الوهمي الرابط بين مدينتي تيزنيت على المحيط غربا، وتاكونيت بورزات على امتداد سلسلة جبال الأطلس شرقا. كما حدها من الشرق خط دائرة طول خمس: 5° درجات غرب خط دائرة الصفر درجة، وهو الخط الممتد من الشمال إلى الجنوب حاجزا بين كل من مدينتي تيندوف بالجزائر وولاته بموريتانيا من جهة، وبين مدينتي تاودني وأروان بمالي من جهة ثانية، يحدها أخيرا من الغرب خط دائرة طول: ثمان عشر 18° درجة غرب خط دائرة الصفر (خط جرينتش)، وهو الخط الرابط بين جزر الكناري إلى شاطيء مدينة الكويرة باقليم وادي الذهب المغربي.

هذا هو المجال الأصلي لصحراء المغرب، لكن تعرضت للاقتطاع بين الآونة والأخرى بفعل المناورات الاستعمارية التي لا تخفى على أحد وهي منسوبة تاريخيا إلى المغرب، ورابطة الانتساب بينهما لا يمكن التشكيك فيها، وهي أيضا مجال الثقافة الحسانية التي نحن بصدد الحديث عنها. وهي منطقة صحراوية شاسعة تشمل المناطق التالية:

أ - الأقاليم المغربية الواقعة جنوب سلسلة الأطلس، جزئيا أو كليا، وهي : الراشيدية، ورزازات، طاطا، تيزنيت، كلميم، آسا، طنطان، العيون، السمارة، بوجدور، وادي الذهب.

ب - القطر الموريتاني بجميع أقاليمه.

ج - منطقة تيندوف وصحراء الحمادة بجنوب غرب الجزائر.

د - أجزاء من إقليمي تاودني وأروان بشمال غرب مالي.

غير أن هذا التحديد لا يمكن إلا أن يكون تقريبا، وإلا فإن مجال هذه المنطقة المعنية قد يكون أوسع مما هو محدد أعلاه، وقد يضيق أيضا، تبعا لخصوصية كل منطقة على حدة، ولواقعها الاجتماعي المتغير حسب تقلبات الأوضاع وتعاقب الأزمان.

ومن ثم فإن مجموع أقاليمنا الصحراوية المغربية، البالغة أحد عشر حدا، المذكورة أعلاه، تدخل بصفة جزئية أو كلية ضمن مجال الثقافة الحسانية، بل تعتبر، بصفة خاصة، هي المنبع والقاعدة الأساسية التي انطلقت منها القبائل الصحراوية في التوسع والانتشار إلى المناطق الأخرى المجاورة، فمن المؤكد أن قيام الدولة المرابطية لم يتم إلا بعد أن تمكنت من القبض على أقاليمنا

الصحراوية الجنوبية، وبسط سيادتها عليها، وخاصة منطقة وادي نون (أو نول كما تسمى أيضا) التي أصبحت قاعدة الدولة المرابطية، ومنها تمكنت من بسط سيادتها على مختلف المناطق المغربية شمالا وجنوبا، كما هو الحال بالنسبة لغيرها من دول المغرب، ويكفي دليلا على هذا أن السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل العلوي وهو الجد الأعلى لبقية سلاطين المغرب المعاصرين، كان قد التجأ إلى منطقة وادي نون عند خؤولته المغامرة، صحبة ولديه المولى أحمد المتوفى سنة 1164 هـ، والمولى محمد الذي تولى الملك من بعد والده فيما بين سنتي: 1170-1204 هـ، وكان ذلك أثناء إحدى محنه في شأن الملك، وأقام في وادي نون مدة تصل إلى ثلاث سنين، بين عامي: 1147-1150 هـ/1734-1737 م، ولم يخرج من هذه المنطقة إلا معززا مكرما على رأس جيش قوي بكامل عتاده وتجهيزاته مكنه من العودة إلى سدة ملكه بفاس⁽²⁾.

ونحن نستطيع أن نتبين ذلك كله من خلال تتبع أهم مراحل الدولة المرابطية، وهي التي يمكن أن نحددها في المراحل الخمس التالية:

أ- مرحلة البحث عن الذات (427-430 هـ):

وهي التي قد تبلورت من خلال عمل الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي (427-441 هـ) الذي قام برحلة إلى الحج على رأس بعثة من قومه سنة 427 هـ، فتمكن، أثناء عودته، من العمل على جلب الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، قصد الاستعانة به في القيام بهذه المهمة الأساسية: التفقه في شؤون الدنيا والدين⁽³⁾.

ب - مرحلة التفقه الديني/الدنيوي (430-434 هـ):

وهي التي تمت على يد الفقيه العالم: عبد الله بن ياسين الجزولي (430-451 هـ/1038-1059 م)، الذي قام بتأسيس مدرسة علمية سماها «الرباط»، ومن اسمها اكتسبت الدولة المرابطية اسمها، ومن ثم أخذت تطلق على مجموعة من الأماكن، منها (رباط ماسة، ورباط الفتح العاصمة الحالية للوطن)، وهي مدرسة قد جمعت بين الشؤون الدينية والدنيوية على حد سواء، تعتبر إحدى مخترعاته العجيبة⁽⁴⁾. وبواسطتها تمكن من النجاح في تحقيق مهمته، على الرغم من صعوبتها، بعد أن كاد أن يصيبه الفشل، حيث انطلق من سبعة أفراد، لكنه انتهى إلى أكثر من ثلاثة آلاف مجاهد، وكان قبل ذلك قد خاطبهم لما بلغ تعدادهم ألف مجاهد بقوله: «ان ألفا لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك»⁽⁵⁾، فكان هذا الخطاب بمثابة إعلان لقيام الدولة المرابطية التي استطاعت أن توحد المغربين بعد تفرقهما إلى طوائف، وكان ابن ياسين قائدا روحيا وراء مختلف مراحل تطورها، بل كان مجاهدا في مقدمة المجاهدين، حيث استشهد بضواحي مدينة الرباط العاصمة المغربية الحالية.

ج- مرحلة الاعداد والامتداد (434-447 هـ):

وهي التي بدأها الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي، ثم طورها خليفته من بعده: يحيى بن عمر اللمتوني (نحو 441-447 هـ)، وتمثلت في العمل على تغيير المنكر، وتطويع القبائل المخالفة، من كدالة وملتونة ومسوفة، حتى استقامت على الطريقة وأُنابت إلى

الحق، وذلك ببعث ألف من المجاهدين إليهم سنة 434 هـ، ثم في عقد الحمى على القبائل والعشائر المجاورة من البربر والعرب على حد سواء، وأخيرا في إقامة النظام وتأسيس المرافق الحيوية التي تحكم الدولة والمجتمع معا، ثم في العمل على الامتداد إلى افتتاح بلاد درعة وسجلماسة وما إليها سنة 445 هـ⁽⁶⁾.

د- مرحلة الامتزاج بين الجنوب والشمال (447-453 هـ):

وهي المرحلة التي تمت من خلال عمل الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني (447-480 هـ)، الذي ندب المرابطين إلى فتح المغرب فتوجه بهم للغزو سنة 448 هـ فافتتح أولا بلاد نون، ثم ماسية وتارودانت وما إليها من معاقل السوس، وبعد أن استتب له الأمر هناك توجه إلى مدينة أغمات فافتتحها سنة 449 هـ، وقتل أميرها لقوط المغراوي، ثم تزوج امرأته السيدة زينب النفزاوية المشهورة بالجمال والرئاسة⁽⁷⁾.

وكان هذا الزواج بمثابة الامتزاج بين الجنوب والشمال المغربيين امتزاج الدم بالنسب، بحيث لم تكد تمض بضع سنوات بعده حتى تمكن المرابطون من بسط نفوذهم على أغلب الأقاليم الشمالية المغربية باستثناء مدينة فاس والشريط الواقع شمالها من تلمسان إلى المحيط⁽⁸⁾.

هـ- مرحلة الانشاء والتوحيد (453-500 هـ) :

وهي المرحلة التي تمثلت من خلال عمل الأمير يوسف بن تاشفين (453-500 هـ) الذي استخلفه أبو بكر اللمتوني على أمر المرابطين من بعده، فأتى عملية الامتزاج بتجديد عقد الزواج على السيدة زينب النفزاوية، وأسس مدينة مراكش عاصمة لدولة

المرابطين ثم أعاد تنظيم المرافق الأساسية لتطور الدولة، وعمد إلى توحيد أطراف البلاد: من نهر السنغال جنوبا إلى جبال البرانس شمالا ومن المحيط غربا إلى الجزائر شرقا، وجعلها تحت راية واحدة بعد أن كانت طوائف قحدا، وكان كل أمير منها كالحهر يحكي صولة الأسد.

أن تحليلنا لبعض مراحل تطور الدولة المزابية لا نهدف من ورائه إلا الكشف عن بعض اللحظات المضيئة في الالتحام بين الجنوب والشمال، وفي الامتزاج بين الجنسيتين البربري والعربي، قديما وحديثا، حتى نستطيع فهم بعض الظواهر والقضايا التي ينبغي علينا التفكير في معالجتها بكيفية مناسبة وجدية، على مختلف المستويات الثقافية واللغوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إليها مما نحن في حاجة إلى معالجته من أجل وحدتها الوطنية..

3 - الثقافة الحسانية ثقافة انسان صحراء المغرب:

إن الثقافة الحسانية هي ثقافة إنسان صحراء المغرب. الموصوفة أبعادها أعلاه، أي أن هذا الإنسان هو الذي أنتجها في السابق وينتجها في اللاحق، وهو الذي تداولها في الزمن الغابر، وما زال يتداولها في الحاضر.

وهي ثقافة فكرية ويدوية، غنية ومتنوعة، وذلك بحكم انتماء مبدعها وصانعها إلى عشائر ومجموعات قبلية متعددة ومتنوعة، ذات أصول عربية في معظمها، كانت قد وفدت إلى المنطقة على فترات متفاوتة، وخاصة بعد الطلائع الأولى للفتح الإسلامي، بقيادة عقبة بن نافع المتوفى سنة 63 هـ/683 م، التي وصلت إلى شاطيء

المحيط الأطلسي بسوس، وما أعقبها من حملات أخرى إلى قيام الدولة المرابطية وما بعده.

ربما يبدو هذا الرأي للبعض مستبعدا، لكننا، على الرغم من ذلك نستطيع إثباته انطلاقا من التراث الشعبي من جهة، ومن بعض الاشارات التاريخية التي لا يمكن الطعن فيها من ناحية أخرى، ولعلنا نكتفي بإشارة، في هذا الصدد، مأخوذة من ابن خلدون، أثناء حديثه عن دولة المرابطين، ودور شيخهم الجزولي عبد الله بن ياسين الذي «سماهم بالمرابطين، وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا»⁽⁹⁾. ففي هذا النص حديث واضح على أن هناك مجموعة من العرب توجد بصحراء المغرب حاليا، وأن المرابطين توجهوا لمحاربتهم حوالي سنة 434 هـ، فتم التعاقد بين الطرفين على أن يعطي العرب الصدقات، وأن يلتزم المرابطين بحمايتهم، وقد أكد ابن خلدون نفسه مضمون هذا العقد بعد بضعة سطور مما كتبه عن «العرب»، حين قال: «فخرجوا (أي المرابطون) من الصحراء سنة خمس وأربعين وأربعمائة (445 هـ) في عدد ضخم ركبانا على المهارى أكثرهم، وعمدوا إلى درعة، لا بل كانت هناك بالحمى، وكانت تناهز خمسين ألفا ونحوها»⁽¹⁰⁾، فالعرب، إذن. كانوا موجودين في ذلك الوقت ببلاد درعة من صحراء المغرب، وقد تعاقدوا مع المرابطين على مسالمتهم بالدخول في حماهم وأعطائهم ما يلزمهم من مستحقات.

ثم جاء العرب بعد ذلك إلى المغرب، حيث «انتقل إليه، في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في

الدول هناك، فكانت أخبارهم من أخبارها فلذلك استوعبناها»⁽¹¹⁾، ولما خلوا إلى شمال افريقيا تقارعوا على اقتسام البلاد في سنة 441هـ، فحصل لسليم الشرق، ولهلال الغرب، وأقامت هيب من سليم وأحلافها رواحة وناصره وغمرة بأرض برقة، وسارت قبائل ذياب وعوف وزغبة وجميع بطون هلال إلى افريقيا فوصلوها سنة 443 هـ⁽¹²⁾.

واقتسموا البلاد مرة ثالثة: فكان لهلال من تونس إلى المغرب، وهم رياح وزغبة، والعقل، وجشم، وقررة، والأثبج، والخلط وسفيان⁽¹⁴⁾.

أما المعقل فقد كان «دخولهم إلى المغرب مع الهلالين في عدد قليل يقال انهم لم يتجاوزوا المائتين، واعترضهم بنوا سليم فأعجزوهم، وتحيزوا إلى الهلالين منذ عهد قديم، ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار الغربية، فعفوا وأنبتوا في صحاري المغرب الأقصى، فعمروا رماله، وتغلبوا في فيافيه»⁽¹⁵⁾.

ثم أصبح بنو معقل فيما بعد «من أوفر قبائل العرب، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورون لبني عامر بن زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب، وهم ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان»⁽¹⁶⁾.

فكان «ذو عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة»⁽¹⁷⁾.

«ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة، فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة، وعلى درعة، وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازة وغساسة وتادلة»⁽¹⁸⁾.

« ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم في بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من جدالة ومسوفة وملتونة»⁽¹⁹⁾.

هكذا وصف العلامة ابن خلدون دخول القبائل العربية إلى شمال إفريقيا وكيف تم اقتسامها فيما بينهم، ثم بين دخول بني المعقل منهم. في جملة بني هلال، إلى المغرب ومواطن استيطانهم به، خاصة في صحراء المغرب، ويقول زيادة في التوضيح: هكذا أقام هؤلاء «المعقل في القفار وتفردوا في البيداء، فنموا نموا لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناقة بالقفر، مثل قصور السوس غربا، ثم توات وتيكوارين شرقا»⁽²⁰⁾.

وكانت بواعث دخول القبائل العربية إلى إفريقيا بصفة عامة، وإلى المغرب بصفة خاصة، متعددة ومتنوعة، ذاتية وموضوعية، منها ما يتعلق بتلبية الحاجيات الأساسية للحياة، ومنها ما يتعلق بالصراعات السياسية والعقدية القائمة بين الأفراد والجماعات، في مواطن وجودهم اذذاك، تأييدا أو معارضة، لطرف دون آخر.

4 - التهام اجتماعي بين البربر والعرب في صحراء المغرب :

لقد نتج عن دخول القبائل العربية، فرادى وجماعات، إلى صحراء المغرب بصفة خاصة، وإلى المغرب عامة، على فترات متعددة، أن تمكنت من التكيف مع الطبيعة المغربية، ومع البيئة الاجتماعية الموجودة من قبلها، ونظرا للتقارب بين الجنسين البربري والعربي، في مختلف المجالات، فقد تم الامتزاج بينهما بسهولة نسبيا، بحيث أصبح من المستحيل مع هذا الامتزاج

التمييز بين الجنسين، ذلك أن كلا منهما انقسم إلى فصلين متصارعين، وأن كل فصيل منهما قد تحالف مع الفصيل الآخر الذي يوافقه في توجهه ليكون معه حلفا ضد الآخر، ثم ليتمتزج به في نهاية الأمر من حيث أراد ذلك أو لم يردده.

يقول ابن خلدون متحدثا عن أولية هذا التحالف بين الطرفين: «ولما تغلب العقل على بسائط السوس اقتسموها مواطن فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن، وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصار كزولة من أحلاف بني حسان» (21)، ومن خلال هذا النص نتبين طبيعة هذا التحالف وهي المتمثلة في الصراع حول المواطن، كما نتبين العناصر المكونة للتحالف وأنواعها، وهي التي نوردتها فيما يلي:

إذا كانت جزولة تتصارع مع بني عموميتها لمطة من البربر، وإذا كانت الشبانات تتصارع مع بني حسان، وهم أبناء عمومة واحدة من العرب، فمن الطبيعي أن تتحالف جزولة مع بني حسان ضد بني عمومة كل منهما من لمطة والشبانات، من البربر والعرب كليهما، ومعنى هذا أن هناك عملية التحام قد تمت وفق مقتضيات ذاتية وموضوعية معا، بين كل من جزولة وبين حسان من جهة، وبين كل من لمطة والشبانات من ناحية ثانية، وذلك حسب المعادلة التالية:

أ- جزولة =/= لمطة = بربر =/= بربر.

ب- بنو حسان =/= الشبانات = عرب =/= عرب.

ج- جزولة+بنو حسان = لمطة+الشبانات = بربر+عرب = بربر+عرب.

هكذا تمت عملية الامتزاج والالتحام بين الجنسين: بإقامة التحالفات أولا، ثم بالنسب والمصاهرة، وأخيرا بالغلبة والسيادة، إلى درجة أصبح معها هذا الامتزاج وقد استعصى تفسيره على كثير من الدارسين، نظرا لتقدم العهد به، ولدرجة تمكنه في مختلف المستويات الاجتماعية واللغوية والحضارية في المنطقة.

وقد سقط بعض الأجانب، ممن درسوا بعض ما يتعلق بالمنطقة، في الخطأ عندما أخذوا يرجعون قبائل الصحراء المغربية إلى أصول بربرية قد استعربت في جملتها، متجاوزين طبيعة تطور سنن الحياة الاجتماعية نفسها التي يتذرعون بحجيتها، ولم يسمحوا لأنفسهم على العكس من ذلك، بالقول: ان تلك الأصول تعود إلى جذور عربية قد تبربرت، وزاد في الأمر أن تبعهم دارسون مغاربة في تبني تلك المقولات دون تمحيصها بما يلزم من الدقة العلمية الحقة..

والواقع أن مقولة هؤلاء الأجانب، في هذا الموضوع، غير صحيحة في كثير من جوانبها، ان لم تكن فاسدة بالمرّة، لأن المسألة في جوهرها تتعلق بانصهار كبير بين الجنسين العربي والبربري اتخذ جملة من المظاهر، وكانت وراءه عدة بواعث وأسباب، ثم أصبح من المتعذر مع هذا الانصهار، فيما بعد التمييز بين هذين الجنسين على أساس عرقي محض.

وعلى الرغم من كل ما تقدم، يمكن القول، دون أية مبالغة، ان الانسان الحساني/المغربي -بتغليب هذا المصطلح: جنسا ومنطقة- يوجد في كل أقاليمنا الوطنية جملة وتفصيلا: إما بصفة فردية، وإما على شكل جماعات أسرية، أو فئات عشائرية، يمكن تقدير

عددهم الاجمالي تقديرا شخصيا، وذلك في غياب الاعتماد على إحصاء علمي دقيق، بحوالي اثني عشر مليون نسمة، يوجد منهم نحو: 60٪ في المغرب، بينما يوجد في موريتانيا نحو 30٪ وتتوزع نسبة الباقيين 10٪ في الجزائر ومالي، كما يوجد في المهاجر الأجنبية نسبة من كل جهة منهم، وخاصة في المهاجر الغربية.

5- اللغة الحسانية عربية أصيلة:

ان الامتزاج، بين الجنسيتين البربري والعربي، المشار إليه أعلاه، هو حقيقة واقعية ملموسة لاشك فيها، وقد تم، في صحراء المغرب، شأنها في ذلك مثل غيرها من المناطق، على أكثر من مستوى: ثقافي، لغوي، اجتماعي، سياسي، إلخ.

فإذا كان أبو بكر بن عمر اللمتوني قد صعد من فيافي الصحراء إلى قمم جبال الأطلس، حيث التقى، في يوم من أيام سنة 449هـ/1056 م، بزينب بنت اسحاق النفزاوية⁽²²⁾. فان لحظة التقائهما ليست حدثا عاديا، قد تم بين أميرين أو بين غالب ومغلوب، وانما هي لحظة من لحظات الاندماج بين جنسين متكافئين وبين منطقتين متكاملتين هما: الجنوب والشمال المغربيين، قد تمت في الزمن المغربي على التربة المغربية.

وإذا كان المولى اسماعيل بن الشريف العلوي قد انحدر من تخوم جبال الأطلس إلى رمال الصحراء، حيث التقى، في يوم من أيام سنة 1089 هـ/1677 م، بخناثة بنت بكار المفاخرية⁽²³⁾، فان لحظة التقائهما ليست حدثا شخصيا عابرا، تم بين أميرين، أو بين سيد ومسود، بل إنما هي لحظة من لحظات التفاعل والإنصهار بين الشمال والجنوب المغربيين، فوق الرمال الذهبية المغربية، وبالدماء الزكية المغربية أيضا.

مرت سبعة قرون تقريبا، من التواصل والاندماج، بين اللحظتين المنوه بهما، وإذا أضفنا إليها ما تقدمها من لحظات أخرى وما تأخر عنها، لوجدنا الحصيلة قد تجاوزت ثلاثة عشر قرنا، وذلك بدءا من اللحظة التي وطئت فيها أقدام المجاهدين، من طلائع المسلمين الفاتحين، بقيادة عقبة بن نافع الفهري (ت 63 هـ/ 683 م)، أرض المغرب، ثم ختموها قبل العودة بالتوضؤ بمياه المحيط وإقامة صلاة الجماعة بسوس ماسة، إلى اللحظة التي قام فيها الشعب المغربي بقيادة ملكه، ببناء المسجد المغربي العظيم «مسجد الحسن الثاني»، ثم دشنوه بإقامة صلاة الجماعة بعد التوضؤ بمياه المحيط بشاطيء الدار البيضاء أنفا.

أكثر من 13 قرنا، إذن، من الانصهار والتفاعل والتواصل بين البربر والعرب، وبين الشمال والجنوب الغربيين، وشمل ذلك البنيات كلها، وعلى مختلف مستوياتها.

وكان من بين تلك المستويات، المستوى اللغوي، حيث أصبح بعض الأفراد والفئات العربية يعرفون اللغة البربرية شيئا ما من جهة، كما أن بعض الأفراد والفئات البربرية يتقنون اللغة العربية إلى حد ما من ناحية أخرى.

وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على أن الامتزاج بين الجنسين قد بلغ من التمكن درجة بعيدة قد تصل إلى انعدام الحدود بينهما في مستقبل قريب من الأيام.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن اللغة ما زالت تعتبر هي المعيار الوحيد الذي بواسطته يمكن التمييز بين ما هو بربري وما هو عربي، أما المعايير الأخرى كالجنس واللون والسلوك وما إليها فهي

معايير مشتركة، ولذلك يصعب اعتمادها أدوات للتمييز بينهما بصفة مطلقة.

ومن هذا المنطلق أخذنا بالمعيار اللغوي، في الحديث عن الثقافة الحسانية وعن صحراء المغرب باعتبارها مجالا من مجالات هذه الثقافة، وعن الانسان الحساني مبدعها ومتداولها، محكمين في كل ذلك اللغة باعتبارها المعيار الوحيد السائد، وان كنا لم نهمل المعايير الأخرى مما له صلة بالموضوع.

ومن ثم يمكن القول: ان اللهجة الحسانية، باعتبارها هي السائدة في صحراء المغرب، عربية أصيلة، بحيث يمكن اعتبار أن نسبة تسعين بالمائة 90٪ تقريبا من مفردات معجمها اللغوي تعود إلى أصل عربي فصيح، بينما تتوزع نسبة عشرة بالمائة 10٪ على العناصر الأجنبية الدخيلة.

ان عروبة اللهجة الحسانية حقيقة لا مرء فيها، ولعل أصدق من صرح بها، وأفصح من عبر عنها الشاعر محمد فال ولد عيين، حينما قال من قصيدته المدحية الطويلة⁽²⁴⁾:

انا بنو حسن دلت فصاحتنا	انا إلى العرب الأقحاح ننتسب
ان لم تقم بينات أننا عرب	ففي اللسان بيان أننا عرب
فانظر إلى مالنا من كل قافية	لها تدم شذور الزبرج القشب

وهو يشير في هذه الأبيات إلى مسألة الخلاف الحاصل بين المؤرخين في نسب بني المعقل، نظرا لصعوبة الوقوف على الدليل المادي الملموس، ولكن الشاعر قد وجد المخرج في اعتماده على حجة واحدة دامغة، وهي حجة «اللسان» أي اللغة الحسانية باعتبارها لهجة عربية حية ملموسة، من خلال الأحاديث اليومية، والروايات

الشفوية المتداولة بين ساكنة صحراء المغرب، ومن خلال الكتابات النثرية المختلفة، والقصائد الشعرية المتراكمة عبر الأزمنة، وفي مختلف الأمكنة، وفي غير ذلك من مكونات التراث الحساني، وهي كلها حجج حية ملموسة، لا يمكن دحضها، ولا سبيل إلى الطعن في صحتها.

وتبعاً لذلك فإن اللهجة الحسانية فرع مشتق عن اللغة العربية الفصحى، لكنها قد تعرضت لنوع من الانحراف قد أصاب بنيتها كمياً وكيفياً، ولذلك فهي تعتمد التنبير والتنغيم في النطق بمفرداتها اللغوية، من الناحية الكيفية، لكنها تلجأ إلى إحداث بعض التغيير في صيغها وأبنيتها الصرفية أحياناً، وفي نسقها التركيبي، وفي إعرابها، وهذا ما حاد بها قليلاً عن فصاحتها الأصلية المعهودة.

غير أن هذا الانحراف يعتبر، في الواقع، ظاهرة طبيعية بالنسبة للغة العربية ولفروعها، مثلها في ذلك مثل سائر لغات الشعوب والأمم، في مختلف أنحاء المعمور، وليس شيئاً مقتصرًا على لغة دون غيرها.

وقد أشار إلى هذه الظاهرة في تطور اللغة العربية، العلامة ابن خلدون، أثناء حديثه عن «العرب المستعجمة»، في قوله: «... أن اللسان المصري الذي وقع به الإعجاز، ونزل به القرآن، فتوى فيهم، وتبدل أعرابه، فمالوا إلى العجمة، وإن كانت الأوضاع في أصلها صحيحة، واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أصل الأعراب، فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة»⁽²⁵⁾، وكان قد أشار إلى هذه الظاهرة مرة أخرى في مقدمته بقوله: «... ولما فسد لسان مضر، ولغتهم

التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها، وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة، فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات...» (26).

من خلال هذين النصين يتبين أن هذه الظاهرة اللغوية التي حللها ابن خلدون بعمقه المعهود تنطبق على كل لغات العالم وعلى جميع فروعها، ولا تنطبق على لغة العرب وفروعها فقط، ومن خلالها يمكن أن نستخلص أهم العناصر التي ينبغي اعتمادها في نسبة لهجة متفرعة عن لغة ما، وفي وصف كيفية عملية التفرع، وهي العناصر التالية:

أ- صحة وضع بناء الكلمات الأصلية.

ب- مدى سلامة نسق إعرابها وتركيباتها.

ج- نسبة الدخيل فيها من لغات أجنبية أخرى.

وانطلاقاً من هذه المعايير، والعمل بها في تحليل معجم اللهجة الحسانية، سنتأكد بكيفية لا مجال للشك فيها، أنها فرع مشتق عن اللغة العربية الفصحى، مثلها في ذلك مثل بقية الفروع، وهي لهجة تشبه إلى حد كبير اللهجات المنتشرة في شبه الجزيرة العربية، خاصة منها اللهجة العراقية والدارجة المغربية.

6- اللهجتان : الدارجة والحسانية المغربيتان شقيقتان:

في الواقع يمكن القول: ان اللهجتين المغربيتين: الدارجة والحسانية لا تختلفان كثيراً - هذا اذا أمكن الحديث عن لهجة دارجة مغربية موحدة، والا فان هناك دوارج أخرى لا سبيل إلى الحديث

عنها في هذا المقام - بل انهما شقيقتان لكونهما تتكونان بصفة أساسية، من نسيج يتركب سداه ولحمته، من تراث لغوي وديني واجتماعي ينبع من مصادر واحدة موحدة.

غير أن هذا التقارب بينهما لا يمكن أن يتأتى للناظر من أول وهلة، ولابد من تحليل مقارن يهتم بإبراز أهم الخصائص المشتركة بينهما، ولعلنا نستطيع أن نقرر من خلال تحليل أولي، ان تلك الخصائص المشتركة بينهما يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- أ- نسبة المعجم اللغوي إلى اللغة العربية.
- ب- صحة نسق بعض التركيبات النحوية.
- ج- تغيير نسق بعض التركيبات النحوية.
- د- تصوير البيئة الخصوصية.
- هـ- اعتماد نسبة متقاربة من الدخيل من مصادر واحدة.
- و- الكتابة بالخط المغربي.
- ز- اعتماد الترقيم المغربي.

هذه هي أهم الخصائص المشتركة، من وجهة نظرنا، بين اللهجتين المغربيتين الدارجة والحسانية، وهي التي تجعل منهما أن تكونا شقيقتين، لأنهما عبارة عن مزيج لغوي واجتماعي يتكون من عناصر عربية وأمازيغية وزنجية وافرنجية، بنسب معينة وبكيفية منسجمة ومتقاربة، تبعا للطبيعة اللغوية، ووفقا للخصوصية البيئية.

7- خصائص اللهجة الحسانية:

لعل اللهجة الحسانية أفصح اللهجات العربية على مستوى الوطن العربي عموماً، وربما كانت أقرب لهجات المغرب العربي إلى أصلها العربي خصوصاً، وذلك باستثناء بعض الأعلام البشرية والجغرافية والنباتية، وبعض المصطلحات العلمية، التي تعود إلى أصول أجنبية متعددة.

ويستدل بعض الباحثين على فصاحة اللهجة الحسانية بالدلائل التالية:

- أ - إثبات التثنية كما يثبتها النحاة، ولو بالتزام ياء في المثنى.
- ب - إثبات الإضافة دون استعمال أي وسيط.
- ج - إثبات بعض أوزان الفعل المزيد.
- د - الاحتفاظ بجميع الحروف المعروفة في الفصحى.
- هـ - عدم التباس الحروف ببعضها ولو تم قلبها.
- و - سهولة فهمها في جميع الأقطار العربية⁽²⁷⁾.

وتبقى، مع ذلك كله، بعض الخصائص التي تميز الحسانية عن العربية، وعن غيرها من الفروع الأخرى، وهي التي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- أ - كثرة إسكان المتحركات.
- ب - إبدال حرف بآخر قريب من مخرجه أحياناً.
- ج - الاستغناء عن أداة التعريف.
- د - حذف هاء التانيث.
- هـ - اختصار بعض الحروف والأسماء⁽²⁸⁾.

انطلاقا مما سبق تبدو اللهجة الحسانية نسيجاً لغوياً متكوناً من معجم لغوي ذي أصول عربية محضة، ومن عناصر أخرى متعددة المشارب: أمازيغية، وزنجية، وفرنجية بنسب معينة، وبصفة منسجمة مع طبيعتها الاجتماعية وخصوصية بيئتها من جهة، ومن ناحية ثانية، فإن اللهجة الحسانية، بدورها قد تفرعت، فيما بعد، إلى مجموعة من الفروع - مثلها في ذلك مثل غيرها - لكنها فروع لا تبتعد عنها كثيراً، ويعود سبب ذلك إلى تنوع الفئات الاجتماعية التي تتحدث بها، وإلى تعدد البيئات الطبيعية التي تعيش فيها.

وكيفما كان نوع الاختلاف الحاصل بين تلك الفروع - وهو اختلاف محدود ونسبي على أية حال - فهي جميعاً متقاربة فيما بينها، ومترابطة ترابطاً جدلياً، يوحد بينها الأصل العربي الحساني المنصهر في إنسان المغرب، وفي الوطن والتاريخ المغربيين.

8 - اللغة الحسانية مفتاح بوابة المغرب إلى إفريقيا:

نستخلص من كل ما تقدم أن اللغة /اللهجة الحسانية هي لغة الثقافة الحسانية، وهي لغة الإنسان الحساني في صحراء المغرب، وحيثما وجد في أي مكان من الوطن الأم، ومن خارجه في الدول المجاورة، خاصة في موريتانيا، وفي الدول الأجنبية، في المهاجر الأوروبية بصفة أخص، هي لغة هؤلاء جميعاً وإن بتفاوت بينهم قليلاً.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن اللغة الحسانية تعتبر عاملاً هاماً، وأساسياً في التواصل بين مختلف الشرائح الاجتماعية لسكان صحراء المغرب، على اختلاف انتماءاتهم العشائرية والقبلية من جهة، كما أنها تعتبر أداة أساسية للترابط

الوثيق الحاصل بين مختلف أقاليمنا الجنوبية فيما بينها من ناحية ثانية، وبينها وبين الأقاليم الموريتانية من جهة ثالثة.

وبمعنى آخر، ان اللغة الحسانية عامل أساسي في الحفاظ على الوحدة الوطنية وفي استمرار الترابط بين الشمال والجنوب المقربين، وهي بالتالي المفتاح الأساسي لبوابة المغرب - ومن خلاله بوابة أوروبا - إلى إفريقيا.

وبما أن العناية معقودة على إنجاز مشروع: أنبوب الغاز، وقناة الربط القار، بين شمال القارة الإفريقية وجنوب القارة الأوروبية، مما سيعود بفوائد عظيمة على بلديهما فإنه يتعين على مسؤولينا قبل كل شيء التعجيل بإنجاز مشروع النهوض بثقافتنا الشعبية الحسانية بصفة خاصة، وذلك بالحفاظ على بعض مكوناتها من الأندثار والاسراع بنقلها من المشافهة إلى التدوين، والعمل على تطويرها بما يتماشى مع مقتضيات العصر.

الهوامش :

- (1) المختار السوسي، سوس العالمة، ص ج.
- (2) أحمد الناصري، الإستقصا، ج 7، ص 137.
- (3) عبد الوهاب بنمنصور، حفريات صحراوية مغربية، ج 11، ص 12.
- (4) نفسه، ص 12.
- (5) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 11، ص 375.
- (6) نفسه، ج 11، ص 375.
- (7) نفسه، ج 11، ص 375-376.
- (8) عبد الوهاب بنمنصور، حفريات صحراوية مغربية، ص 17.
- (9) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 11، ص 375.
- (10) نفسه، ج 11، ص 375.
- (11) نفسه، ج 11، ص 8.

- (12) نفسه، ج 11، ص 31.
- (13) نفسه، ج 11، ص 33-34.
- (14) نفسه، ج 11، ص 33-34.
- (15) نفسه، ج 11، ص 119.
- (16) نفسه، ج 11، ص 118-119.
- (17) نفسه، ج 11، ص 119.
- (18) نفسه، ج 11، ص 119.
- (19) نفسه، ج 11، ص 119.
- (20) نفسه، ج 11، ص 120.
- (21) نفسه، ج 12، ص 575-577.
- (22) نفسه، ج 11، ص 475-477.
- (23) عبد الوهاب بنمنصور، حفريات صهراوية مغربية، ص 56-58.
أحمد الناصري، الإستقصا، ج 7، ص 58-158.
- (24) محمد يوسف مقلد، شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ج 3، ص 167.
- (25) عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر، ج 11، ص 8.
- (26) نفسه، ج 2، ص 1124.
- (27) محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، المقدمة.
خليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 41-42.
- (28) أنظر، النعمة باه، المقاييس النقدية في الشعر الحساني.
الشعر الحساني: المجال النقدي والمرجع.

المصادر والمراجع :

- (1) ابن أبي زرع علي : الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، المغرب، 1972.
- (2) ابن حامد المختار : ملامح الوجه التاريخي والثقافي لموريتانيا، مجلة الفكر، تونس، 1977، ع 2.
- (3) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان 1981.
- (4) ابن عبد الجليل عبد العزيز : الموسيقى الأندلسية المغربية، مطابع الأنباء الكويت، 1988.

- (5) أبو ضيف أحمد : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب 1982.
- (6) الأخضر محمد : الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء المغرب 1977.
- (7) الأسفي محمد الوديع : منطقة أيت باعمران: ملحمة البطولة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب 1982.
- (8) اطويف حمادي : التناس في الشعر الحساني، بحث للاجازة، كلية الآداب، أكادير 1988.
- (9) وزارة الاعلام : من أجل تحرير أراضينا المغتصبة، الرباط، المغرب 1975.
- (10) أكفو علي : ديوان شعر حساني، مخطوط، العيون، المغرب.
- (11) باه النعمة : أ- المقاييس النقدية في الشعر الحساني، بحث للاجازة كلية الآداب، مراكش، المغرب 1986.
- ب- الشعر الحساني: المجال النقدي والمرجع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب 1986.
- (12) البعقلي محمد : مناقب البعقلي، تحقيق محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل، الرباط، المغرب 1987.
- (13) البلغيثي لطيفة : خروف منتوف من ضيوف تيندوف، مسرحية مرقونة، الدار البيضاء 1995.
- (14) بنتاويت محمد : الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1982-1984.
- (15) بنعبد الله عبد العزيز : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب 1977.
- (16) بنمنصور عبد الوهاب : حفريات صحراوية مغربية، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب 1975.
- (17) بوعلام عبد المولى : فتاح سبيل النجاة شاطئ المحيط في نسب قبيلة أزوافيط، مخطوط، كلميم المغرب.
- (18) بوكريشة محمد مولود : مدخل للحكاية الشعبية في التراث الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/07/01.
- (19) بويس محمد : دراسة في الشعر الحساني، بحث للاجازة، كلية الآداب، الرباط المغرب 1980.

- (20) الجراري عباس : أ- الزجل في المغرب: القصيدة، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب 1970.
- ب- النضال في الشعر العربي بالمغرب، دار الثقافة، البيضاء، المغرب 1978.
- ج- ثقافة الصحراء، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1978.
- (21) جماعة : أ- باقة شعر من أقاليم الجنوب، وزارة الثقافة، الرباط، المغرب 1985.
- ب- باقة شعر. باللهجة الحسانية، وزارة الثقافة، الرباط، 1985.
- (22) جماعة : الجمهورية الإسلامية الموريتانية، معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع، القاهرة، مصر 1978.
- (23) الجوماني محمد : أسئلة حول الأدب الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/02/04.
- (24) حجي محمد : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب 1977-1978.
- (25) حكيم محمد : السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية، بنشرة، الدار البيضاء، المغرب 1981.
- (26) خنفر علي : تقييدات شرط قبيلة أيت ياسين، مخطوط، أسير، المغرب 1925-1934.
- (27) خنفر محمد علي : أ- كتاب الوسيط للشنقيطي: منهجا وموضوعا، بحث جامعي، كلية الآداب، فاس، المغرب 1985.
- ب- الأدب الحساني يحتاج إلى جهود للنهوض به، جريدة البيان الثقافي، الدار البيضاء، المغرب 1988/01/10.
- ج- الحسانية أقرب لهجة إلى الفصحى، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء 1993/10/01.
- د- تافلويت بلين التنوع والوحدة، جريدة بيان اليوم. 95/08/05.
- هـ- ابن تيفلويت: مرحلة تأسيس عروض الشعر الحساني، جريدة بيان اليوم 95/02/05.
- (28) خنفر محمد فال : الموسيقى الحسانية بين الأمس واليوم، بيان اليوم 1994/06/05.
- (29) الديمان حامد : تحقيق في حرف الجيم، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب 1974.
- (30) الديه فاطمة العزيزة : ملاحظات حول اللهجة الحسانية، بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1995/02/8-7.

- (31) الرباني محمد عبد الرحمن : أ- مدخل إلى الشعر الحساني، مجلة رياض الصحراء، الدار البيضاء، المغرب 1993.
- (32) الرصافي محمد معروف : الأدب الحساني، ندوة الأدب والوحدة الوطنية، العيون، المغرب 1991.
- (33) الركيبى محمد سالم : أ- جوامع المهمات في أمور الرقيبات، مخطوط الزويرات، موريتانيا 1940.
- ب- جوامع المهمات في أمور الرقيبات تحقيق مصطفى ناعمي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1992.
- (34) السباعي عبد الله : الدفاع وقطع النزاع عن نسب الشرفاء أبناء أبي السباع، (د. ط/م.) 1986.
- (35) السباعي محمد : تهذيب الأفكار في أدب الشعر الحساني المختار، المطبعة الجديدة، انواكشوط موريتانيا 1992.
- (36) السوسي محمد المختار : أ- اللغيات، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1963.
- ب- ايليغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب 1966.
- ج- خلال جزولة، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب 1961.
- د- سوس العالمة، بنشرة الدار البيضاء، المغرب 1984.
- هـ- معتقل الصحراء، مطبعة الساحل، الرباط، المغرب 1982.
- و- المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1961.
- ز- من أفواه الرجال، المطبعة المهدية تطوان، المغرب 1962-1963.
- ح- منية المتطلعين إلى من في الزاوية اللغية من الفقراء المنقطعين، المطبعة المهدية، تطوان، المغرب 1961.
- (37) السولامي ابراهيم : الشعر الوطني في عهد الحماية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1974.
- (38) الشامي علي : الصحراء الغربية: عقدة التجزئة في المغرب العربي، دار الكلمة، بيروت، لبنان 1980.
- (39) الشنقيطي أحمد : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء المغرب 1961.
- (40) الطالب بوياء لعتيك ماء العينين : أ- دراسة الشعر الحساني، وزنه وعروضه، مخطوط، كلميم، المغرب، (قبل 1986).
- ب- الحسانية والشعر الحساني: لهجة عربية، وشعر له أوزانه وضوابطه، جريدة البيان الثقافي، الدار البيضاء، المغرب 1987/12/16.

- ج- الأدب الحساني بين القديم والحديث، محاضرة مرقونة، كلية الآداب، أكادير، المغرب 1993.
- (41) عبد ربه محمد : أ- بنية السرد في الحكاية الشعبية الحسانية، بحث للاجازة، كلية الآداب، مراكش المغرب 1988.
- ب- ملاحظات حول الثقافة الشعبية الحسانية، بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/03/06.
- ج- الحكاية الشعبية الحسانية، جريدة بيان اليوم، 1995/07/19.
- (42) عناني محمد زكريا : الموشحات الأندلسية، مطابع الأنباء، الكويت 1980.
- (43) عيديد الحبيب : الشعر الحساني علاقة الكلمة بالإنسان، بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1993/12/03.
- (44) الغربي محمد : الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1974.
- (45) الغزواني محمد : أ- لن يفصل المغرب عن جذوره الصحراوية العريقة، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء 1993/06/16.
- ب- المناورات الاستعمارية واحتلال الصحراء المغربية، جريدة بيان اليوم 1993/06/19.
- (46) الفاسي علال : دفاعا عن وحدة البلاد، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب (د. ت.).
- (47) الفاسي محمد : معلمة الملحون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب 86-87.
- (48) فكيج عياد : دراسة حول قبائل تكنة، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 94/4/1.
- (49) كريدية ابراهيم : ثورة الهيبة بن ماء العينين، شركة الطبع، الدار البيضاء، المغرب 87.
- (50) الكوناني ماء العينين : صورة المرأة في الشعر الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/10/06.
- (51) المدسم الوافي : أ- أمثال شعبية حسانية، مخطوط، كلميم، المغرب.
- ب- الحكاية والشعر في التراث الحساني، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1993/10/01.
- ج- التقويم الزمني الحساني، جريدة بيان اليوم 1995/02/03.
- د- يقول المثل، سلسلة أمثال من نحو 50 مثلاً، جريدة بيان اليوم، بين سنتي 93-1995.

- (52) ماء العينين ماء العينين : صاحب الجأش الربيط، دار الفرقان، الدار البيضاء، المغرب 1985.
- (53) المامي محمد : السلطانية (في مناقب الملوك العلويين)، قصيدة مطولة في 350 بيتا، مخطوط العيون، المغرب قبل 1875.
- (54) مسكة أحمد باب : أ- Al WasiT, Tableau de la Mauritanie au debut de XXème siècle, Librairie C. Klincksieck, Paris, France 1970.
ب- الوسط صورة موريتانيا في بداية القرن العشرين، ترجمة الفتاحي حسن، بحث للاجازة، كلية الآداب، فاس، المغرب 1973.
- (55) مقلد محمد يوسف : شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، المغرب 1962.
- (56) المنوني محمد : المصادر العربية لتاريخ المغرب، بنشرة، الدار البيضاء، المغرب 1983.
- (57) الناصري أحمد : كتاب الاستقصا، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1956.
- (58) ناعمي مصطفى : الصحراء من خلال بلاد تكنة، عكاظ، الرباط، المغرب 1988.
- (59) النحوي خليل : بلاد شنقيط: المنارة والرباط، تونس 1987.
- (60) النص باهي العربي : من التفرقة القبلية إلى مجتمع عصري موحد، جريدة بيان اليوم، الدار البيضاء، المغرب 1994/06/05.
- (61) نوريس (ه) : الموسيقى والغناء والرقص الموريتاني، ترجمة كاظم سعد الدين، مجلة التراث الشعبي، بغداد، العراق، ع 12/1979.
- (62) همام فال : نزهة الأيام ومصباح الظلام، مطبعة الشركة الموريتانية، انواكشوط موريتانيا 1980.
- (63) الوزان الحسن : وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناسرين المتحدين، الرباط، المغرب 1982-1980.
- (64) ولد أحمد ومحمد : الوزن والقافية في الشعر الحساني، بحث للاجازة، كلية الآداب، الرباط، المغرب 1983.
- (65) ولد أباه محمد المختار : الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس، 1987.
- (66) يعته علي : موريطانيا إقليم مغربي أصيل، مطبعة الاتحاد، الدار البيضاء، المغرب 1960.

الشعر الحساني وكيفية صناعته

محمد عبد الرحمان الرباني(*)

التعريف بالشعر الحساني، لغة هو تعبير كل قوم عن أغراض بأصوات هي اللغة. وأما حد الفن فهو علم يبحث فيه عن مفردات الالفاظ الموضوعية من حيث دلالتها. قال بعض المحققين إن مفردات اللغة نصف العلم. والشعر الحساني لا يختلف في شكله ومضمونه عن الشعر العربي الا بقليل.

لقد تأسس هذا الشعر سنة 250 هجرية في هذه البلاد باللهجة الحسانية التي يتداولها أهل هذه المنطقة، وأسسوه على أغراض مختلفة منها : المدح والوعظ والتوحيد، والغزل والنسيب، والوصف، والهجاء، والثناء، والقصة واللفظ.

أما البحور فهي كالتالي : بتْ امرْ يُمِيدْ، وبتْ بُوَعْمَرَانْ، وبتْ السفير، وبتْ : لبِير، وبتْ لبِتَيْتِ التام. وهي موزعة على الفن الموسيقي حسب التوزيع التالي : امرْ يُمِيدْ، مع الكَحَال : كَرْ، وبوعمران مع سَيْنْ، والسُفِيرْ مع : الكَحَالْ هيبْ ولبير، مع لبِيَاظْ ولْبِتَيْتِ مع أعْظَالْ بِيكْ.

كيفية صناعة البيت :

فلنبدأ ببيت امر يميد، إن هذا البيت يتزلف من سبع حركات

هي كالآتي : (للأستاذ محمد عبد الرحمان الرباني) :

(*) شاعر الوحدة الوطنية، من أدباء الصحراء المغربية

مَا كُطِّ وَلَادَمَّ خَمْرٌ بِالشُّرِّ وَسُورَتْ وَخُدَّتْ
أَلَا كُطَّ نِظَامِ اثْبَمْرٌ بِالْحَكِّ يَحْدَفُ بَيْعَتُنْ

نظرة على ترتيب حركات شطر هذا البيت :

1
0 7 0 6 0 5 | 4 0 3 0 2 _

7 0 6 0 5 0 4 0 3 0 2 0 1

0 7 0 6 0 5 | 4 0 3 | 2 1

7 0 6 0 5 0 4 0 3 0 2 0 1

أما عن بت بعمران فيتألف شطره الواحد من سبعة حركات.

يقول الشيخ محمد المامي :

يَا رَبِّ أَمَلْ بَتْرَ شُرِّيش كَيْفَ مَلِيكَ نَوْبَتِ عِلَامْ
لَيْنَ يَبْكَ بَرَبِيْعَ فَيَشْ بَيْنَ يَفْرِفْ هُوَ وَالْدَامْ

0 0 7 0 6 0 5 4 0 3 0 2 0 1 1

0 | 7 0 6 0 5 0 4 0 3 0 2 0 0 1

0 0 7 6 0 5 0 4 0 3 0 2 0 0 1

0 | 7 0 6 5 0 4 0 3 0 2 0 0 1

أما بت السَّغِيرُ فكما يلي :

بَغْيِ أَمْنِ بَيْنَ نِي زَكِي فَيُـنَّانِ تِلَادْ
وَرَجِيَتْ إِخْلُوهَ فِي لَوْلَادِ الْـأُلَّـوْلَادْ

0 5 | 4 3 | 2 0 1

0 5 0 4 0 3 0 | 2 0 1

7 0 6 0 0 5 4 0 3 0 2 1

7 0 6 0 5 0 4 3 0 0 2 0 1

أما بتٌ لبَّيرُ فكما يلي (للاستاذ محمد عبد الرحمان الرباني) :

لَاشُ الْمَـا بَايَعُ مَنْطَفَنُ بِيَّـةُ إِنِ كَلَّتْ إِنِ ضَـايَعُ
رَاجِلُ مَـا بَايَعُ حَكَـةُ عَنُ ضَـايَعُ رَاجِلُ مَـا بَايَعُ

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

أما بتٌ لبَّتِيَّتْ فأنواعه خمسة :

1. البتُّ لكبير
2. بتٌ اثمانِي : كامل
3. بتٌ ست : ناقص
4. بتٌ خمس : ناقص
5. بتٌ أربع : ناقص

ويتضح للقارئ الكريم بادئ ذي بدء، الفرق بين الشاعر الفصيح والشاعر الحساني، لأن الشاعر الفصيح يعد رساماً تجريدياً، بينما يظهر الشاعر الحساني وكأنه نحات مجسد، كما يتضح لك في هذه الصورة التي أحدث الفراق لهذين الشاعرين عند ارتحال الأُحبة الذي أسال دموع العين وأذكى نار الشوق في قلب كل منهما، فأصبح كل منهما وكأنه الغصن الناعم، الذي يرشح أحد جانبيه عندما يتحرق جانبه الآخر باللهيب، فأنشأ العربي يقول : (من البسيط)

كَأَنَّ عَيْنِي وَقَلْبِي بَعْدَكُمْ طَرَفَا غَصْنٌ مِنَ الْبَانَةِ الْخَضِرَاءِ فَيَنَانُ
يَسِيلُ جَانِبَهُ مَاءٌ إِذَا اشْتَعَلَتْ نَارُ مُؤْجِجَةٍ بِالْجَانِبِ الثَّانِي

ثم يقول الشاعر الحساني وكأنه يجسد نفس الصورة : (من بت
لبير)

كَلْبٌ بِالْيَمِ يَنْكُو وَارْمَاكَ اجْفُونُ كَاصُ
كَيْفَ الْعُودُ الِي يَنْشُو رَاصُ وَانْزَنْزُ رَاصُ

إن الشعر العربي ينشد في أي مقام موسيقي، والشعر
الחסاني : كلبتيت، التام ومومايت البت لكبير. والبت لكبير
نفسه، كل هذه لبثوت، كثيرا ماتنشد في اكمال : كر، وسين كر
اللذين هما : مقام فاغ والتحرار.

ونورد في هذا السياق نموذجا من (البت لكبير) في صفات الله:

التكسر، للشاعر أحمد بنب
صَفَاتُ يَنْكُرَا وَمِنْ فَاسٍ إِلَا ابْسَرِيرُ
وَالذَّاتُ اصُّ إِلَي ذَاكَ أَلَا يَغْصَرُ
خَلْفَ اثْرَابٍ أَفْرَاشُ مَا تَشُوفُ فِيهِ سَيْرُ
وَبْنِ اسْمَ بِلَاعِمَدَ وَنَشَاهُ بِلَا أُوجِرُ
وَالزَّوَاتُ صَمْرَهُ دُونُ لَمْسَامِيرُ
وَافْطَنُ شِ صَمْرُ مُلَانَ أَصَمْرُ

11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1
11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1
○ 11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1

ومن لبتيت التام (بت 8) :

عَاكِبُ شَوْقِ اثْرَابٍ إِفْلَانُ وَالتَّيْنُ دُومُ أَصْرَرُ الْخَنَاتُ
شَوْقُنِ يَبِ لِمَزَانُ وَادُ الْعُطْفُ الْغَشَّارِيَّاتُ

$0 \mid \overset{8}{-} \overset{7}{-} \overset{6}{-} \overset{5}{-} \overset{4}{-} \overset{3}{-} \overset{2}{-} \overset{1}{-}$
 $0 \mid \overset{8}{-} \overset{7}{-} \overset{6}{-} \overset{5}{-} \overset{4}{-} \overset{3}{-} \overset{2}{-} \overset{1}{-}$
 $0 \mid \overset{8}{-} \overset{7}{-} \overset{6}{-} \overset{5}{-} \overset{4}{-} \overset{3}{-} \overset{2}{-} \overset{1}{-}$
 $0 \mid \overset{8}{-} \overset{7}{-} \overset{6}{-} \overset{5}{-} \overset{4}{-} \overset{3}{-} \overset{2}{-} \overset{1}{-}$

شَوْفَن يَا حَيُّ الْقَدِيرُ
لَتَشِيْ وَأَنْكَابُ الْبَيْرِ
وَمُزَانٍ أَمْنَحِرُ نَكْجِيْرِ
عَاكِبُ شَوْقٍ اِتْرَابِ اِبْسَرِيْرِ
وَالْوَادِ اِلْ نَاخِرِ الْكَلَاتِ
وَالزَّمْلِ وَالْكَزْمِيْرِ

ومن ابتيت : (6) من الموشحات للأناسيد :

انْمُرْ لِمَ سُنُكُنْ
يَلْ مَـٰلِكَ ثَانِ
جَلَّالَتِ مَلِكُنْ
الْحَسَنُ الثَّانِ

$$\frac{5}{6} \cdot \frac{5}{5} \cdot \frac{4}{4} \cdot \frac{3}{5} \cdot \frac{2}{2} \cdot \frac{1}{1}$$
$$\begin{array}{ccccccc} \underline{5} & \underline{0} & \underline{5} & \underline{4} & \underline{0} & \underline{3} & \underline{0} & \underline{2} & \underline{0} & \underline{1} \\ \hline 6 & 0 & 5 & 4 & 0 & 3 & 1 & 2 & 1 \end{array}$$

ونسوق كنموذج من بت : (5) حَذُو اجْرَادُ (للأستاذ الرباني)

اِخْرَجْنِي مِنَ الْاَرْضِ
وَاَنْتَ اَعْلَمُ بِمَا كُنْتُ فَعَلْتُ
۵ ۰ ۴ ۰ ۳ ۰ ۲ ۰ ۱

$$\frac{1}{5} \quad \frac{1}{4} \quad \frac{1}{3} \quad \frac{1}{2} \quad 1$$
$$\frac{1}{5} - \frac{1}{4} \mid \frac{1}{3} - \frac{1}{2} - \frac{1}{1}$$

وهذا موشح من الأناشيد من بت : (4) اخويويص : (موشح من

الأناشيد، للأستاذ الرباني):

طُفَّانٍ عِيسَىٰ
وَحُتَّمَدَتِ الْم

رَبِّي أَنِّي
لَآنَ حُتَّمَدَتِ

$$\frac{0}{4}, \frac{3}{3}, \frac{2}{2}, \frac{1}{1}$$
$$\begin{array}{r} 5^u \quad 0 \underline{3} \underline{2} \underline{1} _ \\ 20 - 00 \quad 0 \underline{0} \underline{1} _ \\ 4 \quad 3 \quad 2 \quad 1 \end{array}$$

إشراقات من الشعر الحساني

الطالب بوي لعتيك (*)

إن الحديث عن الأدب الصحراوي المغربي يقود قبل كل شيء إلى الحديث عن البيئة الصحراوية التي نما فيها هذا الأدب وترعرع حيث الإنسان الصحراوي في بداوته الأولى قبل أن تمتد به السنين، وتتعاقب عليه دوالب الأيام، فتعيضه عن خيمته قصرا أو قبلا أو منزلا أو كوخا، وعن جملة سيارة أو دراجة أو طائرة...، فلقد كان الصحراوي في باديته يسكن خيمة من الشعر تنسجها امرأته بمساعدة جاراتها وتشيدها بمساعدته لتحتوي كافة مستلزمات البيت من (تيزياتن) الأكياس الجلدية المعدة للخبز و(صرامي) وسائد جلدية و(الرحلة) عيدان حمل القرب وتصفيف المتاع داخل الخيمة.. وتأوي الأسرة بجميع أفرادها حيث تعيش في وئام وانسجام. ويسكن أهل الصحراء على شكل مجموعات تسمى (الفرگان) ج فريگ، أي الفريق، لأن الحياة في الصحراء، تتطلب نوعا من الأنس والتعاون، ولو أن البعض يرجع سبب ذلك إلى أسباب أمنية، لكن الحياة في الصحراء آمنة مطمئنة في غالب الأحيان، تطبعها روح التعاون والصدق في المعاملة، أما وسيلة النقل التي تجوب أطراف الصحراء المترامية بكل صبر وبأقل وقود، فهي الجمل ويسمى (أزوزال) ج (أزوازيل) ونعني به الجمل

(*) باحث في أدب الصحراء المغربية، مندوب وزارة الشؤون الثقافية بكلميم.

المخصي، ويستعمل للركوب وحمل الراحلة والمتاع. وكلما دربت الأنثى على القيام بنفس المهام، إلاوسميت (الصيدح)، وقد كان للجمل أسماء عديدة تبعا لسنة واستعمالاته منذ ولادته إلى أن يبلغ سن الشيخوخة، لا مجال لذكرها الآن، وإنما اقتصر على أن كلمة الجمل، بصريح العبارة، تعني الفحل الذي تقتصر مهمته داخل القطيع على تعشير النوق، وللإشارة أيضا، فإن فحلا واحدا، يكون لقطيع إبل، فمن المستحيل بتاتا أن يوجد فحلان في مجموعة إبل واحدة، نظرا لشراسة طباعه. وفي عرف أهل الصحراء، يقال باللهجة الحسانية (فَحْلَيْنْ مَا يَنْهَدُ وَاقْدَوْلَة)، أي ان فحلين لا يتركان في دولة إبل، أي قطيعها. ومن المسميات الأخرى، هناك أوسراط وأداريف، وهناك أراج وأشنان، وهناك لكعود كناية عن الفحل أيضا.. وكلها أسماء تطلق على الجمل في مراحل تدريبه على الاستعمال منذ أن يجتاز فترة الرضيع، التي يسمى خلالها (لِحْوَارُ) أي الفصيل، إلى أن يبلغ سن الشيخوخة كما قلت.

إلى جانب هذين العنصرين الأساسيين في الصحراء، أي الإنسان والبيئة الصحراوين، نما الأدب الحساني وكان بمثابة الرابط الأساسي بين مكونات الحياة الصحراوية من الإنسان إلى الجمل إلى الخيمة إلى عناصر البيئة الأخرى بما في ذلك المطر والربيع والليل والنهار والبرودة والهاجرة والأشجار والتلال الرملية، وغير ذلك، فجاء مرآة صادقة، عكست الحياة الصحراوية بكل حالاتها الاجتماعية والسياسية والإقتصادية. فصورها تصويرا دقيقا، شفافا، صادقا، حيث حفل بالفخر والهجاء والرثاء والبكاء على الأطلال والحماسة والفخر بالعشيرة، وتغنى بالمرأة والجمل، فأنشد شعرا وتلى تعبيرا منمقا، يصف أماكن السكن والأرض

المعشوشبة والغدران الطافحة والعرصات الفيحاء. ثم أمضى الصحراوي وقته في النكات والأحاجي، فكان حديثه نثرا بليغا طيبا، حسن السبك والتعبير، أما ما أنشد شعرا، فقد تغنى به الصحراوي حاديا وراء قطعانه على جنبات الغدران وبين عرصات الربيع تحت أشعة القمر المتلألئ أو أثناء جلسات الشاي ذي الكؤوس المترعة الطافحة بالبساطة واللين والعفاف ودمائة الاخلاق وكرم الضيافة.

والشعر الحساني منشوب إلى أولاد حسان، وهم - كما في بعض كتب التاريخ - من بطون معقل، استوطنوا المغرب من جنوب السوس إلى نهر السينغال، وهو الجزء الذي يضم الصحراء المغربية والقطر الموريتاني الشقيق، الموطن الأصلي للهجة الحسانية أداة هذا الأدب شعره ونثره.

واللهجة الحسانية لهجة عربية، يكثر فيها تسكين الحرف الأخير غالبا، وتكثر فيها السواكن بتداخل مع المتحركات، وهي في غالبيتها عربية ظاهرة، إلا أنها تحتوي أحيانا بعض الكلمات القليلة التي لا أصل لها في العربية. والشعر الحساني شعر منظوم له أبحر وأوزان بسواكن ومتحركات، لا يمكن تجاوزها في النظم، ويتكون البيت فيه من أربعة أشطار، يسمى الواحد منها تافلويت ويسمى البيت كله (بالگاف) بحيث يكون لشطريه الأول والثالث نفس الروي ونفس الحركة، ولشطريه الثاني والرابع أيضا روي وحركة واحدة. وإذا اتفقت الأشطر الأربعة في الروي، وجب اختلاف الحركة على النحو المذكور سابقا. يقول الشاعر:

بِالْعَـكْـلِ اَمْنَلْ تَرْجَـاهُ	مَا تَلَيْتْ اَمـm
كـمـm	عـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـm

وأقل بيت في الشعر الحساني يتكون من أربعة أشطر ولا حصر لأكثره، لكن إذا زاد على الستة أشطر، يرقى إلى درجة (طلعة) أي القصيدة، ولهذه الأخيرة أيضا نظام خاص يختلف عن نظام الكاف (البيت) فانبطاعتها تكون بثلاث تيفلواتن (أشطر) لها نفس الروي ونفس الحركة، وتسمى (حُمُرُ الطلعة) أي مطيتها للانبطاعة، أما الشطر الرابع فيختلف عن الثلاثة الأولى ويسمى الكسرة، وبعد الحمر والكسرة تأخذ الطلعة نظام الكاف في التركيب، أي شطر على غرار الحمر وآخر على غرار الكسرة ولا حصر لأكثرها وأقلها ستة أشطار.

يقول الشاعر:

بِيْ هَذَا الشُّيْبَاتِ كُـارَةٌ عِثْ الْحَبِيْبَاتِ
نَمَتْ أَنْشُوفٌ أَعْلَى نَمَاتِ اسْتَفْهَارَاتِ امُّنَاتِ
مَلَّهَا هُمْ وَاهَرُوبَاتِ مِنْ ذُو كُـمَمَاتِ

وقد تطول الطلعة فتأخذ مسميات عدة فهي الكرزة (بترقيق الراء) أو اتهدينة إذا ما تزامنت عمليتي الابداع الشعري والغناء لدى الشاعر، وعند ذلك تثير حماسا أو مدحا ملفتا. وقد يبدع المبدع عدة قصائد يختتمها ببيت واحد (كاف) وعندئذ تسمى (مِظَايِرَاتُ أَعْلَى كَاف) أي كأنهن ضرات لبيت واحد، وكلما ختمت القصيدة الحسانية بكلمة تدعو إلى التساؤل والبحث عن جواب، تجده في الكلمة الأولى التي ابتدأتها بها فهذه تسمى (عَاطٌ اسْتَبِيْبُهُ) أي حلقة مغلقة، وهي من جيد الابداع، ولا توجد إلا عند ذوي الخبرة على غرار المثال السابق، فالشاعر يقول إنه أصبح يرى فتيات صغيرات السن يتأتى ملهاهن ولا يستطيع ذلك لهروبهن منه، والسبب ما بدأ به القصيدة بِيْ هَذَا الشُّيْبَاتِ، ونجد ذلك في

البيت العربي القائل:

قالت بنات العم: ياسلمى وإن كان فقيرا معدما قالت وإن

وللإشارة فإن الشعر الحساني له منتجان: منتج مغني شاعر، ومنتج شاعر فقط، والشاعر المغني يسمى (إيغيو) ج (إيكاوُن) وهم المطربون، وتسمى أنثاه (تيگيويِت) ج (تيگُواتِن) أما الشاعر فهو الذي ينتج الشعر الجيد ولا يغنيه، ويجيد نقد الغناء، وله خبرة بالمقام المغنى فيه أو الذي سينتج على منواله، ويتمتع (إيغيو) بصوت جميل وخبرة واسعة في شد الأوتار ودوزنتها، وله إلمام تام ببحور الشعر وأنماط الغناء، وله آلة يعزف عليها تسمى (تيدنيِت) ولأنثاه آلة تسمى (أردين) ويسمى الشاعر بالحسانية (لمغن) ولا تعني المطرب بتاتا وإنما هي قياس المبدع المجيد للشعر الحساني.

وللشعر الحساني أبحر يغنى عليها، كما له أوزان يوزن على منوالها، وأثناء وزن البيت أو الطلعة، يجب الاعتداد بالمتحركات ولا حصر للسواكن، وأكثر المتحركات ثمانية، وقد تكون عشرة لكنها نادرة، وتسمى الأبحر عند أهل الحسانية (لبتوت) ج (بت) وتعتبر الميزان الحقيقي للشعر الحساني، وهو بمنزلة العروض للشعر العربي، ولكل (بَت) إسم وعدد من المتحركات يجب أن تتوفر في الشطر الواحد ويقاس عليه بقية الأشطر، وكمثال على ذلك هناك البت الكبير من سبعة إلى عشرة متحركات ولبتيت (تصغير البت) التام وهو ثماني متحركات، ويليه ما نسميه التيدوم وهو سبعة متحركات، ويليه لبتيت الناقص ستة متحركات، ويليه ما يسمى عند المغنين حثو الجراد كناية عن سرعته وهو من خمسة متحركات، ويليه المختطف من أربعة

متحركات، وهناك أيضا بثٌ متحركين ومتحرك واحد وهو نادر، وللشعر الحساني - بصفته شعرا غنائيا - أبحر يغنى عليها مقسمة أول الأمر إلى أربعة هي: سَيْنِي - فاغُو - سَنِيمَة - لِبَتَيْت. ومالبث المغنون أن طوروها إلى ثمانية، حيث قسموا البحر إلى بحرین قياسا على شد الأوتار وارتخائها، وأطلقوا على كلتا الحالتين إسمًا من خلال صفتين بيضاء وسوداء، فكلما تم شد الأوتار وأحكم وتعالّت أصوات المغنين، إلا وكان لون الجانب المغنى فيه أسود، ويكون عكس ذلك أبيض في المقام المغنى فيه نفسه، ولا أستطيع الخوض في هذا الميدان لأنه يتطلب أمثلة وقياسات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ورغم ذلك فسأعطي صورة لانطلاقة المغني الذي يبدأ بدوزنة آله ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ما نسميه المديح، ثم ما يلبث أن ينتقل منه إلى بحر سيني وكأنه ركب راحلته ويمم صوب الأحبة وأنشد من روائع الشعر غير أنه بما يعترضه من مسافات وأحوال كأن يقول مثلا:

يَالْعَـكْلُ امْنِلْ تَرْجُـاهُ مَا ثَلَيْتُ امْحَمُّكَ شَـأِي
كَـأَنْتَ امْ تَوَعَّ وَرَاهُ عَـاذُ بُوهُ امْلُ وَعُـأِي

المعنى انه فقد الأمل ممن كان يرجو لقاءها وقت السرى، فقد كان يتحاشا يقظة أمها التي لا تنام كثيرا، فإذا بالآب أيضا أصبح يقظا هو الآخر، فما العمل يا ترى؟

ولا يلبث المغني أن يحسن شد أوتاره ويستعد لتشجيع سيد العشيرة لمواجهة العدو أو مدحه بشتى الخصال الحميدة، وذلك ما يسمى فاغُو، بعد ذلك يحاول أن يتخلص من هذا الجهد ويتحرر بكلمات شعرية وثيدة، من الحماسة وإظهار القوة، إلى الهدوء والرتابة، وهو ما نسميه الكحال سنيمة ثم بياضها، يلي ذلك آخر

البحور الحسانية وهو لبتييت وله أيضا بياض وسواد، قياسا على ما سبق ذكره من شد الأوتار وارتخائها. ومن خصائص هذا البحر الهدوء والسكينة، تنشد فيه المطولات الغزلية والطللية، ويقوم خلاله المغني بسرد بعض الحكايات الغرامية، يقطعها من حين لآخر بعزف مريـر وإنشاد خفيف، فلا تسمع الا تأوها من طرف الحاضرين ينم عن الترنم والإعجاب، وأكثر الوقت ملاءمة لهذا البحر، سكون الليل ويقظة السمار وهمس الندامى وحشـرجة الأوتار...

أما عن أغراض الشعر الحساني، فلم يترك غرضا عالجه الشعر العربي الا جاء به وأجاد بل ان فن المساجلات على غرار نقائص جرير والفرزدق مثلا، لتـرى في الشعر الحساني على مستوى عال من الجودة، مع انها تعالج هي الأخرى جل الأغراض من مدح وهجاء ورثاء وشؤون اجتماعية وفخر وغير ذلك، وعموما فقد كان الشعر الحساني لسانا ناطقا أميناً على ما أودع فيه من صور صحراوية مختلفة أملتـها البيئة الهادئة المطمئنة التي عانقها الصحراوي وعانقته، وسأكتفي بإعطاء بعض النماذج من هذه الأغراض مع إلقاء الضوء على بعض الصور الجميلة التي جاء بها خياله المتقد يقظة وذكاء وفطنة. يقول الشاعر الحساني في المدح:

أَحْمَدُ لِلدَّيْدِ إِلَى نِدْكَرْ	لَعْدُ تَنْوُطُ فَجَمَرْ
وَالْكَلْبُ إِخْفَ أَيشْ شَتْمْ	مَنْ ذَكَرْ فَلَفَّ يَفَافْ
لَيْثُ اسْلِيْطْ أَحْمَدُ مِشْتَهَرْ	بِرَجْلٍ حَافِ شَافِ
وَأَثَرُ الرَّجْلِ مَفَاتِ مَرْ	أَلَا رِدْمُ فَنَاتِ السُّفَافِ
يَغْطِ لِلطَّرْبِ أُمُـوْلُ هَوْلُ	وَدَيْبُ آلَاهُ حَافِ
وَأَعْلُ اللَّهْ تَاكِلْ وَارْسُـوْلُ	وَدَيْبُ آلَاهُ حَافِ

يصف الشاعر ممدوحه بشتى الأوصاف البطولية المستقاة من البيئة الصحراوية، فعند ذكر الممدوح «أحمد للديد» ترتعد فرائص

العدو ولو كان ذكره في الفلوات، حتى لكأنها تطأ اللظى وتخف القلوب وكأنها ستفر من أقفاصها الصدرية لماذ إذن؟ لأن أحمد للديد أسد هصور، سليط اليد، اشتهر بالرجولة، يشفي الغليل فيها وأثر خطاه فيها لم تمحه الرياح المحملة بالحصى (السَّافِ)، يعطي لأهل الطرب، صاحب دعابة وطرب، أديب مؤنس (ماه حَافٍ) يتكل على الله ورسوله وينفي ما سواههما. فمن خلال هذه الأوصاف التي نعت بها الشاعر ممدوحه، نستشف حركية أخذتها القصيدة ارتفعت بها عن الركود، فهناك قوة واندفاع تعبيراً عن القوة والصرامة إلى جانب الظرافة والطرب والاعتماد على الله.

أما المرأة فقد حازت أكبر قدر في حياة الإنسان الصحراوي الشعرية لأنها ألفت في جل أوقاتها، ساندته وساندها وملاً كل منهما فراغ الآخر، فجاء فيها بشعر بارع مصوراً لمواقفه معها بكل رقة وعذوبة وشفافية، انساب من بين أضلعه رقيقاً، فقطرته الشفاه زلالاً صافياً، وعانقته الأذان رطباً ليناً، وانسأقت له النفوس طيعة نشوى، وذلك لما ابتكره من صور خيالية صيغت بإحكام حتى لكأنها واقعية تماماً. وكنموذج، نستمع لهذه الرائعة:

يَا مَسْ يَفْلَ غَيْدُ التُّشْهَارِ	اَتْفَشْشَوْلْتُ اَنْتُومَ حِطَارِ
خَلَّتْ اَمْنَحْذَاكُمُ لَمَنْفَرَارِ	شَفْشَفْتُكَ شَوْفَ بَادَتْ بِيْ
وَأَثْرِي كَبُرْتُ لَخَبَّارِ	اَغْمَمَزْتُكَ غَمْمَزِيْ حِي
وَأَقْطَنْتُ صَيْدَكَ فَاتِ اشْكَارِ	وَجْهَ وَاخْمَمَارُ عَيْنِيْ
وَأَسْكَنْتُ اَعْلَ ذَاكَ التُّطَاوِ	وَأَتْهَمُ عَنْهُ حَالُ فِي
أَعْتِ الْأَكْمَ دَ اَمْنَيْنِ الْيَمِ	اَنْشَوْفَكَ خَوْفُ الْمِشْلِي
الرَّمْشِ عَمَّيْنِيْ وَأَنْتُمْ	غَمْمَزِيْ تَعْكَبُ غَمْمَزِيْ

إن شاعرنا لسوء حظه مر بجانب من أوقعته في شراكها وقد أوشكت الشمس على المغيب (الإصفرار) وهي آنذاك بجانب زوجها،

ولشدة الهيام بها، لم يتمالك نفسه وبعث إليها رسالة بطرف عينه، ومن سوء طالعته صادفت رسالته عيني زوجها وقد حملت كالشهب، فاصفر وجه شاعرنا المتيم المسكين واحمرت عيناه من الخوف، لكنه انقذ الموقف لشدة ذكائه وسكن على حالته وبدأ يرسل سيلا من الغمزات متلاحقا وكأن به مرض غمز مستديم....

هذه الصورة الأدبية الرائعة تنم عن خيال واسع، وذكاء حاد وتصوير دقيق، لموقف متميز حتى لكأنه واقعي.

وفي خيال آخر ولتصوير حالة مختلفة يقول شاعر آخر:

اَظْهَكْتُ الْغُـبـَـيْلَ أَرَاكَ	مِنْ غُـيـَـرٍ هَـيـَـدَكَ ذَاكَ
هُوَ كَأَنَّ أَثْرَ شَـأْكَ	إِنْ حَـأَلَفَ يَأْنِ
مَا نَظَّحَكَ كُـوْنُ امْـعَاكَ	وَأَثْرُ خَـطَاظٍ أَحْـذَانِ
وَاسْتَنْتَـهُمْ يَلْغَـرَادِ	عَنْكَ فَمُ أَجـَـبَانِ
أَلَا جَبَّـرُكَ وَأَبْكَ شَادِ	لَخُبَّارِ امْـعَايَانِ

لقد ضحكت من زوجك ومن غيرته عليك كثيرا، ذلك انه كان يظن أنني لا أسلو بغيرك أبدا، ولما مر بجانبنا ظن أنك معنا فلم يتمالك ان دخل، ولما لم يجدك أخذ يتجاذب معي أطراف الحديث الذي لم يكن هدفه الحقيقي ولكن صيانة لماء الوجه...

أما الهجاء في الأدب الحساني فلم يكن فاحشا بذيئا ولكنه اقتصر على التلميح والاشارة وهو قليل نسبيا، وكمثال على ذلك ما تحاور به الشاعران في المساجلة التالية: قال الأول:

اشْرُوطْ الْيَكْمَ بِالتُّخْفِيفِ	اشْرُوطْكَ يَحْمَدُ مَا هُمْ كَيْفِ
تَمْيِشُ تَكْصُرُ عَيْنُ الْعَارِ	عَنْدَكَ طُوبَتْ شَبِيبِ اَظْهِرِيفِ
غَيْرِ اَزْنَادِكَ مَا فِيهِ النَّارِ	بَيْتِكَ زَيْنُ اَصْبَرَعِكَ نَظْرِيفِ

فأجابه الثاني:

أَزْنَادُ لَمْ يَعْلَمْ بِبَيْدِيَّةٍ دَلَّ بُولٌ وَاحْتَلَفَ مَا يَسْتَكْبِيَّةُ
بَيْدِيَّةُ الْحَقُّ أَنْ مَا نِعْطِيَّةُ غَيَّرَ أَصْلُ لَمْ يَعْلَمْ دَلَّ عَارُ
أَمْشٍ بِكَرَاعِكَ لَيْتَنُ أَتَجَبِيَّةُ وَاحْكِيْلُ هَذَا مَلْخُ بِيَا
أَبْفُكُمْ عَنْ شَيْئِنِ أَعْلِيَّةُ دَلَّ بُولٌ لِزْنَادِ ابْتِلَا نَارُ

في القصيدة الأولى يلمح الشاعر إلى أن مخاطبه يملك أدوات تدخين جميلة (الشروط) بما في ذلك عود الثقب (تميشة) وعظم التدخين الأنبوب المسمى (الطوبة) إلا أنه قال في معرض مدحه إياه (تميشة تكصر عين العار) وكسر العين كناية عن عور بعين المخاطب، وعند الحسانيين فلان يكسر في عينه أي به عور، وهنا أجابه الثاني بما يلمح للمعائب التي به هو أيضا مبتدأ بقوله (الحق أن ما نعطيته) ويعني إعطاء الفرامة ثم قال له (امش بكراعك) وهي إشارة إلى أن به عرج، وفي قوله له و(احكيل هذا ملخبار ابفمك..) كناية عن أسنان فمه الساقطة... كل ذلك تم بطريقة لا يستطيع إدراكها إلا من له معرفة بالمخاطبين مع الذكاء الحاد.

أما البكاء على الأطلال فقد أجاده الشاعر الحساني أيما إجادة، بكى على الطلل بقلب كلیم وذرف دمعا مدرارا ونفث من كبده خرى حيث قال مثلا:

حَدُّ الْخَصْرِ لِي ذَا الدَّهْرِ الْخَطَارُ الدَّمْعُ أَعْلَى دَارِ أَمْ بَطَارُ
حَكُّ انْذَاكَ أَعْلَى مَثَلِ عَارِ يَكْهَنُ حَزْ أَوْاسِيَّةُ
غَيَّرَ الْخَطَارُ الدَّمْعُ أَعْلَى دَارِ أَمْ بَطَارُ ابْتِلَا غَرِظَ فَيَّةُ
فَالْحَكُّ أَنْ مِثْلَ فُكْدُش فَمُ أَعْيَيْتُ أَتْرَاهُ أَبَدِيَّةُ
وَتَمَّ الدَّمْعُ الْأَيْمَشُ مَاهُ كَغَاغُ أَنْ لِمَشِيَّةُ

لئن عاب علي أحد كوني ذرفت الدموع على (دار امبطار) قد يكون ذلك صحيحا نظرا لأن مثلي يعاب عليه ذرف الدموع، لكن

تقطير دموعي على دار امبطار لا دخل لي فيه، إنما تذكرت شيئاً في هذا الحي كنت أجده فلم أعد فينسكب الدمع مدراراً من تلقاء نفسه.. ويلوم الشاعر الحساني الدهر ويشكو قساوته متألماً منكسراً فيقول:

هَذَا الدَّهْرُ أَتَّفُ بِبِيْسَةٍ	مَارَتْ عَنْ غَمَارِ
مَلَاهُ تُوْرَ فَيِيْسَةٍ	حَلَاوْ مَا تَمْرَارِ
خَظْتُ أَعْلَ دَارِ الْيُسُو	أَهْلَ أَيِّ يَالْقُسُومِ
شَفْتُ أَكْوْمَ الثُّيُودُومِ	لَمَسَسَهُمْ كَانِ الدَّارِ
مَخْرُوكِ أَعَادِ اخْمُومِ	سُبْحَانَكَ يَالْقُسُومِ
مَغْفُودِ خَرَاكِ أَكْوْمِ	مَاهُ فَاهِمِ لَخَبَارِ

اف لهذا الدهر ما أغدره، فكلما حلت أيامه إلا وأعقبها مرارة حنظل، لقد مررت اليوم على دار (أهل أي) وكان بمؤخرتها شجر التيدوم فوجدته قد أصبح فحماً قاتماً بعدما كان يانع الإخضرار، وارف الظلال! سبحانك اللهم! ألا يعلم محرقه الخبير؟ ألم نكن نستظل به بعيداً عن أعين الرقباء، ألم يكن حفيفه يوصل همسنا لبعضنا البعض والغباوة الفاعل! اف لهذا الدهر ما أغدره.

أما البيئة ببقية مكوناتها، فقد حازت على قسط وافر من مناجاة الشاعر الصحراوي، وحصل الجمل على القسط الأوفر لأنه أنيس الوحشة، رفيق الفلاة، صديق المعاناة.. فخاطبه الصحراوي حميماً، وحثه مطية، وشكره مساعداً، كما كان شأن الشاعر الجاهلي مع فرسه وجمله ورمحه وقوسه.. يقول أحدهم:

عَاكِبُ تَسْتَدَارِ فَاوْكَارِ وَكُتْدَ تِيرْسِ وَكُتْدَ أَدَارِ
وَمَسْكَكْ وَغَلَابُ شَارِ وَأَبْعِدْتُ أَلْ يَلْهَيْنِ
هَذَا نَجَيْتْ أَعْلَا يَدَارِ وَفَزْنِيهِ أَرَامِينِ
رَاجِ فَالْهَ أَذَاكَ جَاءَ أَفْزَيْنَ لَا يَرْزَيْنِ
فَزُو زَالِ فِيمَنْ يَنْ عَاءَ يَرْكَبُ وَكُظْ أَفْزَيْنِ

يسأل الشاعر الله سبحانه أن لا يريه مرزية في جملة (ازوزال) عندما، أصبح يعلو ويهبط في شعاب المكان المسمى زيني، بعدما قطع أرض تيرس كلها بسلام. ويقول آخر:

أَعْلَ الْوَادَ لَا نَصَبْتُ رَاحِلَةَ عَنْ لِمَنْ حَالِ
كَافِينَ كَغَاغَ إِلَى أَرْكَبْتُ وَأَعْطَيْتُ أَعَشَرَ لِيَالِ

(الوادة) هو الإسم الذي أطلقه الشاعر على ناقته الأنثى وفي هذا البيت فإن أمنيته الوحيدة ان ينصب راحلته عليها ويمضي عشر ليال، وكان الصحراوي يطلق على جملة أحسن الأسماء ويخاطبه بأطيب التعابير، يحثه على السير أو الصبر ويوعده بحسن الجزاء والمكافأة إذا هو أوصله إلى خيام العشيرة أو مكان إقامة الأحبة..

وبما أن الشعر الحساني تأثر هو الآخر بالبيئة، فقد تغيرت مضامينه وتعابيرهِ وصوره بحلول الانسان الصحراوي بالمدن وتأثره بالظروف الاجتماعية والسياسية الجديدة، فلئن صور الخيمة وازوزال والعرصات آنذاك، فقد صور اليوم القصر والقيلا والسيارة والعلاقات السياسية والحروب الآنية والمؤتمرات وغير ذلك.. وشغل الشعر الوطني حيزا هاما من الرصيد الشعري الحساني، وفي النموذجين المواليين نجد الأول يصور التحالفات القبلية في حقبة من الزمن كانت القبائل تكون الأحلاف من أجل

الدفاع عن النفس، وتدعو ما استطاعت من القبائل للوقوف إلى جانبها، لكن الشاعر يرى أن ابتسامة بريئة من فتاة تتهجي الأحرف، كفيلة بإرجاع الإخاء إلى المتناحرين فيقول:

ادْلَيْمُ أَغْيِيْلَانْ أَمْشَظُوفْ	كَمَفْدُ فَالشُّرْ أَفِيْهْ أَكُوفْ
وَأَبْيِيْرْ وَأَسْبَبَاغْ الْأَشُوفْ	يَعْكَبْ شُوفْ أَمْوَتْ الْقَلِيَانْ
وَأَجْـوَاكِينْ أَتْكَرْنْ لُوفْ	الدُّوْرُهُمْ لِلشُّرْ أَعْـوَانْ
هَذَا لَشَّـسَاافْ يَالرُّوْوفْ	تَثْفَانْ أَطْفَيْلْ هَوْنْ أَتْبَانْ
تَثْبِيْسُومْ وَالدُّمَّكَ لِحُرُوفْ	يَتَخَاوْ مِنْ ذَاكَ التَّثْفَانْ
ادْلَيْمُ أَغْيِيْلَانْ أَمْشَظُوفْ	وَأَبْيِيْرْ وَسَبَبَاغْ أَجْكَانْ

وشاعر البيئة الجديدة ينظر نفس النظرة إلى الحروب المشتعلة في البوسنة والهرسك والتي دارت في الخليج، يقول:

هَذَا الْقَمْنَرُ الْيَوْمُ الْبَانْ	فِيْهْ أَكْدَاتْ أَتْبَانْ النَّيْرَانْ
رَادْ أَعْلِيْسَهْ الْحَيِّ الْمُنَّانْ	فِيْهْ أَكْدَاتْ أَتْبَانْ النَّيْرَانْ
فَاتْ الْعِرَاقْ أَمْعَاهْ إِيْرَانْ	فَلْحُرُوبْ أَكْبَيْلْ أَتْهَانْ
وَالْخَلِيْجْ أَلْ فَاتْ أَشْيِيَانْ	وَأَتْهَانْ فَاتْ سُكَّانْ
وَالْبُوسْنَهْ وَالْهَرْسِكْ لَمَّانْ	أَعْلِيْسُهُمْ بِقَدْ شُطَّانْ
هَذَا لَرَاوْ الرِّيمْ أَقْسِيْتْ	الشُّرْ إَاطَفْ دُخَانُوعُوْدْ لِلْكِيفِتْ كَّانْ
وَالْقِرَاقْ إِرْخَاوْ لِكُوِيْتْ	وَعُودْ لِلْكِيفِتْ كَّانْ

ولكن هذا التطور الذي عرفه الشعر الحساني أفقده بعض السمات، رغم أن المبنى ظل كما هو، إلا أنه طبع بطابع السرعة والحدائثة فغابت بعض العبارات الحسانية ذات الدلالة والرنه والموسيقى الشعرية الجذابة، وحلت محلها عبارات سطحية قاصرة، وبات الأسلوب ضيقا، وكثر النظامون والمتكسبون بالشعر بما في ذلك شعراء (البظان) وهذه التسمية هي التي كانت تفصل بينهم وبين المغنين (إيكاون).

وعلى كل حال فقد جاء الشعر الوطني بصور جميلة لا تخلو من جودة في الابداع ودقة في الوصف والتعبير، فصور الأحداث التاريخية الوطنية الهامة كالمسيرة الخضراء ومسجد الحسن الثاني، ومؤتمر فاس والمناسبات الوطنية... كما صور أيضا بعض الأحداث الدولية الهامة كمعاناة الفلسطينيين والبوسنة والهرسك وغيرها.. يقول الشاعر في عيد العرش:

عِيدُ الْعَرْشِ الْبَيَانُ لِمَجَادِ عَنْ وَهْفٍ عَاجِزٍ رَسَامِ
يَسُودُ عَدْلٌ لِيُحَرِّمِدَادِ وَعَدْلٌ لَشُجَّارِ أَقْلَامِ

هكذا ظل الشعر الحساني حاضرا في شتى المناسبات رغم معاناته المتمثلة في عدم التدوين، إذ تحفظه الذاكرة وتلوكه الألسن، وبموت العديد من المسنين نواري تحت الثرى سجلات دسمة منه، تحتوي عادات وتقاليد شعبية صحراوية، تعتبر جانبا من حضارتنا وقيمنا وأخلاقنا... ونتمنى أن يعرف طريقه للتدوين في الوقت المناسب قبل أن يندثر.

علاقة أدباء الصحراء بالملوك العلويين

أبوبكر أولياس(*)

من المعلوم أن بلاد شنقيط أو بلاد البيضان كما يسميها أيضا بعض الباحثين(**)، تضم إلى جانب منطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مناطق أخرى تشمل مجموع أراضي موريتانيا، وحوض السنغال، والجزء الشمالي الغربي من مالي، ويعرف هذا الجزء بمنطقة «أزواد».

يقول المرحوم الأستاذ عبد الله الجراري في تعريفه لبلاد شنقيط: «هي عبارة عن مدينة بالصحراء الكبرى من المغرب، بيد أنه صار يطلق عرفا على إقليم كبير يمتد ما بين الساقية الحمراء وبلاد السنغال وسكانه الأصليون من قبائل الملثمين كلمتونة وكدالة ومسوفة من قبيلة صنهاجة وهي من البربر على ما صحح»(1).

ولمن أراد التعرف على بلاد شنقيط عامة، وما يتعلق بالمنطقة جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا وأدبيا، فليُنظر إلى مؤلف أحمد ابن الأمين الشنقيطي «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، وهو ديوان الشعر الذي قاله معاصرو المؤلف. فالكتاب فعلا لم يترك شيئا

(*) من الباحثين المهتمين بأدب الصحراء المغربية، أنجز رسالة جامعية في موضوع: (الصورة الفنية في شعر الصحراء المغربية من منتصف القرن 19 إلى أواخر 20) تحت إشراف الدكتور عباس الجراري ونال بها دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب، شعبة اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، الرباط.

يتعلق بالصحراء إلا ذكره وعرف به، ومن كلامه على شنقيط هل هي من السودان أو من المغرب، يقول: «شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد، وذلك معروف عند أهل شنقيط، وأهل المغرب»⁽²⁾.

أما عن الأدب في بلاد شنقيط، فهو جزء من أدبنا في المغرب، بل إن مصدر الثقافة والمعرفة في شنقيط هي جامعة القرويين، التي تعتبر معاهد شنقيط امتدادا لها وفروعا تابعة لها، ويشهد بذلك ماضيها الثقافي والأدبي.

وقبل الحديث عن علاقة أدباء الصحراء بالملوك العلويين لبأس أن نعطي لمحة خاطفة عن ذلك الفتحة الثقافية الذي صاحب الفتح الإسلامي. فمن المعروف أن الإسلام قد دخل إلى الجنوب المغربي منذ أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني من الهجرة، إلا أن تلك المنطقة ظلت ذات حظ قليل من الفقه الإسلامي وبعيدة عن روح الحضارة الإسلامية، الأمر الذي دعا الأمير يحيى بن إبراهيم الغدالي أن يصحب معه أحد زعماء الوحدة المغربية وأحد ناشري الثقافة العربية الإسلامية، وهو عبد الله بن ياسين الجزولي الذي كون أعظم مدرسة عرفتها شنقيط، وعلى منهجه قامت قبائل الزوايا والمرابطين، فاهتمت بنشر تعاليم الدين الإسلامي، داعية إلى الجهاد في سبيل الله.

وفي هذا المجال، عرف عبد الله بن ياسين الجزولي بأنه زعيم الوحدة الثقافية وشيخ الزوايا، ومن بعده جاء الإمام الحضرمي الذي تسلم القيادة الروحية، وعمل على نشر تعاليم الدين الإسلامي، وبحث علوم الآداب العربية. وهو الذي كان يرافق الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني في فتوحاته، وعلى يد هذين الزعيمين الروحيين، كان الفتح العلمي والأدبي لبلاد شنقيط.

ورغم ما وصلت إليه العهود السابقة لقيام الدولة العلوية من تقدم حضاري وازدهار أدبي وعلمي، فإننا لا نكاد نعثر اليوم إلا على بعض أسماء الكتب، أو بعض المخطوطات الأثرية التي تحتضنها الخزانات ذلك أن الحروب القبلية والتطاحن بين عرب المعقل وقبائل صنهاجة والغزو الذي استهدفتها المنطقة عدة أجيال، كل ذلك قد أدى إلى ضياع الثروة الأدبية، فانصرفت القبائل إلى الحرب والدفاع عن النفس وحلت المنافسات والمفاخرات بالبطولة والشجاعة، محل التسابق والتنافس في العلم والأدب.

بناءً على هذه العوامل، أهمل مؤرخو الأدب الشنقيطي فترة ما قبل قيام الدولة العلوية، وجاء العهد الذهبي بقيام دولة العلويين الذين غذوا الحركة الأدبية وأنعشوها، وأغدقوا مواهبهم، فاستعاد الأدب قيمته وازدهر ازدهاراً.

ففي عهد الملوك العلويين، كتب للشعراء والعلماء أن يعيشوا عصراً ذهبياً، وتهيأت لهم ظروف الاستقرار في ظل دولة جعلت من أدباء الجنوب وعلمائه رعايا مخلصين للعرش، ورسّل ثقافة ودين، ويرشدون إلى طريق الهدى والاستقامة، وينشرون العلم والمعرفة. فنمت في ظل هذه الدولة نهضة أدبية ناجحة. وقامت تحت رعايتها حركة علمية واسعة تجاوزت بلاد شنقيط إلى ما وراء السنغال ومالي والنيجر، حاملة تعاليم الدين الإسلامي وناشرة الثقافة العربية بين الشعوب الإفريقية السوداء.

في هذه الظروف، نشأ هذا الأدب الغني، حيث كثرت المقامات والرسائل المطولة، وانكب الشعراء على الأراجيز والسجع، وتعددت أغراض الشعر، وتنوعت أساليبه، وتوفرت له من عناصر

الإبداع مالم يتوفر لغيره عاطفة ومعنى وأسلوباً وخيالاً، وهو في كل ذلك شعر مطبوع لا تكلف فيه، يغلب الطبع فيه على الصنعة فيكاد يخفيها.

وسأقتصر في هذا العرض على مجموعة من الشعراء الشناقطة الذين كانت لهم صلات وثيقة بسلطين الدولة العلوية الشريفة، فأمامنا - على حد تعبير أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري(*) - تراث هائل يحتاج إلى أن نعنّى به ونهتم، ويتمثل في مدح الملوك والأمراء، وما يرتبط به من قضايا وطنية، عبر شعراء الصحراء المغربية بصفة خاصة وشعراء شنقيط بصفة عامة عنها في تجاوب معها والتحام ناشرين.

وأضاف أستاذنا منبهاً، أننا لا نستغرب إذا وجدنا شعراء الصحراء يتصلون ببلاطات المغرب في عهود مختلفة، ويقولون قصائد في الملوك والأمراء يعربون بها عن التعلق بالوطن، والولاء لقادته وولاية الأمر فيه. ولدينا نموذج يرجع إلى العصر الموحيدي يمثلّه الشاعر أبو إسحاق بن يعقوب الكانمي الذي مدح المنصور، ومن قوله فيه:

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفـضله ولكن بعُدْتُ مهابة عند اقترابي⁽³⁾

ومما أعطى لعلاقة شعراء شنقيط بالملوك العلويين أبعاداً عميقة، تلك القصائد التي أبدعها هؤلاء، من أمثال الشاعر عبد الله بن رازغة العلوي الذي كان معاصراً للسلطان مولاي إسماعيل وإبنة محمد العالم، وله قصائد في مدحهما.

وعنه يقول أحمد بن الأمين الشنقيطي:

« ثم طمحت نفسه إلى الأعتاب السلطانية، وكان ذلك في إقبال الدولة العلوية، فاتصل بأمير المومنين مولاي إسماعيل رحمه الله، وكان ذلك وقت نبوغ المولى محمد بن مولاي إسماعيل المعروف بالعالم»⁽⁴⁾.

ومن أجمل ما قال شاعرنا، قصيدته الحائية التي اصطفى فيها لممدوحه أجمل الصفات وأروعها، وخصه بمثل ما خص به المتنبي ممدوحيه وخاصة الأمير الحمداني سيف الدولة. يقول في مقدمة هذه القصيدة:

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا	وسمها بحور الال تسبحها سبحا
ولا ترعها إلا الذميل فطالما	رعت ناضر القيصوم والشيع والطلحا ⁽⁵⁾

وفيهما يقول عن الأمير محمد العالم:

وأم بساط بن الشريف محمد	مبيد العدا ذكرى ومبدي الهدى صبحا
فتى يسمع الدنيا كما هي صدره	فأصحابه صدر الديانة مندحا
ومن هو غيث اخضل الأرض روضه	فلا يظمأ الأوي إليه ولا يضحى
فتى يستقل البحر جود بنانه	على حالة استكثار حاتم الرشحا
تزيد على الفاقات فيضات كفه	فيغرق في التيار من يأمل النصحا
ومن هديه ساوى النهار وليله	فأمسى ينير الخافقين كما أضحى
أمير ملوك الأرض أضحت بسيفه	كما تبتغي الذبح في عيدها الأضحى ⁽⁶⁾

وفيهما يقول عن المولى إسماعيل:

أبوك لحكم الشرع ولاك عهد	فلم تلق كذا للسؤال ولا كدحا
مهيب مخوف بطشه تحت حلمه	عفو يرى إلا عن الباطل الصفحا
فهل كان معزوا إلى الحلم قبله	نعم أو كريم يدعي غيره السمحا ⁽⁷⁾

ويستطرد ابن الأمين الشنقيطي، فيذكر علاقة الشاعر ابن رازكة بالمولى محمد بن المولى اسماعيل ما يستفاد منه أن العلاقة كانت بينهما أشبه بالصدقة الشخصية الأدبية.

وقد قال ابن رازكة هذا أشعارا كثيرة في المولى محمد، كما أن المولى محمد قال شعرا أورده ابن الأمين في الوسيط، يرحب فيه بالشاعر الشنقيطي في مكناسة الزيتون

ومن الشعراء الشناقطة الذين نالوا حظوة كبيرة عند السلطان مولاي عبد الرحمن، الشاعر محمد بن محمد العلوي الشنقيطي ومن أشهر قصائده، السينية التي يمدح بها السلطان المذكور ومنها قوله.

إني كفيل نبيل السؤال لي ولكم	إما بمراكش المروس أو فاس
إمامنا في كلا المصيرين نورهما	إمامنا المستماح المطعم الكاسي
خليفة الله في نيل الوصول لمن	هو الوسيلة بين الله والناس
خليفة المصطفى وهو ابن بضعته	ثوبا من الجسد لم يعلق بأدناس (8)

ويحدثنا ابن الأمين عن مقابلة السلطان مولاي عبد الرحمن لهذا الشاعر، فيقول:

«ولما أبلغ ابن أبي ستة خبرهما إلى السلطان، أمر بإحضارهما، فلما سلما عليه واستقصى خبر الجهة التي قدما منها، وانشده قصيدته، وكان السلطان رحمه الله شديد الاهتمام بأقصى المسلمين من أهل مملكته حتى أنه يعلم أهل الخير من كبار أهلها وأهل الشر» (9).

كما نجد أيضا الشاعر محمد المجيدري بن حبيب الله الذي كانت له حظوة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والشاعر المختار

بن الهيب الإبيري الذي كان كاتباً للمولى عبد الرحمن، وهو والد العلامة الشاعر سيديا بن المختار.

ونجد كذلك الشاعر المغمور محمد الأمين الشنقيطي الذي كانت له وجاهة عند السلاطين العلويين، وقد عاصر هذا الشاعر ثلاثة ملوك علويين، المولى عبد الرحمن، وسيدي محمد ابن عبد الرحمن، والسلطان المولى الحسن الأول.

وقد كانت لسيدي محمد بن عبد الرحمن محبة كبيرة في الشاعر محمد الأمين الشنقيطي منذ كان ولياً للعهد. ومن لزومياته في ختم صحيح البخاري، المذيلة بمدح المولى محمد بن عبد الرحمن:

فدمعي مرسل قد سح دامي	حذا حاذي حديث من حذام
حديثهم الذي عندي مدام ⁽¹⁰⁾	فيا حادي ادر بين النداما

ومنها:

تسلسل مجده العالي السنام	شريف من شريف من شريف
بشرع نبينا وعلى التمام	إمامته مكملة شروطا
بشهر الصوم يا حسن اختتام ⁽¹¹⁾	ليهنك اختتامك للبخاري

وله من قصيدة مخمسة في مدح سيدي محمد بن عبد الرحمن:

يا طلعة البدر حسنا في كواكبه	وطالع السعد في نادي مواكبه
بسط البسيطة وهب من مواهبه	تجري ركائبها مجرى سحائبه

يجود جودا له بالبذل إكثار

امامنا العلوي في مراتبه قد فاق للمشتري الدري وكاتبه
نصر من الله في لوا كتائبه وأصبح الفتح بعضا من مراكبه
سيف من الله للعدة تبار (12)

وله في تهنئة مولاي عثمان بقدوم أخيه مولاي الحسن الأول سنة 1293 هـ، قصيدة أعجبتة غاية الاعجاب منها:

زارت بطلعتها الحسناء وسننا	بسامة بنضديد الدر اسننا
كأنما الشمس شيء من محاسنها	والبدر تحسبه رقالها كانا
بالله يا طلعة الإشراق هل قمرا	قد كنت أو كنت قد خلقت إنسانا
مولانا سيدنا عثمان نخبة أب	ناء الهاشمي أسنى الناس رجحانا
يهنيك شهر صيامك وعيدكم	مبارك حزت من مولاك رضوانا
نعم ويهنيك إن جاء البشير بما	قرت به العين من قدوم مولانا
أيده الله قد لاحت بشائره	في بسط وجهك للأنام إعلانا
ذاك الشريف الذي أوطان مغربنا	غذت به لغريب الدار أوطانا
تاج السلاطين من عرب ومن عجم	أخوك من خاراه الله سلطانا
الحسن الإسم والأفعال سيدنا	من في سياسته قد فاق ساسانا (13)

وهناك أيضا الشاعر أجدود بن محمد أكتوشن، الذي كان ممن تشرفوا بتقديم البيعة والولاء للسلطان مولاي عبد العزيز، وله فيه قصيدتان، يقول في مقدمة إحداهما:

تذكرت أيام المريفق والبترا وهاجت لي الأحزان والهم والذكرى
وفيه يقول:

أمولاي يا عبد العزيز تقدمت	إليك جيوش العرب طائفة أمرا
تبائعك العربان شرقا ومغربا	وترجو لك التوفيق والحفظ والنصرا (14)

أما القصيدة الثانية، فسنكتفي منها بذكر هذين البيتين:

فدع ذكر أيام الشببية والصبأ	فحبلى وصال الغانيات قد انصرم
وأم الإمام الأعظم الفرد سيدي	ومولاي سلطان الفضائل والكرم (15)

كما نجد أيضا الشاعر محمد المامي اليعقوبي الذي عني في كثير من مؤلفاته بذكر السلاطين العلويين. كما كان للشاعر محمد بن سالم حب في آل البيت، وتعلق خاص بالملوك العلويين.

وقد قدر للشيخ ماء العينين مؤسس الزاوية المعينية بالسمارة أن يتصل بالعديد من ملوك المغرب الذين أعجبوا بعلمه وثقافته. ويؤكد مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في ترجمة هذا الشاعر، في مؤلفه «مناقب أهل الصحراء» أنه حين سافر إلى الحج، مرّ في طريقه بوادي نون والصويرة ومراكش، حيث أكرمه سيدي محمد بن عبد الرحمن ولي العهد، ثم سافر إلى مكناس وتلقاه السلطان مولاي عبد الرحمن بكل إجلال وإكبار. كما استدعاه السلطان مولاي الحسن لما زار وادي نون سنة 1303 هـ من قصيدة له في بيعة السلطان مولاي عبد العزيز:

وبيعة أسلاف من المهمة القفر تجوب الفيافي بالسماحة والنصر
تزف إلى نجل الملوك عهودنا تصان مدى الأيام في السر والظهر⁽¹⁶⁾

ومن الذين بايعوا السلطان مولاي عبد الحفيظ، الشاعر محمد المامون الذي أصبحت له بعد ذلك صلة وثيقة بسائر سلاطين الدولة، وله عدة قصائد في مدح المغفور له محمد الخامس.

ومن الشعراء الذين انتهت إليهم عمادة الأدب في بلاد شنقيط الشاعر العتيق ماء العينين الذي نال شهرة جاوزت حدود الوطن حيث أصبح له في غرب إفريقيا رواة يحفظون شعره، ويرددونه في المحافل والأندية.

ومن أجود قصائده، تلك التي ألقاها بين يدي المغفور له محمد الخامس حينما قدمت لبلاطه الوفود الشنقيطية لتقدم ولاءها، بعد رجوعه من المنفى، يقول:

بحمد الله واتصل السرور
وروض الفوز فاح له عبير
ووجد الحق حان له سفور
من ازدانت بدولته الدهور
لنا بالأفراح وانتشر السرور
بأمرته وناظرها فـرير
محمدنا ابن يوسف الشهير
لشهرتها ويبصرها الضير
وبعد العز ذل به الكفور⁽¹⁷⁾

تتابعت البشائر والخيور
وصبح السعد لاح له ضياء
ونهج الرشـد عان له سلوك
بمشهد طلعة الملك المفدى
ومن بحلى جلالته توالى
ومن طود السعادة مستقر
إمام العصر محمود السجايـا
مزايـاه الأهم بها سميع
من أولى الشعب بعد الذل عزا

وهناك العديد من الشعراء الشناقطة الذين مدحوا المغفور له محمد الخامس كالشاعر الأمين بن عبد الله الديماني، وعبد الله ابن سيدي أحمد أبوه الشنقيطي، ومحمد الأمين بن خطاري، ومحمد الأغضف، ومصطفى قال أحمد بن محمد الأمين، وهو من قبيلة «إدْيَقْبُ» بجنوب موريتانيا. يقول هذا الأخير من قصيدة نظمها بمناسبة عودة المغفور له محمد الخامس من المنفى:

أما تـنا الله أحيانا فأحيانا
جم المحامد مولانا ابن مولانا
بالعزم جلدا وعند الكرب مالانا
تأتي بتأييده سرا وإعلانا
فأذعنت عندها الأعداء إذعانا
سيسـتقل ولو قد كان من كانا
بين الأماجد سلطانا فسلطانا
وأنت دمت لتلك العين إنسانا⁽¹⁸⁾

بشرى لنا معشر الاسلام بشرانا
بطلعة الفوـث محيي الدين سيدنا
من ذب عن ذمة الاسلام محتسبا
تجري مقادير نصر لا مرد لها
دلت براهين حكم الله ظاهرة
فالحق إن جال لا تياس بجولته
يا من تأثـل إرث المجد ضئـضـؤـه
لا زال حكمك محروسا بعين رضى

ومن قصيدة أخرى يمدح فيها المغفور له محمد الخامس:

متن الشريعة من عرف وقانون
كن غابنا لا تكن فيها بمغبون
وكل قاض وعـمال ومأذون⁽¹⁹⁾

يبني على الحق لا ينفك متبعا
وانما بيعة الرضوان بيعته
بارك له في ولي العهد والوزراء

وقد نبغ عدد من العلماء والأدباء خلال هذا العصر من مختلف قبائل شنقيط ومناطقه، ومن هؤلاء الشاعر محمد البيضاوي الشنقيطي الذي يمكن اعتباره «من أوائل الشعراء المغاربة الذين هنأوا المغفور له محمد الخامس بتولية العرش، فقد دخل عليه في جملة المهنئين، وقال قصيدة هي مزيج من التهنئة له والثناء لوالده المولى يوسف رحمه الله، وقد جاءت مليئة بالمعاني التي تدل على الالتحام وعلى الروح الوطنية الذي كان يشد شعراء الصحراء إلى المغرب وملكهم في وقت كان الاستعمار يشدد الخناق ليس فقط في الصحراء ولكن في كل المناطق المغربية»⁽²⁰⁾.

وفي هذه القصيدة، يقول الشاعر محمد البيضاوي الشنقيطي:

ذهب الامام أبو المحاسن سيذا	ومحمد كفو الامام السيد
التاج أقسم لا يفارق هامكم	ويا آل حيدر وآل محمد
امحمدا يا بن الحلائل يوسف	جدد عهد محمد ومحمد
وارع الامامة والرعية مشفقا	بسياسة وروية وتعهد
واكشف عن الأبصار كل غشاوة	وغباوة فالجهل أعظم مفسد ⁽²¹⁾ .

وقد ازداد تعلق أدباء وشعراء شنقيط بملوك الدولة العلوية في عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، ونوّهوا بأمجاده وجلائل أعماله، وعظائم مآثره ومكارمه، وما تحقق للشعب المغربي والأمة العربية والإسلامية على يديه.

ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال، شاعر موريتانيا ومؤرخها المختار بن حامد يمدح ملك المغرب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله بقصيدة رائعة، عنوانها «ضمن السعادة والصعود لأرضه» يقول في مقدمتها:

في المغرب العدل الوطني عتيد
والأمن منسرح عليه وافر
يا حبيذا هاد ومهدي ومأ
ضمن السعادة والصعود لأرضه

ومنها:

حسن جلال منه فيه هيبة
حسن على أسس الجدود سلوكه
حسن لدولته وشعب بلاده
حسن على تلك الرعية عطفه
حسن كذاك وقاره وسكينة
حسن سخاء منه لم ين في الندى
حسن كذلك طبعه وخلقه

وفي نهاية القصيدة يقول:

لكن لعيد العرش تنفتح اللها
فيثور مدح جلاله الحسن الرضى
ويسوغ في افكارنا إنشاؤه

والمجد فيه طارف وتليد
والخير فيه كامل ومديد
مون ومنصور هناك رشيد
فالشعب فيها صاعد وسعيد⁽²²⁾

تعنو لروعتها الملوك الصيد
وبناؤه للمجد والتشييد
سعي حميد من لدنه مفيد
وبيانه للعدل والتوكيد
فيه على عز مداه بعيد
والجود يبدي دائما ويعيد
كل الأنام له بذلك شهيد⁽²³⁾

فرحا بهذا العيد نعم العيد
منثوره ويثور منه قصيد
ويسوغ في الأذان منه نشيد⁽²⁴⁾

ويستهل الشاعر نفسه قصيدة أخرى بعنوان «جننا لنشهد من
ذا العيد عيد هدى»، يقول:

أهلا وسهلا بعيد العرش من عيد
عيد إذا عاد، عاد البشر يشفعه
عيد اعتلاء أمير المومنين على

لطاقه الدين فيه أي توليد
وإن تجدد يشفعه بتجديد
عرش الجدود السراة القادة الصيد⁽²⁵⁾

وفيهما يقول:

جاءت جماهير من عرب ومن عجم
يستبشرون بعيد جاء موعدة

من القرى وزرافات من البعيد
يسابقون لذكرى ذاته العيد⁽²⁶⁾

ومنها أيضا:

في ليلة جذبت ضوء النهار لنا فكان في (منوي) منها الضوء في (ميد)
وكان ما كان من فضل ومن كرم يجل على كل تحديد وتعدد (27)

وفي آخر هذه القصيدة، يتوسل بالدعاء الصالح لأمير المومنين
صاحب الجلالة الحسن الثاني أيده الله قائلاً:

والله نسأل تغميرا لسيدنا في ظل نصر وتمكين وتأيد
ان الدعاء له من لب واجبنا وأغرق العاد فينا والتقاليد (28)

وهناك أيضا الشاعر محمد عبد الرحمن الرباني الذي أبان في
العديد من قصائده على العلاقة والمحبة التي تربطه بالعرش العلوي
المجيد، وله عدة قصائد في مدح جلاله الملك الحسن الثاني أعزه الله.
يقول في مقدمة قصيدة بعنوان «أجب داعي الرحمن».

أجب داعي الرحمن واستنشق العطرا وثق بالهدى واصدع ببيعتك الكبرى
وجاوز عراض البید متجها له اذا جزت قطرا منه أردفته قطرا
إلى الكهف كهف المسلمين وذخرهم ومن بفعال الخير يستوجب الأطرا
إليك أمير المومنين توجهت ركابي تجوب الجو والبر والبحرا
إليك أمير المومنين يقودني سنيح ولأء يحمل الحب والبشرا (29)

ومنها:

ووجهت للقدس العناية فأنثنى عن القدس من ساموا منا سكنا قسرا
وأودعت في الإبن المبارك سيدي محمد عهدا لا تزال به البشرية
وأبناؤك الغر الميامين صفوة لأمتنا طرا وعالمنا طرا
فمن يجهل التاريخ يسأله إنه عن الصفوة الأبناء سينبؤه الأمرا
سلالة بيت المصطفى خير خلقه فهم بجميع الفضل من خلقه أخرى (30)

وله من قصيدة أخرى بعنوان «وحدة المغرب اكتمال عهد»

رب قوم كانوا هناك وجاؤوا رأوا فيه عن سواء عزاء وهو مأوى المرید من كل أرض وهو هدي وحنكة ورشاد وحدة المغرب اكتمال عهد دولة المغرب الكبير نجاح	قد حدهم نحو الملك رجاء فهو عن كل من سواء عزاء شاء ذاك الاعداء أم لم يشاءوا وعلى ذاك تشهد الصحراء وشجتها الملوك والآباء جسده المسيرة الخضراء ⁽³¹⁾
--	--

كما نجد شاعر الوحدة محمد الكبير العلوي الذي لم تفته أية مناسبة إلا ونظم فيها قصيدة أو أكثر. ومن قصيدة له بعنوان «مكرمات ومعجزات» يخاطب فيها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، قوله:

كل أعمالك العظيمة أيا شهد الحال والمقال عليها مكرمات ومعجزات جسام لو سألنا السدود عنها أجابت وتعالى دويها وصداها	ت تبدت مرثية للعيان وهما الصادقان والعدلان واضححات الدليل والبرهان ببيان ومنطق مستبيان في رياض ملتفة الأفنان ⁽³²⁾
--	--

ومن قصيدة أخرى بعنوان «مسيرتك الأبية خير زحف» يقول مخاطبا أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله:

وسعت المغرب الأقصى نعيما بلغت بنا السما فخرا ومجدا أمغرب فزت بالملك المجدى إمام قد فدى وطننا وشعبنا أمير المؤمنين لأنك أنت أحرى تقبل مدحنا في كل وقت ودم للشعب سيدنا ملاذا	وقد أبدلت شدته رخاء فسامينا بك الأفق اعتلاء فأحرزت السعادة والهناء وقد أضحى الجميع له فداء وأجدر أن نرف لك الثناء وحزنا التهناني والولاء تقيم الوحدة الكبرى بناء ⁽³³⁾
--	--

ونجد أيضا الشاعر المجيد محمد عبد الرحمن الدرجاوي الذي
برز بشكل كبير في الساحة الشعرية المغربية، وله قصيدة طريفة
في رثاء المغفور له محمد الخامس بعنوان « لا هول أكبر من رحيل
محمد »

<p>رحل المليك وكل بيت مُظْلِمٌ فالدمع أهون ما يصان ويُخْتَمُ تبكي وتُخْمِشُ في الوجوه وتُلْطِمُ برحيله دار القيامة تكرم لا صبر كلا، فالمصيبة أعظم فالنوم بعد رحيله قد يحرم⁽³⁴⁾</p>	<p>لا تسألني إن الحوادث تظلم ودعي جفون العين تذرف دمعها وذري البواكي لا عزاء لرنائها يا عين جودي بالدموع لراحل كيف العزاء وكيف نصبر بعده لا هول أكبر من رحيل محمد</p>
---	---

ومنها:

<p>عينا كما كنا نقروا مُزْحَمٌ يحمي كما يحمي أبوه ويَهْجِمُ يسقي ويفدق كالبحور وينعم كيما يطاوع ما تقول وتبرم بيعا ينال به الرضى والمغتم⁽³⁵⁾</p>	<p>أبقى لنا ملكا نقر بقربه ما الشبل إلا ابن الفضنفر خالصا والمزن من ماء البحور أصوله مولاي هذا الشعب جاء مبايعا خفت لبيعته القلوب جميعها</p>
---	--

ومن قصيدة له بعنوان « لنا الأيام نحسبها جميعا »، وهي
قصيدة قيلت في بطولات جيش التحرير المغربي، والمعارك التي
كان يخوضها لطرده الاستعمار عن وطنه وفرض السيادة المغربية.
يقول في مقدمتها:

<p>والاستعمار يكرع في السراب؟ ويخرق في الجوار بلا حساب وتفـرح بالمليك والخطاب؟ يهون به العسير من الصعاب⁽³⁶⁾</p>	<p>متى وإلى متى هذا التفابي ويزرع في العداة بلا رشاد أليس يرى جموع الشعب تهفو تسير وراء قائدتها مسيرا</p>
--	---

ومنها:

لنا الأيام نحسبها جميعا على رغم العدو مع الحساب
فيوم أبي الجذوع(*) وما فعلها من الرمي المسدد والضراب (37)

ومن قصيدة أخرى للشاعر الدرجاوي يمدح فيها صاحب
الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله:

لك الخير كل الخير يا حسن الذكرى	وما حزت من خير فانت به أخرى
وأخرى بشعر الشعارين منقحا	وأخرى به حرا وأخرى به نثرا
ومنا لك البشري بعزك في الورى	وبشرى من الرحمن ما فوقها بشرى
وبشرى لشعب في يدك شؤونه	تسير به يمينك سيرا إلى اليسرى
ويسراك واليمن سواء بيمينها	وكلتاها معنى فمالك من يسرى
وعسرك يسر من وجوه كثيرة	بها العسر يفدو من سهولته يسرا (38)

ومنها

فلله كم رأي مصيب رأيتـه	ربحنا به الدنيا ولم نخسر الأخرى
وذلك جمع قل في الناس مثله	فكم ربحوا تجرا ولم يربحوا تجرا
وكم من قال قلتـه فأجـدته	وكم عمل زين شرحت به صدرا

من خلال ما تقدم، يمكن أن نستنتج مجموعة من الملاحظات
وسألخصها في مايلي:

1- ان علاقة شعراء شنقيط بالملوك العلويين ظلت علاقة وطيدة
ومتينة بحكم ولائهم وبيعتهم لهؤلاء الملوك.

2- أن هؤلاء الشعراء سجلوا كل ما عاشته الصحراء من حروب
وصراع وكل ما مرت به من تاريخ، ووصفوا وتفزلوا ونسبوا
ومدحوا، وعالجوا مشاكل مجتمعهم، بحيث كان شعرهم تعبيراً
صادقاً، وصورة واضحة عن ذلك المجتمع.

3- أن هذا الشعر الشنقيطي حافظ منذ نشأته على ذلك الطابع العربي المحضر، وعلى الجزالة والقوة، وعلى تلك الصنعة الفنية البديعة.

نعم، يأخذ بعض النقاد على هؤلاء الشعراء أنهم لم يجددوا ولم يتخلوا عن الأسلوب العربي القديم، إلا أن هؤلاء النقاد فاتهم أن ظروف الحياة وتقاليد المجتمع الصحراوي، تفرض على الشاعر الصادق أن يعبر عنها كشاعر بدوي، يعيش في مجتمع بدوي.

ولا عيب أن ينحو الشعراء هذا النحو، ولا سيما إذا كان همهم هو تحريك التراث، وتوظيف ما يستحق التوظيف منه وجعله سلوكا في حياتهم العلمية والعملية.

فالليل إلى القديم ناتج عن ثقافة الشاعر المعتمدة على القاموس الجاهلي، وما تولد عنه من قدرة الاستحضار الناشئ عن كثرة الحفظ والاختزان «دون أن يغفل ملاءمة البيئة وانعكاسها على حال النفس والوجدان والذوق» (39).

الهوامش:

(**) من هؤلاء خليل النحوي في مؤلفه «بلاد شنقيط المنارة والرباط» ص24. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987. وبهذا الاسم - أي بلاد البيضان - عنون يوسف مقلد كتابه «موريتانيا أو العرب البيضان في إفريقيا السوداء»، كما عرفت بلاد شنقيط باسم «بلاد التكرور» وقد اعتمد الطالب محمد بن أبي بكر البرتلي هذه التسمية في تأليفه عن أعيان المنطقة «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور». كما استعصى على بابا بن الشيخ سيديا إسم جامع مانع فتحدث عن هذه «البلاد المغربية الصحراوية البيضانية».

(1) الأستاذ عبد الله الجارري «شنقيط عبر التاريخ» مجلة الوحدة الصادرة عن وزارة الشؤون الثقافية الموريتانية، والصحراء المغربية، العدد 17، السنة: 1969.

- (2) محمد الأمين الشنقيطي «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» ص: 422-423.
- الطبعة الثانية، مطبعة السنة المحمدية-القاهرة 1958 م.
- (*) أنظر «معالم مغربية» للدكتور عباس الجراري ص: 130 وما بعدها.
- الطبعة الأولى، فبراير 1991.
- (3) نفس المرجع ص: 134.
- (4) «الوسيط» لأحمد بن الأمين الشنقيطي، ص: 110، تحقيق محمد بن ماء العينين، تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، رسالة لنيل د.د.ع. مرقونة بخزانة كلية الآداب - الرباط.
- (5) نفسه، ص: 143.
- (6) نفس المصدر السابق، ص: 143-144.
- (7) نفسه، ص 145.
- (8) المصدر السابق، ص: 199.
- (9) نفسه، ص: 199.
- (10) «المجد الطارف والتالد» لمحمد بن الأمين الشنقيطي، ورقة: 421 مخطوط بقسم الوثائق والمخطوطات، الخزانة العامة بالرباط مسجل تحت رقم: 588 ك.
- (11) نفسه، الورقة: 424.
- (12) المجد الطارف والتالد ورقة: 446، انظر كذلك الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج 7، ص 25، 26. لعباس بن ابراهيم المراكشي، المطبعة الملكية 1977.
- (13) نفسه، ورقة: 412-413.
- (14) مجلة «ندوة البيعة والخلافة في الاسلام»، مقال بعنوان «شعراء الصحراء وبيعة الملوك العلويين» لمحمد الكبير العلوي، ج 2، ص: 474-476. مطبوعات وزارة الأوقاف، العيون، 1985.
- (15) نفسه، ص: 477.
- (16) نفس المقال السابق، ص 471.
- (17) جريدة صحراؤنا، العدد 30 و 1 دجنبر 1967، ص: 5.
- (18) بارك الله حبيب الله «تأملات حول تاريخ الصحراء المغربية» ص: 20. تصنيف وإخراج الشركة المغربية للطباعة والنشر-الرباط، 1993.

- (19) من قصيدة أمدني بها محمد معروف الرصافي أثناء زيارتي له بالعيون صيف 1991.
- (20) الدكتور عباس الجراري «معالم مغربية» ص 130، الطبعة الأولى فبراير 1991 م.
- (21) نفس المرجع، ص 135.
- (22) ديوان دعوة الحق «وفاء وولاء» ج 1، ص: 228.
- (23) نفسه، ص: 228.
- (24) نفسه، ص: 229.
- (25) الديوان السابق، ص: 263.
- (26) نفسه، والصفحة نفسها.
- (27) نفسه، نفس الصفحة.
- (28) نفسه، ص: 264.
- (29) ديوان «دواء داء الغربة وإطفاء الجحيم» للشاعر محمد عبد الرحمن الرباني ص: 15 وهو مخطوط بحوزة صاحبه بالداخلية.
- (30) نفسه، ص: 16.
- (31) الديوان السابق، ص: 18.
- (32) ديوان دعوة الحق «وفاء وولاء»، ص: 215.
- (33) الديوان السابق، ص: 295.
- (34) من قصيدة أمدني بها الشاعر مشكورا أثناء زيارتي له بمدينة العيون صيف 1991 م.
- (35) من القصيدة نفسها.
- (36) من قصيدة أمدني الشاعر بها في العيون صيف 91.
- (37) القصيدة نفسها.
- (*) أبو الجدوع: هو (بوجدور) الذي أصبح اليوم عمالة مغربية من عمالات الصحراء المغربية بعدما تم انضمامها للوطن.
- (38) من قصيدة أخرى أمدني بها الشاعر.
- (39) معالم مغربية، ص: 141.

شعر الصحراء المغربية: النشأة والريادة

محمد المختار المداح(*)

لا يسعني في البداية إلا أن أزجي عظيم الشكر وخالص الاكبار إلى وزارة الشؤون الثقافية بتخصيصها عددا خاصا من مجلة (المناهل) لشؤون الصحراء المغربية بمناسبة مرور عشرين سنة على استرجاعها بفضل الحكمة السامقة السامية لعاهلنا المفدى، صاحب الجلالة الملك المعظم المجاهد الباني الحسن الثاني المؤيد بنصر من الله. ولاشك أن لهذا العدد مزايا وخصالا لأنه يروم نقض غبار النسيان عن بعض الكنوز الأثرية والتراثية والأدبية عند أهل الصحراء لاستكناه خفاياها وسبر أغوار خباياها.

فمن المسلمات الثابتة أن الأمم تقاس في رقيها وأصالتها بقدر حفاظها على تراثها وتطويره وغربلته لتنمية جوانبه الوضيئة وتخطي رواسبه التي تقف حجر عثر في وجه أي إبداع إنساني، ذلك أن أي تراث يعتبر بحق ملهم عقلية الأمة التي أنتجته، محددًا عبقريتها وموضعا قدرة إرادتها إذ هو شاهد على طابعها الحضاري الأثيل.

(*) باحث في الأدب المغربي بالصحراء، أعد رسالة جامعية تحت عنوان «ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية»، لحمد الغيث النعمة، الجزء الثاني، تحقيق وتقديم، تحت إشراف الدكتور محمد بنشريف، ونال بها دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

وقد تكون لتراث الغرب الاسلامي عامة كل هذه الخصال والخصائص وإن هي ما زالت بحاجة إلى تضافر جهود النقاد والباحثين لتنزيله المنزلة اللائقة به إذا ما قورن بتراث أهل المشرق.

ويندرج في هذا الإطار أدب الصحراء المغربية الذي ما التفت إليه حتى فصلت العير، إذ ظل عرضة للكثير من الانتهاكات الجائرة من طرف الإستعمار الأجنبي إن بالتهميش والمحاربة سرىا أو التنكيل بالعلماء وإحراق ذخائرهم المعرفية علنيا كما وقع لمكتبة الشيخ ماء العينين بالعاصمة العلمية آنذاك للأقاليم الجنوبية المسترجعة السمارة، حيث أحرقتها طائرات العقيد موري عام 1913 م مما دفع الشاعر مربيه ربه إلى رثائها بقصيدة مؤثرة، منها (1):

هذه السمارة في أنبائها العبر منها تحيرت الأبواب والفكر
دار بصحراء من رأى عمارتها فيما مضى أو رآها اليوم يعتبر

لقد عانى التراث الصحراوي المغربي أكثر من غيره من الاستبداد الاستعماري استيلابا وتهميشا وعوادي الدهر محوا واندثارا.

فماذا عن نشأة هذا الأدب؟

وكيف هي مظاهر الانبعاث فيه؟

وهل يمثل فعلا سمة أدبية متميزة في مهاء الصحراء؟

لقد ظل أدب الصحراء المغربية على مر الدهور وسيلة مثلى للتواصل الثقافي والحضاري بين شعوب كثيرة، وإشعاعا حضاريا

متميزا بخصوصيات ذاتية وموضوعية، ولم يكن في يوم من الأيام متقوقعا على نفسه يلحق جراحا أدمتها الحياة، بل كان دائما مرفوع الرأس فضيلة روح وجسد وشمم أنف يأبى الرغام وإن كره الكارهون «يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته في عملية أخذ وعطاء مستمرين توصل فيهما بكل الممكنات المتاحة لاثبات الوحدة وتأكيد التواصل على الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة»⁽²⁾ لأنها محفوفة بالمزالق والمخاطر مما قد يوهم باستحالة أي تفتق شعري أو إبداع فكري أو سموق إنشائي. وأول معضلة قد تواجه الباحث في أدب الصحراء المغربية تتمثل في إشكالية التأريخ للنشأة، نشأة هذا الأدب، نتيجة شح المراجع وندرة المصادر التي تسعف بأخبار «تجمع وتمنع» أو قل إن شئت: أخبار تستقيم على النظر المعرفي وتطرء على المعايير العلمية.

إن المصدر الوحيد الذي نملكه - حتى الآن على الأقل - هو كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» لأحمد بن الأمين، ورغم حسنات هذا الكتاب الجمة إذ سد فراغا ثقافيا وفكريا ظل مظلما فإنه لم يخل من مأخذ النقد عليه المتمثلة أساسا في اعتماده المقياس القبلي إجراء منهجيا ومصادرة عمل، والتعصب القبلي الذي طبع الكتاب بطابع انتقائي، فابن الأمين كان يسهب في إعطاء بعض الأمثلة من شعراء بعض القبائل، بينما يتقشف اتجاه البعض الآخر إن لم يهمله إهمالا مجحفا، فلم يورد في كتابه من شعر أهل الصحراء سوى (4030) بيتا مقسمة على (77) شاعرا ينتمون إلى تسع (09) قبائل صحراوية مغربية فقط.

وتؤكد النصوص التي نتوفر عليها من هذا الأدب، أصالته عتقا وجدته حداثة وقوة سبكه تعبيرا عن البيئة الصحراوية التي تشبه إلى حد ما البيئة الجاهلية تشاكلا خارجيا وإن اختلفتا، مما جعل جل الشعراء الصحراويين يحاكون في البداية الشعراء الجاهليين محاكاة استيحاء أو إحياء أو معارضة بغية الإبداع والتجديد ببعث الشعر من مرقدته.

ورغم أننا لا نعرف أخبارا كثيرة عن الارهاصات الأولى لشعر الصحراء إذ هناك حلقات من تاريخها الأدبي مازالت مظلمة لم تبح بعد بسرها المكنون، فيمكن القول إن بلاد الصحراء عرفت دخول الاسلام مبكرا بداية من القرن الثاني للهجرة⁽³⁾. كما أن هناك عنصرين بارزين أثرا في شتى مناحي الحياة خاصة الناحية الثقافية:

I - توافد القبائل الحسانية المهاجرة بداية من القرن السابع للهجرة حيث بسطت سلطانها سياسيا وعسكريا على السكان الأصليين الذين هم عبارة عن مجموعات بشرية تتكلم البربرية وتعتنق إسلاما سنيا ورثته عن دولة المرابطين وتتابعته هذه الهجرات تترى مدة أربعة قرون.

II - نجاح دولة المرابطين في نشر تعاليم الدين الإسلامي القائم على فقه سني أشعري، فعرض علماؤها على فضيلة العلم بالنواجد تبجيلا وتكريما للعلم والعلماء، وفي هذا المضممار لابد كذلك من التنبيه إلى مسألتين هامتين ذواتا خطب جلل في التاريخ الثقافي لبلاد الصحراء المغربية، هما:

1 - التواصل المثمر الذي ظل قائما بين الصحراء وسائر الأقاليم الأخرى من المغرب وذلك منذ قيام الدولة المرابطية.

فالكثرة الكاثرة من علماء الصحراء قامت برحلات علمية إلى الأقاليم الشمالية كمراكش وفاس وتطوان بغية الدراسة أو التدريس بها أو التوجه إلى الديار المقدسة عبرها. وحرصوا حرصا شديدا على اقتناء الكتب واستنساخها، مقيمين روابط متينة مع بعض الزوايا الصوفية، فنجد على سبيل التمثيل لا الحصر سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233 هـ) يفوز بهدية ثمينة من طرف السلطان العالم مولاي اسماعيل، تتمثل في خزانة نفيسة من الكتب النادرة، وتكالب الناس على اقتناء الكتب وجمعها حتى بيع القاموس بعشرين بعيرا، وأهدى السلطان محمد العالم إلى الشاعر ولد رازكه خزانة ثمينة فيها مئات المؤلفات النفيسة أسهمت في تأصيل الثقافة الأدبية ازدهارا وتفتقا، فامتلك على إثرها هذا الشاعر ناصية الشعر⁽⁴⁾.

2- وجود بعض المحطات الثقافية التي كانت عبارة عن جامعات بدوية متنقلة عرفت بالمحاضر تدرس فيها جميع العلوم، فكانت معبرا تجاريا تمر به القوافل التي تسافر بين المغرب وبلاد السودان.

إن الحديث عن نشأة شعر الصحراء «حديثا مانعا جامعا» يقتضي وقفة تأمل وتدبر في عدد هائل من العناصر والمعطيات لتشابك خيوط الموضوع وغياب بعضها وعدم توفرنا على كثير من النصوص الشعرية، ذلك أن هناك إشكالين تطرحهما قضية النشأة:

- إشكال زمني : ونستشفه من لفظ «النشأة» التي قد تدل على الميلاد الذي يحيل بدوره على البداية الأولى لدخول التاريخ.

- إشكال مكاني : يقتضي تحديد المجال الجغرافي وحصره لأنه احتضن هذا الشعر.

فما هي دلالة كلمة الصحراء جغرافيا؟

إن مجال شعر الصحراء لا يقتصر على ما يعرف اليوم بالصحراء المغربية المسترجعة وإنما يتجاوز ذلك إلى بلاد شنقيط جنوبا حتى نهر السينغال نتيجة الروابط السياسية والثقافية التي ظلت تربط أهل الصحراء بملوك الدولة المغربية والمتمثلة في رباط البيعة الشرعية التي ظلت تطوق أعناق الرعية، ولم تكن البتة الحدود السياسية المتعارف عليها اليوم كمصادرات إجرائية خلفها الاستعمار موجودة⁽⁵⁾.

إن عنصر القرابة الوحيد الذي نتوفر عليه حتى الآن لتحديد المجال الذي نبحث فيه هو اللهجة الحسانية التي هي لغة القوم أو قل: قنطرتهم إلى اللغة العربية على حد تعبير الشاعر محمد اليدالي.

ولكي يتسنى لنا استيعاب نشأة هذا الشعر وريادته، لابد من بسط نظرة وإن كانت عجلية عن التركيبة الاجتماعية لسكان الصحراء. إن المجتمع الصحراوي القديم تشرذم إلى فئات متميزة في الوظائف وإن تواشجت في المصالح:

1- الزوايا : وهم أهل القلم يمتهنون الثقافة تعلما وتعلما باعتبارهم أهل العلم والأدب، يمارسون الفتوى والقضاء بين الناس، كما يتعاطون سائر النشاطات الاقتصادية المتوفرة ولهم كلمتهم في مجال السلطة من الناحية الدينية. وبلغوا من تقديس العلم درجات عليا إذ عضوا عليه بالنواجذ أسوة بالقرآن والسنة، فالولي الصالح ناصر الدين الذي كان صاحب سيف وقلم وقائدا محنكا يقول مخاطبا قومه: «من ركب منكم فرسه فليجعل لوحه بينه

وبين سرجه فإن الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء الآخرة⁽⁶⁾». وأفتى بعض علماء المنطقة بأفضلية تعلم اللغة على التفرغ للعبادة، يقول:

تعلم اللغة شرعا ففضل على التخلي لعبادة الجلى
يؤخذ ذا من قوله وعلمما آدم الاسمما ألزم التعلمما

2- حسان : وهم أهل السلطة التنفيذية عسكريا وسياسيا، فهم أهل السيف يخوضون الغارات والبطولات ذبا عن الحمى وشيمنتهم: «اقتناء السلاح ومداومة الكفاح وامتلاك الرقاب، أموالهم سلاحهم وحصونهم ظهور خيلهم، عيشهم الصيد وما يأخذونه من المغارم أو ما ينهبون من الأعداء»⁽⁷⁾. وتأتي بعدها تين الفئتين القطبين، فئات أخرى تابعة عاشت في ظل حماية الزوايا دينيا وروحيا وكنف حسان أمنيا وسياسيا تحت ظل الدوحة العلوية. ومع إطلالة القرن الهجري الثالث عشر بلغت النهضة الثقافية أوجها إذ كثرت المحاضر والمكتبات وأصبحت للعلم مكانة متميزة إذ ما يظهر كتاب حتى ينسخ ويقرظ ويتبادل بين العلماء، ويكمن مرد هذه النهضة الثقافية إلى عوامل، منها:

- 1 - تراكم الثقافة وتخمرها في الصحراء منذ حقبة وعصور.
- 2 - تأصيل تخصص الفئات الاجتماعية مما نتج عنه أن تمحض الزوايا للعلم دراسة وتدريسا.
- 3 - وحدة المذهب: أسهمت وحدة المذهب في تقوية الروابط بين علماء المنطقة إذ ظل السفر طلبا للعلم سلعة رابحة، فيذهب الطلاب بحثا عن التحصيل واقتناء الكتب ويؤوبون محملين بالنفائس والدرر من كتب غالية في شتى التخصصات، إلى غير ذلك من العوامل التي أسهمت في إثراء نهضة ثقافية تجلت في مستويات كثيرة كالمستوى الفكري والمستوى الأدبي.

فعلى المستوى الفكري، شهدت المنطقة مشادات فكرية ساخنة من سماتها الجدل والحوار المستمران بين أطراف الصراع في البلد، يقول الشاعر المامون بن الصوفي (ت 1233 هـ) مصورا الواقع المعيش:

حرب الزوايا جدال أو مناظرة أقلامهم كقسي النبع والسمر
لا بد أن تشهدوا يوم الجدال بها إن المدار على ما خط في الزبر

وحمي وطيس حرب كلامية حول العقيدة فهما وشرحا، فبرزت اتجاهات رئيسية:

1 - الاتجاه الصوفي : يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الإيمان بالعقيدة القائم على النظر العقلي والاستدلال المنطقي إيمان جاف، والإيمان الصحيح في نظر هذا الإتجاه هو إيمان العارفين بالله المتصوفة ويمثله الشيخ سيدي المختار الكنتي

2 - الاتجاه السلفي: ارتأى التمسك بالكتاب والسنة في كل ما يتعلق بالعقيدة، منكر الجدل في الأمور العقدية بالعقل ويمثله المجيدري بن حبيب الله

3 - الاتجاه الأشعري العقلاني: يروم استعمال الحجة والبرهان في العقيدة ويمثله المختار بن بون الجكني⁽⁸⁾.

ولقد بلغ هذا الصراع درجة التضليل والتكفير، يقول المختار بن بون عند سماعه بوفاة خصمه المجيدري بن حبيب الله:

أودى الضلال ألا فليفرح الجذلا من عاش ضلا مضلا شاقق الرسلا

فيجيبه تلميذ المجيدري وابن عمه مولود بن أحمد الجواء:

أودى الكمال ألا فليفرح الجذلا من لا يموت ومن لا ينقضى أجلا

إن هذا التفتق الثقافي والفكري الذي عرفته الصحراء المغربية البدوية قد يضع علامة استفهام أمام قولة ابن خلدون الشهيرة: «إن العلم إنتاج حضري لا يقوم إلا حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة لأنه من جملة الصنائع»⁽⁹⁾.

وقد يبدو من هذا النمط أن استيطان المدن قد لا يكون شرطاً بالضرورة في ازدهار ثقافي، ذلك أن هؤلاء القوم البدو تمكنوا من تحقيق نهضة ثقافية نموذجية على ظهور العيس وتحت الخيام وفي قفار الصحراء حيث الطبيعة لا ترحم، بل إن العلماء وطلبتهم ظلوا يزاوجون بين فضيلة تعلم العلم ونكهة التجوال طلباً للسياحة، فلا تثنيهم الدراسة عن البحث عن المرعى والكلا وتتبع مساقط الغيث للعيش عيشة كريمة في بيئة امتازت بشح الموارد لتراخي أطرافها وتباعد نقط التعمير فيها، يقول المختار بن بون مفتخراً بهذا النهج الجهادي المتميز:

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بهما نبين دين الله تبيانا

إننا نجد بعض الإرهافات الشعرية ابتداءً من القرن السابع للهجرة عند بعض علماء المنطقة. من ذلك قصيدة دالية على بحر البسيط للشاعر محمد الغالي اشتهرت بقصيدة «القمح»، منها⁽¹⁰⁾:

الحمد لله ما دام الوجود له حمدا يبلغنا منه الرضى أبدا
يا رب هيئ لنا من أمرنا رشدا وانشر علينا من الستر الجميل ردا

وقد يدعم هذا الرأي ما عرف عن الامام المفتي الحصري المعلم الثاني في بلاد الصحراء الذي اشتهر بقوضه الشعر إذ نجد الكثير من أشعاره مبثوثة في كتابه «السياسة».

لقد ظل أهل الصحراء يعيشون بالشعر وللشعر إذ كان حديثهم اليومي في شكل ألغاز ومساجلات وأسمار، مطوعينه تطويعا لشؤونهم وشجونهم حتى كأنهم يرضعون من ثدي أمهاتهم على السجية والفطرة البدوية، يقول محمد فال بن عنين مفتخرا بهذه السمة المتميزة:

الطفل يولد فينا كابن ساعدة منقحادر أصدافها ذهب
أنظر إلى ما لنا من كل قافية لها تدم شذور الزبرج القشب

ومما يدل على تأصل الشعر في البيئة الصحراوية ما تذهب إليه الروايات الشعبية من أن القائد ناصر الدين جلد الحبيب بن بلا اليعقوبي وأمر أن يطاف به مصفدا لقرضه هذين البيتين الغزليين:

رب حوراء من بني سعد أوس حبها عالق بذات النفوس
جعلت بيننا وبين الغواني والكرى والجفون حرب البسوس

لقد كان الشعر الديني أسبق من حيث الظهور من سائر الأغراض الأخرى نتيجة الطابع الصوفي الفقهي عند المجتمع الصحراوي وسهولة مخاطبة الشعر العقل وتطويعه في خدمة أحكام المعاملات وتلقين الفقه السني. وقرض الشعراء في سائر البحور الخليلية، فتفننوا في زركشتها وتنميقها صنعة وتصنعا مما أجدج لهيب شياطينهم الشعرية وصقل قرائحهم ومواهبهم خيالا وتخिला وتخيلًا، فاكتسبوا بذلك ذوقا أدبيا رائقا حصيفا، فحفظوا ذخائره وأطاييبه وعارضوه معارضة استلهام واحتذاء وإيحاء واستيحاء.

ويذكر أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه «الوسيط» اعتداد الشاعر محمد بن الطلبة بنفسه وشعره إذ كان يعتبر نفسه

متفوقا على الشعراء الجاهليين، يقول: «أرجو من الله أن أقعد أنا
والشماخ بن ضرار في ناد من أهل الجنة فننشد بين أيديهم
قصيدتيما لنعلم أيهما أحسن»⁽¹¹⁾.

ويعني امحمد بن الطلبة بقصيدتيهما جيمية الشماخ بن ضرار
الغطفاني التي مطلعها: (طويل)
ألا ناديا أظعان ليلى تعرج فقد هجن شوقا لم يهيج

وقد عارضها ابن الطلبة بجيميته ومطلعها:
تطاول ليل النازح المتـهـيـج أما الضياء الصبح من متبلج
وقال يوما في مجلس أنشد فيه ميميته التي مطلعها:
تأوبه طيف الخيال بمرىما فبات معنى مستجنا متيما

«أرجو من الله أنى أنا وحميد بن ثور ننشد قصيدتيما في ناد
من أهل الجنة فيحكمون بيننا»⁽¹²⁾، ومطلع قصيدة حميد بن ثور:
ألا هيماما لقيت وهيماما ويحالمن لم ألق منهمن ويحما
وعارض بلاميته التي مطلعها:
صاح قف واستلح على صحن جال سبخة النيش هل ترى من جمال

لامية أعشى قيس (ميمون بن قيس) التي مطلعها:
ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

وبما أن ابن الطلبة ممتعض من أحكام أهل الدنيا في مجال
الشعر فلقد أرجأ لذلك نتائج هذه المسابقة إلى يوم القيامة وأسند
تحكيمها إلى فريق من حكام أهل الجنة، فتمنى الإلتقاء بالشماخ بن
ضرار وحميد بن ثور في ملا من أهل الجنة ليتنا شدوا قصائدهم
فيحكموا بينهم.

ونجد كذلك الشاعر سيدي عبد الله بن محمدى يجعل من الشعر
الأندلسي مثلاً أعلى يحتذى رونقا وطلاوة وأسلوباً، يتضح ذلك في
قصيدته الموثبة الطنانة الرائعة معنى ومبنى في مدح السلطان
محمد بن المولى إسماعيل - رضي الله تعالى عنه -:

عروب عروس الزي أندلسية من الأدب الغض الذي روضه ندي

ونجده كذلك يمدح (مسك) بن براك الله بن أحمد بزيد مدحا سهلا
ممتنعا:

(تيجريت) ذاك النيل بالله خبرى بجود غمام أم بجود يدي مسكا
هما تعطيان النوق قبل سؤاله والأبحر بعد الفوص إعطاؤها السمكا
فما (مسك) إلا جنة دنيوية به أضحك الله الورى وبه أبكى⁽¹³⁾

وكثرت الألفاظ والتوريات والكنائيات الطريفة، يقول فتى بن
سيد أمين بن الشيخ محمد المامي:

أبى الدهر إلا أن يكون مروعا بجلب الذي يخشى الفتى وهو ينظر
إذا ما توفى جانب الخوف جاءه من الجانب المأمون ما كان يحذر

فالمأمون المورى به في شطر البيت الأخير إسم رجل معين تزوج
قريبة لفتى بغير رضى منه، فلم يجد مندوحة لذلك من التعبير
عن شعور استيائه تلميحا لا تصریحا عن طريق الرموز الشعرية.

ويقول الشاعر الذيب الحسنى في تجريح قوم شهدوا عليه
لصالح زوجته، مكنيا عن ذلك :

إن الشهود الألى للخود قد شهدوا شهادة سوف عنها يسألون غدا⁽¹⁴⁾
لا يشهدون لدى الأضياف قسمتنا وفي النوائب إن حلت بنا شهدا
وليس منهم سعييد في ديانتته لكنهم خطهم من سوئه سعدا

فكلمة (شهداء) في عجز البيت الثاني تدل على أنهم لا يسألون لبخلهم وجهلهم، وفي هذا تلميح إلى أن شهيد المعركة لا يسأل في قبره، أما قوله في البيت الأخير (سعدا) فالمراد بها إشارة إلى قول ماثور عند أهل الصحراء (من سعادة المرء سوء خطه).

ونجد الشاعر الفحل المقل صلاح بن الشيخ محمد المامي عندما نشب خلاف بينه وإخوته بسبب زكاة مال (أزناكه) وهو في الغربية مع محمد قال بن متالي⁽¹⁵⁾:

<p>مالي إلى الغيد من بشر ولا حركه للمعتدين وفيما قاله بركه خمس وفيها لنفس المعتدي هلكه جاء البشير به من مسلك سلكه ولي عليهم أبو الزغما وما ملكه</p>	<p>مالي أراني كأتى في هوى مسكه مذ قيل إن ضياء الدين أسلمني عندي لهم كلما جاؤوا بغائلة سمر الحديد وعون الله جل وما وشيعه القوث لي من دونهم تبع</p>
---	---

وهذا الشاعر الفحل ماء العينين بن العتيق يبتدع صورة شعرية لا نجد لها مثيلا في الشعر العربي تتمثل في صورة صنع ردف المرأة لإزارها من لحوق ساقها، في أسلوب حوارى ممتع:

<p>ولم يدر طعم الشوق من لا يذوقه وجمر الجوى في الصدر يذكي حريقه من البين لاقى منه مالا يطيقه أبى الردف إلا أن يعاق لحوقه مسوق إليها كيف شاءت تسوقه تخالين من يرنو إليه يروقه تلوح على ماء الثنايا بروقه إن أدليت له لم أدر ماذا يعوقه بردفك مقطوع عليه طريقه مشوق ويبدى للحجا ما يشوقه</p>	<p>ألت فولت بالحجا من تشوقه غداة التقينا للوداع فأدبرت فأتبعتها عيني نظرة مشفق فصادفتها تدلى إلى الساق منزرا فقلت لها والقلب من حسن ساقها أعجبا بحسن الساق منك ترينه فردت إلي الوجه والثغر باسم وقالت: لعا الله الأزار فإنني فقلت لها: لا تعذليه فإنما جزى الله عنك الردف خيرا فإنه</p>
--	---

ويذهب الأستاذ: الخليل النحوى⁽¹⁶⁾ إلى أن ظهور كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» في مصر ابتداء من سنة 1911م

محملاً بالكثير من المعارضات الطريفة أوحى إلى الشاعر أحمد شوقي - وهو يومئذ مازال يتلمس خطاه في أوج عزه ومجده الأدبي - بمعارضاته الأخاذة والطريفة جودة وإبداعاً للشاعر البوصيري في ميميته وهمزيتة الشهيرتين.

وغني عن البيان أن شعراء الصحراء المغربية في البداية انصب اهتمامهم على البعث والإحياء: بعث القديم التليد دون أن يتركوا البحث عن الطريف الجديد، ذلك أنه متى انتفتت الجدة والحدائث في خطابهم الشعري حل محلها العتق والأصالة، فجددوا في شتى أغراض الشعر وموضوعاته. ومن بين من أحسوا بضرورة التجديد والبحث عن حل للأزمة الإبداعية التي يتخبط فيها الشعراء في منهج متكامل يسبق فيه التنظير التطبيق، الشاعر اللوزعي سيدي محمد بن الشيخ ميديا في عينيته النقدية التي تعتبر بحق من «شعر النقد» مجسداً للأزمة الحقيقية ومشخصاً إياها، يقول (17):

يهدى حجاج لمقصود لم يبدع
بكرا فأعيانى وجود المطلع
ألفيتموه ببقعة أو موضع
لي ما أحاول منكم فليصدع

يا معشر البلغاء هل من لوذعي
إنى هممت بأن أقول قصيدة
لكم اليد الطولى علي إن أنتم
فاستعملوا النظر السديد ومن يجد

وظلت اللهجة الحسانية الشعبية ينبوع استلهام، وتجلى تأثيرها كثيراً في أساليب أهل هذا الجيل خاصة في مديحية الشاعر محمد اليدالي:

على حبيبي خير الأنام (18)
بر عطوف ليث هممام
ذاك العلي الهادي التهام

صلاة ربي مع السلام
بادي الشفوف داني القطوف
ذاك النبي الهاشمي

إن هذه المديحية ذات إيقاع عامي لا نجد لها مثيلاً في البحور الخليلية وسبب قرص الشاعر هذه القصيدة أنه كان يسكن في أرض أحمد بن هيبه بن نغماش (ت 1175 هـ)، فسمع شعراً حسانياً في مدح هذا الأخير فأخذته غيرة إلهية وعزم أن ينظم على منواله شعراً فصيحاً في مدح خير البرية، فبلغ ذلك ابن هيبه وأمر بإحضاره فوراً ليستجوبه وهو في حالة غضب شديد. فسأله عما حدث، فأجابه الشاعر بكل إيمان وجرأة:

صرفت مدائحك باللهجة الحسانية في من هو خير مني ومنك.
فما كان من ابن هيبه إلا أن أذعن، وتوطدت بينهما بعد ذلك صداقة خاصة بموجبها أهداه جملاً وخطبه:

هي غرامة لك علي وعلى ولدي إلى يوم القيامة، ونجد كذلك الشاعر المجيدري بن حبيب الله يقرض شعراً فصيحاً على نمط اللهجة الحسانية، يقول:

يا من يرى ولا يرى	عننى الكروب نفس
لقد نفي عن الكرى	شوقي لأهل (تيسرس)
واجعل لأمر عسرا	يسسرا بلا تعكس
لهفي عليهم نبلا	مهبين فضلا
إن قسيس معبد على	غريدهم كالأخبرس
أو قسيس سحبان على	بليفسهم لم ينقس

وهناك من الشعراء من ذهب به الأمر إلى أن خصص صدر البيت للهجة الحسانية وعجزه للغة الفصحى، يقول الشاعر باباه بن الشيخ محمد فال المجلسي⁽¹⁹⁾:

(مان كايل عن مور في الغبله) ⁽²⁰⁾	شاعر ذو عروض ومنطق وبيان
(كار الألفية حت واملغوفاهم) ⁽²¹⁾	لا يبارى شهم طليق اللسان
(عند قدره أعل بيت أكلول) ⁽²²⁾	مفصل مثل عقد مفصل بالجمان
(ويج واحد من تال عكس مع الأول) ⁽²³⁾	كاللئالي على نحور القبان
(هذ ماريت غير مركب محمد) ⁽²⁴⁾	من لديمان ينتمي ودمان

وانطلاقا من هذا يمكن القول إن حركة البعث والاحياء بالصحراء المغربية كانت سباقا في مجال النهضة الحديثة فكريا وأدبيا، فالشاعر ابن رازكه كان بكل استحقاق وجدارة من روادها الأوائل، ولد عام 1060 هـ وتوفي سنة 1144 هـ، عاصر السلطان: مولاي اسماعيل وابنه: محمد - رضي الله عنهما - وكانت له فيهما مديحيات من طراز خاص.

وامحمد بن الطلبة اليعقوبي باعث الشعر الجاهلي من مرقده ولد سنة 1774 م أي قبل ميلاد البارودي بأربع وستين حجة، وتوفي عام 1856 م والبارودي آنذاك لا يبلغ من العمر سوى ثمان عشرة سنة أي قبل ميلاد أحمد شوقي بثلاث عشرة سنة، أما سيدي محمد بن الشيخ سيدنا الذي طرح في قصيدته العينية الفريدة في شكلها إشكال التقليد والتجديد فتوفي عام ميلاد أحمد شوقي أي 1869 م. ولا ننسى كذلك أن ابن رازكه الذي أحيى الشعر الأندلسي توفي قبل ميلاد البارودي بما يزيد على قرن من الزمن. كل هذا قد يحملنا على القول إن شعر الصحراء المغربية كان رائدا في مجال النهضة الأدبية الحديثة، ونهضته سابقة على النهضة الأدبية في مصر رغم انسداد أبواب الابداع والتجديد أمام الشاعر الصحراوي المغربي إذ ظل يعيش في بيئة بدوية قاحلة اشتهرت بشح الماء والظعن حلا وترحالا بحثا عن الكلأ والمرعى، واستطاع مع ذلك أن يبدع شعرا. فهل الشعر بدوي بالطبع؟

ولابد من الإشارة كذلك إلى أنه لما كانت بعض الرباطات والزوايا العلمية بمراكش وفاس ومكناس تعيش حيننا من الدهر على ما اختمر من إشعاع أدبي بالمدارس والزوايا العتيقة في تادلة

وسوس وتامكروت كانت الصحراء المغربية تشهد فترة ازدهار أدبي وفكري وتحول ثقافي خطير خاصة بعد (شريب)⁽²⁵⁾ الذي رجحت فيه كفة النص للقبائل الحسانية ضد قبائل الزوايا مما كرس حياة ثقافية جديدة وتقسما سياسيا واجتماعيا متميزا.

وتطرق شعراء الصحراء المغربية لكل الأغراض الشعرية المعروفة، كما تبرز النصوص الشعرية المتوفرة حتى الآن، اتصال الشعراء الصحراويين بغيرهم من شعراء المغرب في مراكش وتطوان وفاس. فتبادلوا الرسائل العلمية والأدبية. وحظي البعض منهم بمقابلة ملوك الدوحة العلوية وتكريمهم الأريحي وهداياهم الجمّة، وبات مدلول البيعة⁽²⁶⁾ عندهم واضحا في أشعارهم وضوح الشمس قيلولة النهار، إن هذا كله يبعث على القول إن أرض الصحراء المغربية لم تكن غفلا لا أنيس بها كما يدعي أعداء وحدتنا الترابية الضالين المضلين، ولم تكن عطاءات أبنائها الخيالية والتخييلية والمعرفية جافة كطبيعتها، كما قد يتوهم بعض رواد نظرية البيئة، وإنما ظلت قنطرة عبور وهمزة وصل بين شعوب عديدة، ومركز إشعاع ثقافي وحضاري متميز انداح إشعاعه خارج المغرب لينير أصقاعا ظلت مظلمة.

ورغم إسهامات هذه المنطقة الصحراوية في إغناء تراثنا الوطني المغربي، فإنها لم تحظ بعد بما هي جديرة به من عناية الباحثين، ذلك أن أغلب البحوث والدراسات التي أنجزت حول التراث المغربي، كثيرا ما حصرت مجال اهتمامها وأفاق بحثها داخل أسوار مراكش والرباط وفاس وغيرها، متجاهلة ما خلفه أبناء هذه المنطقة وغيرها من المناطق المغربية المحيطة من ذخائر

أدبية نفيسة وكنوز حضارية سامقة، إذا ما استثنينا بعض الدراسات الرائدة التي أنجزها بعض رواد البحث العلمي في بلادنا كدراسة عميد الأدب المغربي، فضيلة العلامة الدكتور: عباس الجراري حول «ثقافة الصحراء». وبعض البحوث الجامعية الأخرى التي أنجزت أو التي هي قيد الانجاز، إن جل التراث الصحراوي ما زال معرضا للضياع بسبب الإهمال وتضافر عوامل الاندثار عليه بسبب:

1- الموقع الجغرافي المتميز، إذ تترامى من ورائه المجابات الكبرى من جهة وبحر الظلمات من جهة أخرى.

2- نظام الحياة البدوية المتميزة بالاضطراب وشظف العيش والكوارث الطبيعية، حيث تضيع الكتب حرقا أو غرقا أو إتلافا، لأن المكتبات متنقلة كأصحابها. إن إنقاذ هذا التراث الصحراوي المغربي مشروع خطير لا ينبغي أن يترك للصحف، ولا بد من تحطيم القيود بالرجوع إلى ماضي هذا التراث الأثيل استشرافا واستيحاء لتأخذ الأمور مجراها الطبيعي نحو غد أفضل ونهضة علمية مستنيرة، وطنية في أهدافها، متفتحة في استلهاماتها، أصيلة في جوهرها.

وإذا كان لابد مما ليس منه بد، فالأولى أن نبدأ من البداية، أي بما هو أهم بالنسبة للمرحلة التي نعيش الآن، وذلك بصقل معالم مقومات هذه الصحراء ثقافيا وحضاريا، إذ ثمة الدعامة الجوهرية. إن في ذخائر أدب الصحراء المغربية أعلقا وكنوزا أدبية مازالت لم تستكشف أو لم ينفض عنها غبار النسيان.

لهذا كله يكون اهتمامنا بأدب الصحراء مبررا، إذ التعجيل بتحقيق ما تيسر تحقيقه منه، يصبح ضرورة أو كالضرورة، فهذا

التراث ما زال في مجمله مخطوط في شكل رقع ومجموعات ومختارات ودواوين شعرية ورسائل وسير ورحلات، بعضها معروف عند الناس بالنسخ والرواية، وبعضها تهدده الأرضة أو يمحوه النسيان من ذاكرة الرواة، ولا يمكن تحقيق هذا التراث ضربة لازب لتنوعه وضخامته وتشتته زمانا ومكانا، وانتشاره بين عدد كبير من الخزانات والمكتبات الخاصة داخل المغرب أو خارجه، وإنما يجب أن يتم جمعه وتحقيقه وفق برنامج مدروس ومحدد.

لقد عمل الاستعمار الغاشم على التقليل من مزايا أهل الصحراء المغربية أدبا وتراثا وفضائل علمية لما أبان عنه أهلها من بطولات وتضحيات في سبيل مقاومته بشتى الوسائل، فعمل على طمس معالمها الحضارية والتراثية بمختلف الوسائل والحيل الماكرة، كإحراق خزاناتها والتنكيل بعلمائها والسطو على ذخائرها العلمية والمعرفية ومسح شخصيتها الوطنية والروحية.

ويمكن أن نجمل المسائل التالية في هذه النقاط:

- 1- أن علاقة أهل الصحراء المغربية بالمملكة ظلت علاقة عضوية.
- 2- أن أنشطة الملوك العلويين اتجاه الصحراء من أجل تحريرها كانت العامل الأساسي في استرجاعها من المستعمر حفاظا على هويتها الحضارية وبالذات في سلطان جلالة الملك المعظم الحسن الثاني، أيد الله ملكه.
- 3- أن التطور الاقتصادي والعمراني والعلمي في الصحراء المغربية بمستوياته المختلفة كان له الأثر الكبير في انتشار الرخاء المعيشي والاستقرار الاجتماعي الذي ساد المناطق الصحراوية.

4- لابد من رد الاعتبار للتقاليد الصحراوية المغربية كإحياء المحاضر لمحاربة داء الجهل والتخلف الأعمى، لأن المستويات الخلقية والأدبية للمجتمع الصحراوي المغربي التي تعكسها النصوص الواردة في المتن، تعتبر في قمة سلم النظم الأدبية والخلقية والروحية.

5- إن الثقافة المغربية الصحراوية ذات وجه حضاري وضيء يعكس صورة ارتباطها في الجملة بالثقافة العربية الإسلامية عموماً.

6- يتعين انتشال ما يمكن انتشاله من التراث الصحراوي المغربي من مخالب الضياع وأكل الأرضة ونفض غبار النسيان عنه بجمعه وتدوينه وتحقيقه لإثبات هويتنا الأصيلة.

7- إن التزوير والبهتان لا يغيران من حقائق التاريخ.

8- يمكن القول إن الكثرة الكاثرة من الأحكام والنظريات النقدية التي اشتهرت في أدبنا العربي كثيراً ما تأسست على نظرة عجلية وتدوين ناقص إذا انطلقت من المركز وهمشت أو تجاهلت الأطراف، وأنصع مثال على ذلك الغزل العذري في العصر الأموي الذي همش إلى درجة التنكيل بأصحابه والحكم عليهم شنقاً بالاعدام لأنهم «تغزلوا».

فهل يعني هذا أن نهضة الأدب العربي الحديثة نشأت ونضجت في الصحراء فكانت ضحية مؤامرة «صمت» عليها؟

الهوامش :

- (1) اعتمدنا في صياغة المقدمة على البحث الذي أنجزناه تحت إشراف العلامة الدكتور محمد بن شريفة لنيل: د. د. ع. بعنوان: تقديم وتحقيق الجزء الثاني من ديوان الأبحر المعينية في بعض الأمداح المعينية للشيخ محمد الغيث النعمة (مرقون بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس).
- (2) من مقال لأستاذنا فضيلة العلامة الدكتور: عباس الجراري أنظر: حوليات كلية اللغة العربية - العدد الرابع 1415 هـ/1994. ص 180، من مقال بعنوان: خواطر حول أدب الصحراء المغربية للمداح محمد المختار.
- (3) أنظر: حياة موريتانيا - الجزء السياسي - للمختار بن حامد، ص 08.
- (4) أنظر: رسالتنا لنيل: د. د. ع. المشار إليها في أول هذا المقال، ص 27.
- (5) هذا ما جعل بعض الباحثين يميل إلى استعمال كلمة «شنقيط» بدل كلمة «موريتانيا»، ذلك أن مفهوم كلمة شنقيط مرتبط بتلك المدينة القديمة ذات الشهرة الواسعة تاريخيا وحضاريا، أما كلمة «موريتانيا» فلقب أطلقه المستعمر الفرنسي في بداية هذا القرن عندما قسم شعوب المنطقة.
- (6) أنظر: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي، ص 493.
- (7) حياة موريتانيا - الثقافة ج 2، للمختار بن حامد، ص 175.
- (8) أنظر تفصيل هذه الأمور في ص 40، من بحثنا المشار إليه سلفا في هذا المقال.
- (9) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة. تحقيق عبد الواحد وافي، لجنة الميثاق العربي، القاهرة، 1965، ص 434.
- (10) أنظر: الخليل النحوي: بلاد شنقيط، المنارة والرباط، المنظمة العربية للثقافة والعلوم بتونس، 1987 م، ص 251.
- (11) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين، ص 95.
- (12) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 118.
- (13) أنظر: حياة موريتانيا «الجغرافيا» للمختار بن حامد، ص 235.
- (14) حياة موريتانيا «الثقافة» للمختار بن حامد، الدار العربية للكتاب، 1990 م، ص 105.
- (15) أنظر تفصيل ذلك في الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 222.
- (16) أنظر: بلاد شنقيط، الرباط والمنارة لل خليل النحوي، ص 255.
- (17) أنظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص 270.

- (18) نفس المصدر، ص 223.
- (19) أنظر: حياة موريتانيا الحياة الثقافية، للمختار بن حامد ص 146.
- (20) ترجمة هذا الشطر إلى الفصحى: لا أقول إنه يرى في الغبله...
- (21) قارئ للألفية جيدا.
- (22) عنده قدرة على قول بيت.
- (23) ويأتي واحد أخيرا.
- (24) هذا ما رأيته في غير سوى محمد.
- (25) (شريب): حرب شديدة الوطيس قادها ناصر الدين عن فئة الزوايا: بلاد شنقيط، الرباط والمنارة ص 100.
- (26) أبرز محطات هذه البيعة ما نجده عند الشعراء والعلماء مثل:
- ابن رازكه الذي ظل صديقا حميما للسلطان سيدي محمد العالم وذا مراسلات علمية وأدبية مع علماء فاس.
- التكريم والاحتفاء اللذان لقيهما الشاعر الجوال المجيدري بن حبيب الله لدى السلطان: سيدي محمد بن عبد الله.
- قصائد العلامة الشيخ محمد المامي بن براك الله (1204 هـ - 1284 هـ) التي كان يختتمها دائما ببيت نموذج دعاء صالحا للملوك العلويين، مشيرا إليهم بضمير الغائب وإن لم يذكرهم مما يدل على استحضارهم في ذهنه يقول:
- (بجاههم بارك لنا في المغرب والعمر يا رب وفي ذا النسب).
- ومشهوره قصيدته (السلطانية) المهداة إلى محمد بن عبد الرحمن بمراكش تقرضا لكتابه (نظم الشيخ خليل) وهي طويلة منها:

فذاك من زماننا ما نطلب
وكل دولة خلت من الدول
زواجر الشرف الأعظمينا
سلسلة الياقات اسماعينا
رواسيا في طولها والعرض
هادية للكتب الممجدة

فإن يعيش في المسلمين مصعب
بعصره نباهي الأعصر الأول
وببني الغر الأكرمينا
الوارثين الشرف الأثيلا
أبقاهم الله لنا في الأرض
قاعدة على رقاب المردة

(إلخ...)

الشعر المغربي وقضية الصحراء

أبو بكر المريني

شاعر في المسيرة الخضراء

مصطفى الشليح(*)

أحكم الاتصال حلقاته بين القصيدة المغربية والواقع الذي تنتسب إليه مظهرها ومخبرها، فانخرطت فيه انخراطاً أهلكها لأن تكون معبرة عنه، وجعل من بعض نماذجها تكاد تكون تقريراً أو وثيقة مما أزاح عنها - أحياناً - رداء الشعرية والجمال وحوّلها إلى ضرب من المقال ليس له من ضوابط الشعر إلا وزن وقافية وهما ليسا بالمؤهلين لانتاج كلام فني ينزاح عن المعتاد.

وإذا كان الإتصال قائم المقام في النماذج برمتها - وهو ما نسعى إليه - فإن خصوصية القصيدة المغربية نبعت من ذياك المقام من حيث إنه مبلور لانعكاس الواقع على النص، بكافة مفارقاته وتناقضاته، الذي تمظهر شعراً أو نثراً أو هما معاً. وغني عن البيان أن المغاربة - على غرار الأندلسيين - وصلوا بين الإنتاج نظماً وشفعه نثراً، بل إن بعضاً من كتابات الشعراء المغاربة زاوج بين الصناعتين في عمل أدبي واحد.

نعتقد أن النص المغربي أبرز جدلية العلاقة بين الأنا والنحن، بين ذات المبدع والذات الجمعية، وبين الأنا والآخر، ثم بين اختزال

(*) أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، جامعة الحسن الثاني.

استقبال الشاعر للمعطيات الخارجية ونوعية تذويتها واستثمارها
فإرسالها إلى قارئ مفترض تحكمه أجواء محافل معرفية،
وتضبطه متعاليات تراثية معينة.

من هنا - وبعيدا عن معياري الجودة واللاجودة - تمتلك القصيدة
المغربية فضاءها التداولي وبرنامجها الترويجي حسب المقاييس
السائدة عصرئذ. كان المبدع والمتلقي آخذين بحواشي النص إنتاجا
 وإعادة إنتاج، وكانا - معا - يتجاذبان قطب رحى عملية التواصل،
ويداعبان آليات اشتغال الجهاز القرائي في المجتمع المغربي إنتاجاً
فرواجاً، وامتلاكاً فاستهلاكاً فانتهاكاً.

وسم الاتصال - إذن - الثقافة المغربية، موضوعاتيا وفنيا،
داحضا ما ترتئيه بعض الأبحاث من كون الانقطاع ظل سيداً، و من
كون الأجيال عملت بدون ذاكرة. وإذا كنا قد أكدنا حوارية التجارب
في الشعر المغربي، وأثبتنا ما نعتقده صواباً من أن الاستمرارية
هيمنت على الأدب المغربي⁽¹⁾؛ فإن الرأي - عندنا - مازال قائلاً: ان
التجربة الشعرية المغربية عالقة قوادمها بخوافيها ولاحقة
أعجازها بصدورها.

إن تأملا دراسياً للتراجم والفهارس والمناقب، ناهيك عن المجاميع
الشعرية والنثرية الصرف، وان تعاملنا متقصيا لاشتغال التناسل
ولجوانبه غير الملتفت إليها من تخميسات وتذييلات، ومراجعات
ومساجلات، وتشطيرات وتضمينات لمن شأنهما أن يكشفاً عن
مواطن جمال واتصال انصرف عنها الدرس النقدي معتبرا إياها
قاطرة منظومات وان كان الوقوف على أرصفة المباشرة النصية
وحده يخول التمييز بين الشعر واللاشعر. ذلك التناسل المبشر
بالتناسلات النصية مؤشر إلى ما ندعوه : معرفية الإتصال.

ومعرفية الاتصال حرية أن يفرد لها حيز دراسي يجاور النص ويحاوره، يتسلل إليه ويساءله، يختبر أمر انقطاعه ويسبر عمق تقاطعه، ويسكنه ليستشف لمح التداخل وروح التكامل في ضوء النسقية الواضحة معالم التعدد والتوحد في القصيدة المغربية.

بهذا، وبغيره من التصورات، يفحص الشعر. وباستحضار الأصول تُجس معاصم الفروع؛ فالابداع ليس معناه الاقلاع من بياض. ثم ان الذاكرة عنصر فاعل في لعبة الانتاج. ولا نعتقد أن هناك شاعراً اغتال ذاكرته، وإذا حدث هل في مقدوره أن يغتال ذاكرة المتلقي؟ وإذا وقع فما هو السُّن الذي تُركب وتفك الرسالة الواصلة بين الشاعر والقارئ؟

للذاكرة، إذن، دور في دعم أطروحة الاتصال - في المغرب - بشقيها:

1- الاتصال بالنص السابق.

2- الاتصال بالقارئ اللاحق.

هما شقان يؤسسان تراوح العلاقات بين ارتداد وامتداد : بين ارتداد إلى الذاكرة، وامتداد إل حيث المتلقي داخل/ خارج الدائرة.

ولعل وفادة الشعر المغربي من الصحراء، نابضة بالاتصال وخائضة في النضال، ما يدعم ما ورد أنفا من مستحكم الصلة بين القصيدة وواقعها. فشعر الصحراء كان وما زال (أداة وحدة، ووسيلة تواصل، أي أنه لم يكن في يوم ما شعرا منعزلا أو منفلقا يتحرك في بيئته فقط، ولكنه كان دائما يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته في عملية أخذ وعطاء مستمرين، توصل فيهما بكل الممكنات المتاحة لاثبات الوحدة وتأكيد التواصل، على

الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة بما تلقى به في الطريق من عوائق وحوادث⁽²⁾ كما يقول د. عباس الجراري.

ينهض أمران بتاريخية وفادة الاتصال:

1- انتقال بعض أدباء الصحراء وعلمائها إلى أقاليم الشمال وإقامتهم فيها للدراسة أو التدريس، أو هما معاً.

2 - تبادل الإجازات العلمية بين علماء الصحراء وعلماء المناطق الشمالية⁽³⁾.

ويؤطر ذينك الأمرين، وغيرهما، أساسان مركزيان:

أ : البيعة والولاء للأمير المؤمنين ملك المغرب.

ب : وحدة الدين والعرق واللغة والثقافة.

أساسان وحدا بين أصوات يحجب بن خطر، ومربيه ربه، وأحمد الهيبه، ولارباس بن الشيخ محمد الأغظف وغيرهم⁽⁴⁾ بأصوات علال الفاسي، ومحمد بن اليمني الناصري، ومحمد المهدي الحجوي، وعبد الكريم سكيرج، ومحمد السليمان، ومحمد المختار السوسي، وعبد القادر حسن⁽⁵⁾. للمناداة بالاصلاح، والدعوة إلى مواجهة الاستعمار ومجابهته، وتجاوز الكائن إلى الممكن. وقد كان ذانك الأساسان المؤطرين للذين لم يفلح المحتل في إخمد نورهما ونارهما، والذين صيرا الفعل الشعري دعوة للجهاد، وواجهة للنضال، وأبلغ رد على أشكال الجبروت والاستعباد.

إن هذه الوحدة بين شمال وجنوب البلاد قادت المغرب إلى تنحية كل ما من شأنه أن يشوب صفاءها، وذلك بإعلان القرار التاريخي بتنظيم مسيرة خضراء إلى الصحراء منذ عشرين عاماً.

وإذا كان القرار يستوجب دراسات متنوعة المجالات المعرفية فإن ما يهمنا منه - بحكم اهتماماتنا - المتن الشعري الذي تراكم قبله، والنصوص التي رافقته وخلدته، والقصائد التي انتظم عقدها بعده وأصبحت محتفية بذكرها.

وليس المطمح استقصاء كل ما قيل من شعر في اللحظات التاريخية الثلاث، ولكن حسب هذا البحث إشارات إلى بعض منه بدءاً، وحسبه إضاءات لما انفك منه مخطوطاً، وحسبه - ثالثاً - التركيز على شاعر مغربي شارك في المسيرة الخضراء، وترك من القصائد ما قد يشكل ديواناً في الوطنيات.

شاعر هذه الدراسة أو الذي تنصب على أشعاره هذه الدراسة هو: أبو بكر المريني⁽⁶⁾ الذي تميز بثراء المشاركة الثقافية في مختلف الأجناس الأدبية، واتسم - على منوال الشعراء المغاربة - بوفرة الاسهام، شعراء، في القضايا الوطنية والقومية.

وقد هيمنت قضيتان على شعر أبي بكر المريني: قضية فلسطين⁽⁷⁾ وقضية الصحراء، سواء في أشعاره السياسية أو الدينية، أو المواقبة لحدث من الأحداث.

وقضية الصحراء - قبل المسيرة - استأثرت بشعر علال الفاسي - علاوة على موقفه السياسي، ونشاطه الإعلامي والثقافي -؛ ولعله - فيما نعلم - أن يكون الوحيد الذي نظم قصيدة وطنية ابتهاجاً بـ (اجلاء رفات المارشال ليوطي عن المغرب)⁽⁸⁾ دعا فيه إلى رفع القيد عن الصحراء:

وتوحـدت في ظله أنحاؤها
فلقد تنوء بقيدهم صحراؤها
وبنو الجنوب وأرضهم أسراؤها

وطني العزيز تقدست جنباته
ان كان حرر أرضها وجبالها
انى تطيب حياتنا بشمالنا

نحن الذين تعاهدوا أن يبذلوا
لا نستكين إلى الهناء برهة
من أجلها، أنا لديك فداؤها
حتى يتم إلى البلاد هناؤها

ويتوجه في مولدية⁽⁹⁾ إلى جلالة الملك باعتباره حامي الوطن
ومحرره:

يا ملك البلاد أنت لها اليوم
كم اقاليم في بلادك مازالت
وأهالي الصحرا الشناقطة الفر
مالهم في سوى التحرر والوحدة
كلهم يرقبون أمرك بالفتح
لا تمام الوحدة الوطنية
تنادي: الي يا منقذيه
ذوو العزم والنفوس الابيه
من غواية ولا أمنيه
ليغدوا سهام تلك الرمييه

ويخلص في مولدية ثانية إلى الحديث عن منى الصحراويين في
أن يكون لهم جلالة الملك مآبا⁽¹⁰⁾. ويخص تلك المنية برائية
سبعينية عنونها بـ (نداء من الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى
المواطنين ملكاً وحكومة وشعباً)⁽¹¹⁾ يقول منها:

ويا أبناء قومي في الصحاري
ففضلكم على الوطن المفدى
وان المغرب الأقصى ليعنو
وكل بني البلاد يتوق دوماً
على تحريركم أهلاً وأرضاً
ثباتاً في مواجهة المجاري
يسجل في صحائف من نضار
إليكم في اشتياق وانتظار
إلى بذل الفداء على اختيار
وفك إسار احرار ضواري

وخليق بنا أن نشير إلى ديوان (عبقّر في معركة التحرير من
أجل استرجاع أراضينا المغتصبة)⁽¹²⁾ لمحمد بن محمد العلمي الذي
اشتمل على أربع عشرة قصيدة تمحورت كلها حول قضية الصحراء
المغربية، دون أن نغفل - تمثيلاً - بروزها في العرشيات مثل
(موعد مع الصحراء)⁽¹³⁾ لمحمد الحلوي، و(صحراؤنا لك تشتكي
أوصابها)⁽¹⁴⁾ لعبد الكريم التواتي، و(دعوت الصحرا فوافقت
جموعاً)⁽¹⁵⁾ لمحمد الكبير العلوي.. إلخ.

في ضوء ما تقدم تُوضع قصائد أبي بكر المريني، وقد اخترنا
منها ثلاثة نصوص تمثيلية قد تختزل محاورها في ثلاثة: البدعة
والبيعة والروعة.

1- البدعة : ومفادها سفر الاستعمار خارج التاريخ بسعيه إلى فصل الصحراء عن الوطن الأب.

يقول في فاتحة قصيدة (معركة الصحراء) (16):

<p>وفرخ في صحرائنا الدس والغدر عن الوطن الغالي وفي النية المكر وما عزموا فطابق الخبر الخبر .. وطفخوا باغين يحدوهم الشر بساقيتي الحمرا وواد هو التبر .. الشقاق لكي ما يستمر القهر وليس لهم في الحكم نهي ولا أمر نراها، وفي الصحراء كم يصعب الحفر وأن بها كم يسهل الدفن والقبر</p>	<p>بني وطني هبوا قد استفحل الأمر لقد بيت الأسباب فصل قفارنا ورددت الأخبار ما خططوا لها وقد مزقوا ما قررت أمم بشأنها يريدون تزييف الإرادة جهرة لعزلهم عنا وتعميق هوة وتنصيب أنصاف الرجال (لدولة) وقد هياؤا للحفر أبلد خطة وقد جهلوا أن الفيافي منيعة</p>
--	---

ويضيف من أخرى تأتلف مع سابقتها معنى ومبنى، وتشاكلها في رفض مغامرة الأسباب في ما وراء معنى التاريخ، وتختلف معها من حيث الاستهلال بمطلع حماسي بطولي يغلب عليه الطابع الحكمي. يقول في (ثورة الحر) (17):

<p>والعزم أمضى سلاحاً في يد البطل فوق الثريا ولو يمترك بالقبل وليس في إبقائه عذر لذي غل لأبد يوماً سيعلو قمة الجبل مهما يدبر لصه من الحيل وليس يعطى تقول سائر الملل حتى ولو أنهم أخفوه في زحل</p>	<p>الزحف أقطع دابراً من الجسد والخصم خصم وان كانت مناقبه والعار عار وان كقيد أنملة والحر حر وان قصت جوانحه والحق حق ولن يضيق طالبه والحق يؤخذ رغم أنف غاصبه لأبد يرجع كاملاً لصاحبه</p>
---	---

لسنا في معرض رصد جمالية التعبير الشعري وقدرته على التخيل ونقله للحدث من ماهيته الفيزيائية إلى فضاء ذي شعرية رائقة دون أن يفقده حرارته الموضوعاتية، ولكنه بادٍ من خلال النموذجين، جنوح الشاعر إلى المباشرة والخطابية. هل كان الحدث في عنفوانه أقوى وأعتى من مباشرته بالفن والجمال؟

يذهب بنا الاعتقاد إلى ذلك التخريج دون أن يبعد عنا القول إن المقطعين مفتقران - في شذرات منهما إلى الرونق والماء الشعريين.

2- البيعة : وسرها اختيار روحاني ووثاق نوراني بين العرش والشعب. وقد انبنت القصيدة المادحة - في المغرب - سواء أكانت عرشية أم مولدية على إبراز تلك الرابطة المقدسة بين أمير المؤمنين والرعايا من خلال ثلاثة مكونات: النسب الشريف، والامامة، والأيادي البيض. وان الناظر في الشعر الوطني يقف على هذه الخصوصية المغربية المزاوجة بين الديني والسياسي، والملتفة حول جلالة الملك باعتباره المحرر والمنقذ من عنت الاستعمار. من ثمة فالبيعة اجماع ولاء الشعب لجلالة الملك، وقد تبارى شعراء العرشيات في بيانه والتعبير عنه.

هذه البيعة هي الوثيقة الأولى الشاهدة على مغربية الصحراء، وهي - كما أشرنا - الأساس المركزي الحق لاستمرارية التواصل بين شمال المغرب وجنوبه. يجعل أبو بكر المريني البيعة لنقض البدعة التي رام المحتل إحداثها في صحراء المغرب. يقول:

واجتماعنا يقوده الملك الحر
لتحرير أجزاء الحمى، فله الأمر
وأن يتحدانا فقد ضمه القبر
وقائدنا حتى يتم لها النصر
لها الدم بخس والنفائس والعمر

وقد أجمع الشعب الأبى على الفدا
وللحسن الثاني عقدنا لواءنا
وويل لخصي أن تمادى بغيبه
ومعركة الصحراء في قلب شعبنا
وانا لها عرشا وشعبا ودولة
ويضيف :

الصحراء والخصم فيها مس بالخبل
بمغربيته وسائر الدول
الثاني وكذلك شأنه مع الأول
وقد لجأنا إلى التحذير والرسل

فصرخة الحسن الثاني تردها
صحراؤنا يشهد التاريخ من قدم
والشعب قد عقد اللواء للحسن
واليوم نرجعها والله كاملة

ويزيد من أخرى قيلت بمناسبة عيد الشباب (اليوم عيد ولا فخر) (18).

والكل خلف المليك ثائر جـذل
عيد توحد فيه صف أمتنا
وعيدنا يوم ندعى للشهادة لا
نسعى إلى نيلها والقلب مبهتهج
فقل لمن ساء ظنهم بوحدة صفنا
وساء ما دبروا، وساء كيدهم

3- الروعة : ودلالاتها بشرى يزفها الشاعر إلى الراسفين في
أغلال الظلم والاستعمار بدنو إشراقة الخلاص. وأكد أن هذا
الاختتام الباسم للقصيدة ديدن معهود في بناء القصيدة الوطنية
بشكل عام، والمسربلة منها برداء الصحراء بنوع خاص، وقد تداولها
الشعراء المغاربة بل تعاوروها وافصحوا عنها بألوان متعددة.

تأخذ الروعة موقعها من قصيدة (معركة الصحراء) وفق حركة
لولبية تصل ما تأخر من الأبيات بما تقدم، ويسعف، في ذلك
الوصل، التكرار المتشع بأسلوب النداء. يقول :

بني وطني في قلب صحرائنا أبشروا
ويوم غد حادي الجمال يغنيكمو
فمهلا فإن موعدي معكم ضحى
ويعتز تاريخ النضال بشعبنا

وهي تقنية يعيد توظيفها في الميمية الواردة أعلاه :
يا اخوتي ثم لا.. لا تياسوا فلقد
انا على موعدي يقودنا الحسن
مجاهد ليس في الملوك ثانيه

ويكرر استثمارها في اللامية:

يا اخوتي في العيون والسمارة..
وسوف أشدو لكم تحت الخيام ملا
وموعدي معكم غدا، وان غداً

اني سوف أتيكم بالعيد والقبل
حم المحببة فيكم إن ذا أملي
يدق بالباب محمولاً على جمل

لقد شكلت هذه المحاور الثلاثة: البدعة والبيعة والروعة مكونات قصيدة الصحراء عند أبي بكر المريني، مع ما يمكن أن يتفرع عنها من مكونات صفري؛ وهي، في مجملها، نموذج لنوعية تعامل الشعر المغربي مع قضية استكمال الوحدة الترابية. وإذا خولنا لنفسنا حق وسمها بالألوان فلنا أن نقول: إن الأسود والأحمر والأبيض، ألوان قصائد المرحلة:

أسود ← استعمار.

أحمر ← غضب شعبي.

أبيض ← بشريات التحرير.

هذه الألوان الثلاثة التي تدرجت من السواد إلى البياض في النصوص الشعرية عموماً، وقد يكون منها من توصل في البناء المعماري للقصيدة بإثارة الحمرة، قبل السواد، تمهيداً للبياض.

تلك الألوان الثلاثة اختزلت إلى لونين، والتراتبية عدلت عن وجهتها المذكورة سلفاً، فأصبح النص مركباً من الأخضر الذي أطاح بالأحمر باحتوائه قراراً مصيرياً وزحفاً شعبياً بالقرآن والإيمان في مسيرة خضراء لاسترداد الصحراء، ومن الأبيض الذي تسامى صعوداً من اختتام النص به إلى استدعائه ليكون استهلالاً.

وفق لعبة الألوان هاته أو قريب منها تحرك الشعر المغربي عقب إعلان قرار المسيرة. وقد يملك الناقد تعليلاً، أو لا يملك، لدرجة الجودة التي أتت عليها قصائد تلك اللحظة، على الرغم من ضغط الزمن وعدم التفات الشاعر إلى التنقيح والتحسين. أهو الصدق العاطفي يوازي - لا شعورياً - تحريك القول؟ أم أن الشعر - أساساً

- ما ينقال وليس ما يقال؟ انها اشكالية تستوجب درساً لانها سوف تتكرر في القصائد التي قيلت في حرب الخليج.

تساؤلات يمكن للقارئ أن يثيرها والمقارنة معقودة بين النماذج التي سيقى لأبي بكر المريني سلفا والنماذج التي سوف تطرحها الدراسة لتعرف بها أولاً ثم لتجالسها - برفق - ثانياً. لقد تخلى الشاعر عن لغته المباشرة، وعن خطابيته المججلة، وبدأ يعبر بالصورة؛ وحتى حينما تحتد نبرات الخطاب فإن جمال الشعر يلطفها، أو قل إنه يكسبها أداء شعرياً رقيقاً.

تمثل قصيدة محمد الحلوي (العبور الأكبر)⁽¹⁹⁾ البلورة الشعرية الرائقة لاتصال الشعر بالحدث، ونحن نتحدث عن أدبيات المسيرة، وتعبر نصوص أحمد عبد السلام البقالي عن مسامرة للحدث في مختلف أطواره، وقد تكون وافرية محمد الكبير العلوي (جيوش الله ظافرة)⁽²¹⁾ من أبلغ ما قيل من شعر.

لكن، ومن غير اعتماد مقياس المفاضلة، تقف قصائد أبي بكر المريني على قدم التكافؤ في الجودة مع غيرها من النماذج الواردة أعلاه. هنالك خمسة نصوص نظمت قبل الاعلان عن انطلاق المسيرة الخضراء، ولعل (اليوم المشهود)⁽²²⁾ أن تكون - في اعتقادنا - من أجمل ما كتب أبو بكر. يقول في مطلعها :

قف يا زمان فإن اليوم مشهود	الحق جاء وظل الله ممدود
والحق يعلو ولا يعلو عليه فقل	لمن تربص: للتزوير تفنيد
والحق مطلبنا، والعدل حجتنا	والسلم خطتنا، والحكم تأييد
لاهاي أنصفت التاريخ مقسطة	وللعادلة تقدير وتمجيد

ويضيف:

والله أكبر تلو في مسيرتنا	والنصر أت تحييه الزغاريد
وكل حبات رمل البيد راقصة	شوقاً لأقدامنا: لبك يا بيد

لبيك صحراءنا، لبيك من حسن
نفديك من كل طماع ومفتصب
ومن رجال هم الصيد الصناديد
والمجد في مفرق الصحراء تأبيد

ويردف متحدثاً عن زحف المسيرة المتوقع:

اعلامنا الحمر في الصحراء نرفعها
وفي يد مصحف، وفي يد علم
جئنا نؤف سلاماً في مرابعا
انا لنكتب بالقرآن ملحمة
والله أكبر تهليل وتحميد
وفي اللسان كلام الله تجويد
لاخوة حبلمهم بالله مشدود
لها خلود، وتمجيد، وترديد
على مدى البصر الممدود مشهود
في المغرب اليوم يوم الحشر نسبقه

ويخلص إلى المشاركين في الزحف:

مسيرة الفتح والاعلام خافقة
كأنها رجة في الأرض منبئة
والشمس تشرق من أقصى مغاربها
قوامها الشيب والشبان والغيد
بساعة الخصم فهو اليوم موؤود
خلاف عاداتها، واليوم موعود

ويختتم بقوله:

ونحن بعنا إلى الرحمان أنفسنا
والله أيدنا بالجنود من مـ
من يعتصم بك يا الله تنصره
والبيع لله ربح كله جود
أعلى وما لجنود الله تحديد
وان نصرك يا الله منشود

وإذا كان المجال - كما اسلفنا الإشارة - لا يتسع لمعالجة نصية عميقة لـ (اليوم المشهود) لغةً وصورةً وإيقاعاً، فإن إطلالة أولية على النص تحقق ذلك الانجذاب الذي يحس به المتلقي: انجذاب المتعة والاقبال مما يوفر حميمية التواصل الذي ينشده كل مبدع وقارئ.

لقد كتبت القصيدة في سلا قبل التحاق الشاعر بالجماهير المشاركة في المسيرة متطوعاً وصحافياً ورئيس تحرير لمجلة (الفنون) التي أصدر منها عدداً خاصاً بالمسيرة الخضراء وكتب فيه تحقيقاً مطولاً⁽²³⁾ عرض فيه لمختلف مراحل المسيرة من الخطاب المولوي بتنظيمها إلى القرار الملكي السامي بإيقافها وعودة المجاهدين إلى منطلقهم. ونكاد نذهب إلى أنه ليس تحقيقاً بقدر ما

هو مندرج في جنس الرحلة باعتباره يستوفي جل مكوناتها ومقوماتها.

اعتبر أبو بكر المسيرة حجا إلى الصحراء في مقطوعة نظمت قبل وصول الوفود إلى مراکش :

لست وحدي حاجا إلى الصحراء
زاحفا في المسيرة الخضراء
حاملا قرآني بكل آباء
صامدا كالاطواد للأعداء
طامعا في اللحاق بالشهداء
داعيا للسلام غير مرائي
مألئا قلبي بالهدى والوفاء
سابقا للخيرات يوم اللقاء
لست أخشى العدا وأي اعتداء

ومن مراکش بعث برسالة حب للعيون⁽²⁴⁾ استهلها بقوله:

ها أنا قادم إليك عيوني	بعيون ملأى بكل حنان
وبقلب فاض الهوى فيه حتى	لم يعد قادرا على الكتمان
وسأمشي على عيون فداء	لك يا صحرائي من الطفيان

وفي مراکش نظم ميمية بسيطة تغنى فيها بالتاريخ النضالي لمراكش، نسوق منها بعض أبيات للتدليل. يقول من (قلعة المجد)⁽²⁵⁾:

تكفي منارتها للناس معلمة	يبلى الزمان ولا تبلى من القدم
تروي بطولاتنا من عهد وحدتنا	بالدين والفكر والعبادات والرحم
وانها الشاهد المعصوم من خطايا	يعيا الخطيب، ولا تعيا من الكلم
مراكش الحصن منها الزحف منطلق	إلى ربوع عليها حالك الظلم
والنخل يرقص فيها اليوم من طرب	ويمتطي صهوة التاريخ في شمم
يعانق الشمس في عليائها جذلا	وقد اطل على الصحراء والقمم
كأنه كاتم الأسرار مؤتمن	على سرايا الهدى والحق والقيم

ونختم هذه الشبكة من النصوص المرينية التي قيلت قبل السادس من نونبر 1975 بمقطوعة يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، وتحضر فيها الأرض والمرأة، ويبرز فيها الشاعر المحب. يقول في (رسالة إلى زوجتي):

مالي سواك رفيق الدرب والعمر
أنت الشذى في حياتي طيب العطر
وأنت حاضرة في القلب والفكر
مهما تناءيت في الصحراء والقفر
غدا أعود إليك طافح البشعر
وفي يدي باقة من واحة النضر
فترتمين بأشواقٍ على صدري
وأمسح الدمع من خديك والثفر
وحولنا طفلتان بهجة العمر
وكم سأحكي لكم عن قصة الفخر
من يوم ما زحفت مسيرة الدهر
إلى دخول العيون ساعة العصر
في موكب الفتح بالقرآن والذكر
ووقفتي في ركوع الحمد والشكر

ويمكن أن نختلس من البيت الأخير حدس الشاعر بصلاة الشكر التي أداها المتطوعون عقب اقتلاع الأسلاك الشائكة الراسمة للحدود الوهمية، والتي صورها في التقرير / الرحلة بقوله: (ونادى المنادي ان حيا على الصلاة: صلاة الشكر والحمد، وخط كل ما بيمينه وتيمم صعيدا طاهراً، واستقبل القبلة وراء الامام لهذه الصلاة التي سمعنا عنها وقرأنا عنها في كتب التاريخ الإسلامي وأيام الغزوات النبوية، والفتوحات الإسلامية فيما بعد)⁽²⁶⁾؛ ثم التي افصح عنها شعرا⁽²⁷⁾:

<p>ببخشوع وعزة الفاتحيننا بدموع في خشية الضارعينا كان عوننا لنا من المفسديننا اليوم حدوداً كم ردت الزائرنا</p>	<p>إيها الساجدون لله شكرا إنني بينكم أبلل رملي نعم هذا السجود منا للرب هذه «الطاح» قد أطحنا بها</p>
--	---

إن قراءة أدبيات المسيرة تبين عن التفاعل بين السياسي والجمالي، وهو تفاعل تشكلت ملامحه في الشعر الوطني في عهد الحماية، وتبلورت في مواكبة القصيدة للاحداث الوطنية التي عاشها المغرب، ولقضايا الأمة العربية والإسلامية. وقد تناسلت قصائد المسيرة في مؤازرتها للجيش المغربي والمعارك التي خاضها في الصحراء، وأبدع الشعراء نصوصاً تشيد بالملاحم البطولية لجنودنا الأشاوس⁽²⁸⁾.

وغني عن البيان أن موضوعة الصحراء ما انفكت أطروحة مركزية في ديوان الشعر الوطني في مختلف المناسبات، بل ان السادس من نونبر أصبح شاهداً على نتاجات شعرية متوالية تستروح عبير الذكرى، وتفصل أمر الانجازات الانمائية في الصحراء.

من هنا نقدم شذرات من نموذجين لأبي بكر. فأما أولهما فـ (شعب المسيرة في التاريخ والكتب)⁽²⁹⁾ جاء فيه:

<p>حر أبي كريم النفس والنسب وذو ملاحم لا تنسى من الحقب تعلو على قمم الجوزاء والشهب تروي حضارته عن شامخ الرتب</p>	<p>شعب المسيرة في التاريخ والكتب شعب الأصالة ذو مجد وذو شيم شعب البطولات يبني المجد في قمم شعب المكارم والحصن الحصين لها</p>
--	--

وأما ثانيهما فـ (شعب الخلود أنا)⁽³⁰⁾ نجتزئ منه مايلي:

شعب الخلود أنا، نار على علم
دمي فدى الأرض والاسلام أهرقه
إذا أردت فإن الله ينصـرنـي
شعب المسيرة كم أدهشت من أمم
ولست أرضى بغير المجد والقمم
ولا ترى في الأعلى الهمم
وان خطوت قراني راسخ القدم
بالعزم والحزم والاقدام والحكم

نموذجاً أبي بكر في الاحتفاء بذكرى المسيرة يعمقان - في نظرنا - تجربة شعرية مغايرة، ان قليلاً أو كثيراً، مرّ بها الشاعر مباشرة بعد اصدار ديوانه (قالت لي الحرية)، وتمثلت بجلاء في ديوانه المخطوط (من يقود الزحف؟). أصبحت (الانا) حاضرة، بامتياز، في القصيدة المرينية. هي (انا) جمعية، تقمصية، ومحتوية لـ(النحن). (أنا) مؤلفة بين شاعر الغزليات في (عد يا حبيبي)، وشاعر الوطنيات في (ظلال الدوحة)، وشاعر القوميات في (قالت لي الحرية)، ومركبة لشخصية استكملت نضجها الرؤياوي، وحككت ادواتها الشعرية وثقفتها، وكأنها انسلت من معطف (النموذج) لتؤسس كونها الشعري الخاص، وترفد القصيدة المغربية بما يمكن أن يكون اضافة.

إن هذه التجربة التي امتدت من 1972 إلى 1980 ناتجة عن عوامل امتزج فيها الذاتي بالموضوعي، واندمج فيها واقع المرض بمتوقع تجاوزه بخلق فضاء ثان يكفل امتلاك الحياة من جديد. ثم هي تجربة طفى فيها اعتماد الشعر أداة تعبير، وتراجعت سائر الأجناس الأخرى التي حقق فيها أبو بكر تراكما مهماً مازال أكثره مخطوطاً. وهي تجربة تجذرت فيها معرفة الشاعر بالعلوم الإسلامية، وخاصة علوم القرآن. من خلال دراساته العليا بدار الحديث، وتحضيره لرسالة دبلوم في موضوع (الامثال في القرآن الكريم) باشراف استاذنا د. عباس الجراري.

من هنا تميزت هذه التجربة عن سابقتها، وخلقت لنفسها فضاء إبداعياً خاصاً اتسم بحضور ذات الشاعر في قصائده ذات الأغراض المتعددة، بل إنها أحدثت اطاراً ايقاعياً مغايراً، وشهدت - عروضياً - هيمنة البحر البسيط على معظم النصوص بعد أن كانت السيادة لثلاثة بحور: الخفيف والطويل والرجز. ولسنا نعتقد أن الانتقال من توظيف بحر إلى آخر عفوي وساذج، ولا يقتضي تأملاً واستبصاراً نقديين؛ وقد نخص هذه الانتقالة بدرس مستقل يعالج البواعث، وينظر في الدواعي والمقاصد.

واننا، اذ نقف عند هذه العوامل الخارج نصية للتعريف بها، لمدركون أن تناول عمل أدبي بالدراسة لا يتم بالجلوس بين يدي النص، بانغلاق تصوري وبُعدي فقط، ولا يكتمل بالتفكيك دون اعتبار لتركيب متأتٍ من التحليل والتأويل. ومن شروط التأويل التدبر في (أسباب النزول)، والتفكر في مشكلات ما قبل النص إذا أمكن. وقد يكون في المناهج الحديثة ما يسعف في حسن التلقي، ولكن الاسعاف يحصل عطاءً إذا توسل بما في خارجيات النص من إضاءة وإضافة.

نعود إلى المسيرة وأثرها في القصيدة المغربية. فإذا كانت الحدث الذي أخصب تجربة أبي بكر الشعرية فإنها أمرعت في روضة العرشيات، وأصبحت هذه المناسبة الجلية مناسبة لاستعادة حدث المسيرة مستقلاً، أو اعتباره أطروحة مركزية للقصيدة المادحة. ومن ذلك النماذج⁽³¹⁾ الآتية:

- المهدي الدليرو : موشح المسيرة

- محد البوعناني : الأرض في دمننا

- المدني الحمراوي : ذكرى المسيرة الخضراء
- أحمد بن أبي شعيب الدكالي : تحية المسيرة الخضراء
- أحمد عبد السلام البقالي : الصحراء تحكي شوقها
- محمد الكبير العلوي : هاهو اليوم ذا يتم اللقاء
- عثمان جوريو : عرشنا وصحراؤنا
- قدور الورطاسي : بين بطاح العيون
- المدني الحمراوي : الامامة والمذهب
- محمد الحلوي : مسيرة المجد

ومن الأكيد أن حدث المسيرة فجر طاقات جديدة في جسد القصيدة المغربية، لاسيما العمودية منها، وأنه عمل، بفاعلية على زحزحة ثوابت البناء المعماري، وعلى إلbasها تنوعاً موضوعاتياً خرج بها من المطروق المعهود من المعاني إلى مستطرف أكسبها دماً آخر، وخول لها أن تبقى معبرة عن ضمير الجماعة، وشاهدة على الواقع الذي تنتسب إليه⁽³²⁾.

الهوامش :

- (1) انظر أطروحتنا: شعرية الخطاب في القصيدة المغربية 55/1. مرقونة بكلية الآداب، الرباط.
 - (2) د. عباس الجراري: معالم مغربية ص 129.
 - (3) نفس المصدر، ص 130.
 - (4) انظر رسالة د. محمد الظريف: الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين، ص 589.
- رسالة دبلوم تحت إشراف د. عباس الجراري. كلية الآداب الرباط.

- (5) انظر: د. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها.
د. إبراهيم السولامي: الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية.
د. أحمد الطريسي: الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب.
د. أحمد الطريسي: الابداع الشعري والتحويلات الاجتماعية والفكرية بالمغرب.
- د. عبد الجواد السقاط: شعراء المغرب الشباب في مواجهة الاحتلال الأجنبي. مجلة دعوة الحق. عدد 284، يوليو 1991، ص 91-101.
- (6) شاعر مغربي من مواليد سلا سنة 1939.
تنوع إنتاجه الأدبي بين الإبداع الشعري والكتابة المسرحية والقصصية والروائية. كتب عشر مسرحيات وأصدر مجموعة قصصية بعنوان «لست رجلا». له عدة دواوين شعرية:
قالت لي الحرية: طبع سنة 1971.
في ظلال الدوحة: مخطوط.
عد يا حبيبي: مخطوط.
إشراق الهدى: مخطوط.
من يقود الزحف: مخطوط.
توفي الشاعر أبو بكر المريني رحمه الله بتاريخ 31 أكتوبر 1980.
- (7) انظر ديوانه (قالت لي الحرية) وملحمة (الزحف المقدس).
- (8) ديوان علال الفاسي 69/4.
- (9) نفس المصدر 204/4.
- (10) نفسه 216/4، وانظر 235/4.
- (11) نفسه 75/4.
- (12) صدر في ربيع 1975.
- (13) مجلة دعوة الحق، مارس 1975، ص 206.
- (14) نفس العدد، ص 209.
- (15) نفسه، ص 216.
- (16) انظر القصيدة كاملة في ملحق نصوص/وثائق.
- (17) انظر مجلة الفنون، عدد 9-10، يوليو - غشت 1974، ص 74.
- (18) مخطوطة بخزانة الباحث.
- (19) ديوان (شموع) ص 74.
- (20) ديوان (أيامنا الخضراء) ص 17-32.
- (21) مجلة الفنون (عدد خاص بالمسيرة الخضراء) مارس 1975، ص 219.
- (22) انظرها في ملحق نصوص/وثائق.
- (23) مجلة الفنون (م. س) ص 186-199.

- (24) انظرها في ملحق نصوص/وثائق.
- (25) مثبتة بملحق نصوص/وثائق.
- (26) الفنون (م. س) ص 194.
- (27) نفس العدد ص 215.
- (28) انظر د. عبد الحق المريني: السيف والقلم في ملحمة الصحراء المغربية. دعوة الحق عدد 263. مارس 1987، ص 48-55.
- (29) مثبتة بملحق نصوص/وثائق.
- (30) دعوة الحق. عدد 227، مارس 1983، ص 234.
- (31) انظر مجلة دعوة الحق على التوالي: مارس 1977، ص 196 و 226.
 مارس 1978، ص 150.
 مارس 1980، ص 122.
 مارس 1982، ص 72.
 مارس 1985، ص 96، ص 100، 105.
 مارس 1987، ص 113.
 مارس 1990، ص 23.
- (32) انظر مقالتنا: لوحات من عرشيات المسيرة، دعوة الحق، عدد 227،
 مارس 1983، ص 155.

من أعلام الثقافة في الصحراء المغربية :

الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد

ماء العينين النعمة علي(*)
بومزكو أحمد(*)

تقديم:

يتناول هذا البحث موضوع الجهاد وهو ممارسة فكرية عملية كانت منبعا لمجموعة من الحركات التعبوية التي عرفها المغرب منذ القرن السادس عشر (ق 16)⁽¹⁾.

وقد طرح هذا المفهوم بحدّة خلال القرن التاسع عشر (ق 19) وبداية القرن العشرين (ق 20) مع تزايد الضغوط الأجنبية الأوروبية.

وللإشارة فإن مصطلح الجهاد لم يعد يعني فقط محاربة ومقاومة الأجنبي المتكالب على البلاد، بل أصبح يحمل شحنة فكرية تنظيرية حماسية بالأساس.

ومن أجل الكشف عن حيثيات هذا المفهوم في مجال جغرافي محدد حصرنا موضوع هذا البحث في جهاد الشيخ مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين (1879-1942)⁽²⁾ الذي أولى اهتماما خاصا لهذا

(*) باحثان في أدب الصحراء المغربية.

الموضوع ضمن انتاجه الفكري والأدبي. ويبدو أن هذا الاهتمام أملتة الصبغة الحادة التي كان يطرحها موضوع الجهاد في تلك الظرفية التي تمر بها المقاومة المسلحة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي وكذا ما وفره له جهاده من خبرة وحنكة وتجربة.

السياق التاريخي لجهاد الشيخ مربيه ربه (1912-1934).

أدى تزايد التهافت الاستعماري على منطقة سوس إلى اشتداد الحمية الجهادية لدى القبائل السوسية، وفي هذا الإطار تمثل حركة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين (1876-1919) مناسبة للتعبئة العامة بمنطقة الجنوب المغربي⁽³⁾، ومن باب حرصه على إشراك جميع القبائل في تأسيس جيش للمجاهدين لیتجه به نحو مراكش، فقد أسهم في توثيق روابط التضامن بين هذه القبائل باسم الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي وفوق الاعتبارات القبلية الضيقة⁽⁴⁾.

وبالرغم من التراجع الواضح الذي أبدته القبائل السوسية في مواجهة الضغط الفرنسي الغير مباشر، خاصة بعد نكسة «سيدي بوعثمان» 1912⁽⁵⁾ التي كانت ضربة قاسية لقدرات القبائل الحربية، فإنها ظلت على تأييدها للشيخ أحمد الهيبة ولا زالت تعيش على صدى تحركات انصاره⁽⁶⁾.

وفي سياق هذه الحمية الجهادية، يمثل الشيخ مربيه ربه أحد الوجوه البارزة في حركة أخيه الشيخ أحمد الهيبة، فقد كان خليفته ونائبه المفوض له في أمره، وعضده الأيمن المرافق له في تنقلاته وتحركاته، والمحرك الرئيسي لمختلف عملياته ومعاركه العسكرية الحربية، لما كان يتصف به من شجاعة وجرأة وإقدام.

وقد استطاع في خضم هذه الظروف أن يجمع بعض القبائل التي لازالت تساند الشيخ أحمد الهيبة «أيت باعمران إيداو بعقيل ماسة»، هكذا تمت محاصرة البلدة لمدة شهرين⁽⁷⁾ كما قطعت المؤونة عن قائدها محمد بن دحان من طرف القائدين يرعى السباعي والناجم الاخصاصي⁽⁸⁾ الا ان مسلسل هذا الحصار إنتهى بتراجع أنصاره في وقعة «تيغانيمين».

بعد وفاة الشيخ أحمد الهيبة سنة 1919 م، قام مقامه الشيخ مربيه ربه في تعبئة القبائل بعد إجماع علماء وقواد سوس على تعيينه رئيسا للمجاهدين⁽⁹⁾ ونظرا لشدة الضغط الفرنسي على المقاومين من خلال حملة الجنرال «دولاموط» على «ويجان وإسك» سنة 1917 م⁽¹⁰⁾ ثم محاولات الطيب الكنتافي إختراق مسالك الأطلس الصغير إنطلاقا من «أيت وادريم»⁽¹¹⁾ فقد أسرعت القبائل السهلية إلى إستعطاف الأجانب والاستسلام لحامياتها العسكرية بينما لازالت المناطق الجبلية تتحكم فيها القبائل الموالية للشيخ مربيه ربه ولم تكن سلطات الاحتلال تبحث عن خضوع إسمي لهذه المناطق وإنما كانت ترغب في الاستحواذ الفعلي عليها، وهذا ما دفعها إلى استعمال مختلف الوسائل لتحقيق مسعاها. بما في ذلك تكثيف العمليات الحربية وإنشاء مراكز عسكرية للمراقبة وتجميع المعلومات «بونعمان، ميرغت، ويجان، آقا، إيفرم»⁽¹²⁾ وأمام هذه الأحداث ظل الشيخ مربيه ربه يقاوم ويجاهد ويشرف بنفسه على العمليات العسكرية، وكثف من تنقلاته بين قبائل الأطلس الصغير التي دعمتها قبائل أيت خباش وأيت حمر بالرجال والعتاد، إلا أن رد فعل القبائل المجاهدة عامة لم يكن موحدا وكان يفتقد إلى التنسيق والتنظيم⁽¹³⁾.

وبعد اشتداد الحملات العسكرية الفرنسية التي قادها الجنرال «كاترو Katroux» حاكم المنطقة الجنوبية⁽¹⁴⁾ استسلمت جميع القبائل السوسية سنة 1934م واضطر الشيخ مربيه ربه إلى مغادرة «كروودس»⁽¹⁵⁾ متجها نحو طرفاية بالصحراء المغربية ليستقر بها.

وهذا الاستقرار لا يعني نهاية حركته الجهادية، بل واصل جهاده ومقاومته ولكن في شكل جديد يتمشى مع التغيرات التي شهدتها البلاد بعد نهاية العمل المسلح وظهور العمل السياسي. وقد كان على إتصال دائم بالخليفة السلطاني مولاي الحسن بلمهدي الذي التقى به في مدينة تطوان خلال زيارته لها وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، وبمختلف زعماء الحركة الوطنية في الشمال «عبد الخالق الطريس، عبد السلام بنونة، علال الفاسي، المكي الناصري، معنينو السلاوي أحمد، عبد السلام بن المقدم الحاج التمساني».

توفي رحمه الله سنة «1361 هـ/1942 م» ودفن بقرية «تافودارت» التي تقع شرق مدينة العيون.

إنتاجه الفكري والأدبي :

كان الشيخ مربيه ربه جهابذة من جهابذة الفكر والعلم والأدب، فهو شاعر وكاتب وناثر وعالم ومصنف في علوم شتى. خلف أعمالا أدبية تصل إلى مائة وعشرين كتابا في الفقه والتصوف والطب والرحلات والنحو والبلاغة والتوجيه والاسرار والتاريخ، ضاع بعضها ولا يزال البعض منها مخطوطا في بعض الخزانات⁽¹⁶⁾ نذكر منها:

في التصوف :

- إغاثة اللهفان
- تيجان المحامد وزينة كل حامد
- جامع الحمد
- حمد الايام السبعة
- خواص الاوافق لنيل مقام الاخلاق
- خواص أسماء الله الحسنی
- دعوة الفاتحة في الحمد بالفاتحة
- دعوة الاجابة من معطي الاجابة
- ربيع الاسرار في سر الاسرار
- عدة الفئین في أسرار وفق المئين
- فيض المجید ودوام المزیd
- قرة العینین في کرامات شیخنا ماء العینین
- کتاب الحمد
- المتربع في أسرار المربع
- الادعية القدسية بأسماء الله الادريسية
- الفيضان فيما اختص به رمضان
- القربان فيما اختص به شعبان
- الفرائض المجتمعة في الاوراد بالجمعة
- مفيض الاعانة
- منیل فضل الله ونعمته في الحمد لكل اسم على حدته
- محامد الوارد الصادر
- مغناطیس النعم
- محمدة اللسان والفکر فيما يتعلق بالحمد والشکر

- واهب الزيادة الاسنى في أسماء الله الحسنی
- حمد ليس فيه حرف إلا من حروف الحمد
- واهب المعالي

في الفقه :

- أخلاق النساء
- إظهار المكنون في كشف الظنون
- الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله
- تسليية المؤمنين في عدم قبول المنافقين والكافرين
- خطبة في الحث على الجهاد
- دعامة المتيمم اكل متيمم
- دافعة الباطل الذابة عن تحريف أوصاف الذابة
- الرضاب في بعض ما يتعلق بالخضاب
- صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار
- صادق الفجر في الكلام على ركعتي الفجر
- فصوص الحكم
- فكاهاة الصباح والمساء في نعوت أوصاف النساء
- فريضة الجهاد في هذا الزمن على العباد
- لبانة المجاهدين وبغية الطالبين
- الفرائض القرآنية في التركة الإسلامية
- منطقة العزائم
- محمدی السكينة في الاعتدال والطمأنينة
- موافق دي الحجة فيما يفعل في الحجة
- نشر فلاح الدارين في الكلام على بر الوالدين.

في التاريخ:

- جولات في سوس اعادنا الله من كل يؤس
- الترجمان العام
- العسل المصفى في عدد من استشهد زمن المصطفى
- وجه الحق الصحيح في أن اسماعيل هو الدبيح.

في الطب :

- ترياق الأبدان في تدبير الاسنان
- كتاب السل
- نفع الوبري والمدري في الكلام على الجدري.

في الفلك :

- الكلام على إنقضااض النجوم.

في الرحلات :

- رحلة الشيخ ماء العينين
- رحلة الشيخ مربيه ربه.

في الأحزاب والشرح والدعوات :

- حزب السير والسلامة في الدين والدنيا والقيامة
- حزب بتوسل فيه بما في القرآن من لفظة رب
- حزب سعادة الدارين والكفاية من الهمين
- حزب العافية والكمال محمود الحال والمال
- حزب إلهام المؤمن من فضل السلام المؤمن
- حزب الفنى وكهف العناية الاسنى في أسماء الله الحسنى
- حزب النصر والحمد والشكر
- حزب السعادتين

- حزب ليس فيه حرف إلا من حروف «وإن يردك بخير فلا راد لفضله»

- حزب ليس فيه حرف الا من حروف الحمد لله حمدا يوافي
نعمه ويكافي مزيده
- حزب اعملوا آل داود شكرا
- الدعوات النثرية والأحزاب الشكرية
- دعوة ولئن شكرتم لازيدنكم
- شرح آية وأما بنعمة ربك فحدث.

وله ديوان شعري في مختلف الأغراض الشعرية من مدح وغزل
ووصف ورثاء وتضرعات إلهية ومحامد ربانية، إلى غير ذلك وقد
جمعه وبوبه الشاعر والأديب ماء العينين بن العتيق في مؤلف
سماه «بحور البدائع المحتوية على درر الأشعار المصطفوية»
ويتضمن مقدمة وثمانية أبواب :

- المقدمة : في مدح الشعر وما قيل فيه.
- الباب الأول : في المحامد والثناء على الله
- الباب الثاني : في أمداحه النبوية
- الباب الثالث : في مدحه لوالده الشيخ ماء العينين
- الباب الرابع : في محاوراته لإخوته
- الباب الخامس : في مخاطبته لمعاصريه
- الباب السادس : في الغزل والنسيب
- الباب السابع : في أقواله المختلفة في القواعد والحكم وغيرها
- الباب الثامن : في التضرع إلى الله.
- الخاتمة : في قصائد الذين مدحوه من الشعراء.

ويلاحظ أن الاهتمام الذي أبداه هذا الشيخ لعملية الجهاد كمعطى فاعل في تلك الظرفية، جعلت أفكاره في هذا السياق متميزة وتعتبر مدخلا لفهم الإطار النظري العام الذي يؤطر حركته الجهادية، وللاقترب أكثر من هذا المعطى سنقدم صورة مختصرة عن بعض كتاباته حول الجهاد، وذلك بالشكل الذي يسمح لنا بالإلمام بأبعاد الكتابة في موضوع الجهاد كنوع من المجاهدة والمقاومة بالفكر والقلم وهذه الكتب هي:

- 1 - « لبانة المجاهدين وبغية الطالبين »
- 2 - « الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله »
- 3 - « صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار ».

وصف الكتب :

- 1- لبانة المجاهدين وبغية الطالبين
- يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم المتوسط
- خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه.
- تاريخ الكتابة ضحوة الثلاثاء الحادي عشر من رجب الفرد 1341 هـ / 1922 م).

ويشتمل على مقدمة وأربعة فصول:

* المقدمة : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول:

« يقول عبید ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يحب بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين: الحمد لله الذي فضل الجهاد وجعله حرفة أفضل العباد

فدل على أنه أفضل الأعمال حيث اختاره الله لخيرته من الرجال عليه الصلاة والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام.

أما بعد: فمن أجل ما يتنافس فيه المتنافسون الجهاد في سبيل الله ولمثل هذا فليعمل العاملون ولقد عن لي غفر الله لي قولي وعملي أن أجمع فيه نصوصا عموما ونصوصا وخصوصا واقتصرتها على بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وحذفت إسنادها ترغيبا لمن أرادها كي تسهل مناوولتها وتيسر مداولتها وسميتها «لبانة المجاهدين وبغية الطالبين» تذكرا لي وترغيبا للمؤمنين «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»⁽¹⁸⁾ جعلها الله بفضله العميم خالصة لوجه الكريم»⁽¹⁹⁾.

*** الفصل الأول :** يتحدث فيه عن الجهاد الذي يعتبره «في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبين لفجا العدو وجميع بلاد المسلمين»⁽²⁰⁾ حتى أنه «يتعين على كل واحد وإن لم يكن من أهل الجهاد»⁽²¹⁾ وعلى الإمام أن يقوم بتعيين «طائفة تخرج للقتال ولا يسعها أن تخالف سواء كانت ممن تلي العدو أم كانت ممن تخاطب بفرض الجهاد»⁽²²⁾.

*** الفصل الثاني :** يتحدث فيه عن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام التي تعتبر هي بدورها «فريضة إلى يوم القيامة»⁽²³⁾ ويستدل على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية كقوله تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا»⁽²⁴⁾

ويشير إلى أن ظالمي أنفسهم في هذه الآية: «هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها»⁽²⁵⁾ وكقول الرسول (ص) لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽²⁶⁾، ويبين في ختام هذا الفصل بأن «الخوف على المال والأهل لا يبيح ترك الهجرة ومن رضي بالمقام مع الكافرين فهو مارق من الدين منخرط في سلك الملحدين ومن هاجر عنهم وحصل له ندم لضيق معاش أو عدم انتعاش فلا رخصة له في الرجوع ولا عذر (...) فلم يبق إلا اغتنام جهادهم والهجرة من بلادهم نصرة لدين الله ورسوله وامتنالا لأمره»⁽²⁷⁾.

*** الفصل الثالث :** يستعرض فيه بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحت على الجهاد وترغب فيه.

*** الفصل الرابع :** خصصه لشرح ثلاثة آيات قرآنية هي:

- **الأولى :** قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون»⁽²⁸⁾ فالله تبارك وتعالى وكما يقول ابن عباس يريد في هذه الآية «مشركا مثلهم لأنه رضي بشركهم والرضى بالكفر كفر كما أن الرضى بالفسق فسق»⁽²⁹⁾.

- **الثانية :** قوله تعالى : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهد القوم الفاسقين»⁽³⁰⁾.
فالله تبارك وتعالى يبين في هذه الآية «أنه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما»⁽³¹⁾. أما إذا «كانت رعاية هذه

المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ومن المجاهدة في سبيل الله فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بأمره أي بعقوبة عاجلة أو آجلة والمقصود منه الوعيد⁽³²⁾ ثم قال: «والله لا يهدي القوم الفاسقين أي الخارجين عن طاعته إلى معصيته وهذا أيضا تهديد»⁽³³⁾ وعموما فالآية «تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا»⁽³⁴⁾ لذلك يجب «الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر وعن الأموال والتجارات والمساكن رعاية لمصالح الدين ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جدا على النفوس والقلوب ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا أتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه»⁽³⁵⁾.

- الثالثة : قوله تعالى: « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر

يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون»⁽³⁶⁾ فهذه الآية تبين «أن المؤمنين المتصلين في الدين لا يوالون هؤلاء الأقرباء بعد أن كانوا محادين لله ورسوله فكيف بغيرهم فإن قضية الإيمان أن يهجر الجميع بالكلية بل أن يقتلهم ويقصدتهم بالسوء»⁽³⁷⁾ ويستشهد على ذلك بأسماء بعض الصحابة رضوان الله عليهم الذين قتلوا آباءهم أو أقرباءهم نصرة لدين

الله. فقد « روي أن أبا عبيدة قتل أباه الجراح يوم بدر وأن أبا قحافة قبل أن يسلم سب النبي عليه السلام فصكه أبو بكر رضي الله عنه صكة سقط منها وأنه أيضا رضي الله عنه دعا ابنه عبد الرحمان إلى البراز يوم بدر فأمره عليه السلام أن يقعد قال : يا رسول الله: دعني أكن في الرعدة الأولى وهي القطعة من الفرسان فقال عليه السلام: متعنا بنفسك يا أبا بكر. وأن مصعبا رضي الله عنه قتل أخاه عبيد بن عمير بأحد وأن عمر رضي الله قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وأن عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة بن أبي ربيعة والوليد بن عتبة وكانوا من عشيرتهم وقرابتهم» (38).

2 - « الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله »

- يقع الكتاب في سبعين ورقة من الحجم المتوسط

- خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه

- تاريخ الكتابة ضحوة الأربعاء المكمل عشرين من ذي الحجة عام اثنين وأربعين بعد ثلاثمائة وألف. (1342 هـ / 1923 م).

يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول:

* المقدمة : يبين فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول:

« يقول عبيد ربه محمد مصطفى بن شيخه الشيخ ماء العينين بن شيخه محمد فاضل بن مامين غفر الله لهم وللمسلمين آمين: الحمد لله القائل: « وفضل الله المجاهدين على القاعدين » (39) والصلاة والسلام على من قال: « السيوف أودية المجاهدين » (40) وقال: « نضر

الله امرء اسمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه قرب مبلغ أوعى من سامع»⁽⁴¹⁾ نسأل الله تعالى أن يكسوننا من تلك النضارة أحسنها وأبهجها وأسرها في الأفراد والمجامع أما بعد: فهذه أحاديث جمعتها تسر الناظر والسامع رتبته على حروف المعجم (...) لخصتها بجد واجتهاد ترغيباً في الهجرة والجهاد ولأجل ذلك وأخذ تلك المسالك سميتها «الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله» جعلنا الله من أعلاهم ومن بالله وبما عنده أولاهم»⁽⁴²⁾.

* الفصل الأول : خصصه لشرح الآية القرآنية الكريمة التالية

وهي: «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»⁽⁴³⁾ التي تدل على «أن الإستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة إلا أنه من فروض الكفايات (...) أما في زماننا هذا الذي هو عام اثنين وأربعين من القرن الرابع عشر فلاشك أنه فرض عين بسبب إحتلال النصارى الصليبيين قاتلهم الله بلاد المسلمين»⁽⁴⁴⁾ فذكر أولاً أسباب نزولها وتتجلى في «أن أصحاب النبي (ص) في قصة بدر لما قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة»⁽⁴⁵⁾ ثم بدأ في شرح مقاطعها، فبين أن المراد بالقوة هو «ما يكون سبباً لحصولها وذكرها فيه وجوها:

الأول : المراد بالقوة السلاح

الثاني : روي أنه (ص) قرأ هذه الآية على المنبر وقال إلا ان

القوة الرمي قالها ثلاثاً

الثالث : قال بعضهم القوة هي الحصون

الرابع : قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة»⁽⁴⁶⁾.

ثم ينتقل للحديث عن العدة والعتاد من خلال قوله تعالى «وأعدوا لهم» «أي لقتال الكفار وهيئوا لحربهم ما استطعتموه من قوة (...) ومن كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان من خيل وسلاح وقسي وغيرها»⁽⁴⁷⁾. وعن فضيلة الرمي ويعتبره من أحسن «ما يتقوى به في الحرب»⁽⁴⁸⁾ ويستدل على ذلك بأحاديث نبوية كقول الرسول (ص) «من شاب شيبة في الاسلام كانت له نورا يوم القيامة ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ كان له كعتق رقبة مومنة، كانت له فداء من النار عضوا بعضو»⁽⁴⁹⁾. بعد ذلك يتحدث عن الخيل من خلال قوله تعالى رباط الخيل ويعتبرها من «أقوى آلات الجهاد»⁽⁵⁰⁾ ويبين الاختلافات الموجودة حول هذا المقطع فالبعض يرى أن «رباط الخيل الإناث وفسر بالإناث لأنها أولى ما يربط»⁽⁵¹⁾ والبعض الآخر يرى أن هذا اللفظ يدل «على الفحول لأن المقصود من رباط الخيل المحاربة عليها ولاشك أن الفحول أقوى على الكر والفر والعدو»⁽⁵²⁾ ولكي ينتفي هذا التعارض يشير إلى أنه يجب «حمل اللفظ على مفهومه الأصلي وهو كونه خيلا مربوطا سواء كان من الفحول أو الإناث»⁽⁵³⁾.

ويقول أن الله تبارك وتعالى «لما أمر بإعداد هذه الأشياء قال جل من قائل: «ترهبون به عدو الله وعدوكم» وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد مستعدين له مستكملين

لجميع الأسلحة والآلات خافوهم والمراد أن تكثر آلات الجهاد وأدواتها»⁽⁵⁵⁾، «كما يرهب الأعداء الذين نعلم»⁽⁵⁶⁾ كذلك يرهب الأعداء الذين لا نعلم كاليهود والمنافقين»⁽⁵⁷⁾ ثم قال تعالى: «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله» وهو عام في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات «يوف إليكم» أي لا يضيع في الآخرة أجره ويجعل الله عوضه في الدنيا» وأنتم لا تظلمون «أي لا تنقصون من الثواب»⁽⁵⁸⁾.

الفصل الثاني : خصصه لذكر الأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد ورتبها كما أشار في المقدمة على حروف المعجم وعددها ثلاثمائة حديث(300).

الفصل الثالث : يتحدث فيه عن فضيلة الجهاد وأهميته فيقول: «واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب وأماثل الحرف فلا ينبغي للعاقل أن يتركه أو يترك التحدث به فإن من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه فقد مات ميتة جاهلية، ومعنى التحدث طلب الغزو وإخطاره بالبال»⁽⁵⁹⁾ ويختم هذا الفصل بالآية القرآنية الكريمة وهي قوله تعالى: «خذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا»⁽⁶⁰⁾ التي تبين أن هذا «وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله»⁽⁶¹⁾.

3 - «صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار»
- يقع الكتاب في ثلاثين ورقة من الحجم الكبير.

- خط مغربي واضح مقروء بخزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه

- تاريخ الكتابة ضحوة الأربعاء العاشر من ربيع النبوي عام ستة وأربعين بعد ثلاثمائة وألف (1346 هـ / 1927 م).

- يشتمل على مقدمة وثلاثة فصول:

* المقدمة : يشرح فيها أسباب تأليف الكتاب وتسميته فيقول: « يقول عبيد ربه محمد مصطفى مربيه ربه أناله الله بشكره ما يجب بن شيوخه الشيخ ماء العينين غفر الله لهما وللمسلمين أمين الحمد لله القائل: « الحمد لله رب العالمين »⁽⁶²⁾ والقائل جل من قائل « إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين »⁽⁶³⁾ والصلاة والسلام على النبي القدسي القائل حاكيا عن ربه في الحديث القدسي: « لا تدخلوا مداخل أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تركبوا مراكب أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي »⁽⁶⁴⁾ أما بعد: فقد سألتني من سألته بعض المسافرين أن يظهر له ما حرمت به الإقامة مع الكافرين فأجبتة بالقرآن والحديث والدليل ولو كان النهار لا يحتاج إلى دليل وسميته « صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار » « والله أسأله الكريم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يجعلنا من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون المحفوظين الوارثين لأنبيائه المعصومين راجين منه أن يجعل فينا منافع المسلمين وأن يحفظنا من بأس المسلمين والكافرين »⁽⁶⁵⁾.

الفصل الأول : يدعو فيه إلى التحفظ من الكافرين وأعداء المسلمين وعدم مخالطتهم أو الإقامة معهم « أبد الأبدین وقد حذر

الله من ذلك في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم»⁽⁶⁶⁾. ويستدل ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهد القوم الظالمين»⁽⁶⁷⁾ ويشير إلى أن هذه الآية «ما أبقت متعلقا إلى التطرق لهذا التحريم»⁽⁶⁸⁾ فهي نص صريح في تحريم موالاة الكافرين. وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين»⁽⁶⁹⁾. وقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون»⁽⁷⁰⁾. فتكرار هذه الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق واحد يؤكد للتحريم ورافع للاحتمال المتطرق إليه فإن المعنى إذا نص عليه وأكد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لاشك»⁽⁷¹⁾. وكقول الرسول (ص) «أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين قالوا: يا رسول الله لم قال لا تتراءى ناراهما»⁽⁷³⁾ وقوله (ص): «لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم»⁽⁷³⁾ وقوله (ص): «لا ترافقوهم في الأسفار ولا تساكنوهم في الأمصار واضربوا بينكم وبينهم بسور البعاد»⁽⁷⁴⁾. كما يستدل بأقوال بعض الأئمة والعلماء في تحريم الإقامة مع الكفار والمشركين وجميع أعداء المسلمين.

ويختم هذا الفصل مشيرا إلى أن هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والإجماعات القطعية صريحة وواضحة في تحريم الموالاة الكفرانية ولا تجد في تحريمها «مخالفا من أهل القبلة

التمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فهو تحريم مقطوع به من الدين كتحریم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها ومن خالف الآن في ذلك أوراام الخلاف من المقيمين معهم الراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين مفارق لجماعة المسلمين ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ومسبوق بالاجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله» (75).

الفصل الثاني : يذكر فيه الأسباب التي تصير بها دار الاسلام دار حرب ويورد اختلاف العلماء والأئمة في ذلك، فما لك مثلاً يرى أنه «بظهور أحكام الكفر في بلدة تصير دار حرب» (76) وهو مذهب الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة «لو ارتد أهل بلد لم تصر دارهم دار حرب حتى تجمع فيها ثلاثة أشياء: ظهور احكام الكفر وان لا يبقى فيها مسلم ولا ذمي بالامان الأصلي وان تكون متاخمة لدار الحرب واتفقوا على أنه تغنم أموالهم» (77).

الفصل الثالث : يتحدث فيه عن الذين يخالطون الأعداء ويتعاملون معهم ويعيشون تحت ولايتهم ويحذر منهم، ويستدل على ذلك بالآية القرآنية التالية وهي قوله تعالى: «لا يتخذ المومنون الكافرين أولياء من دون المومنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذرکم الله نفسه وإلى الله المصير» (78) فهذه الآية تشير إلى أن المومنين نهوا عن موالاته الكافرين «لقرابة أو صداقة وعن الاستعانة بهم لأن المومنين هم الاحقاء بالموالاته وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاته الكفرة، ومن يتخذ الكافرين أولياء فليس من ولاية الله في شيء يصح أن

يسمى ولاية فتأكد مجانبية أعداء الله ومباعدتهم والتحرز عن مخالطتهم ومعاشرتهم والمومن اولى بموالاة المومن فإذا والى الكافر دل على تداعي ضعف إيمانه فزجر الشارع عن مخالطته بهذا التغليظ العظيم حسما لمادة الفساد»⁽⁷⁹⁾. ويختم هذا الفصل بنص اقتبسه من كتاب «بغية المساعدا في احكام المجاهد» يتعلق بالجهاد وفيه ما يكفي ويشفي في بعض نصائحه زاجرا عن الإصغاء لهم أو الاستماع لآرائهم وأفكارهم. يقول : «فاحذروا ايها المسلمون تغرير اولئك المتسمين بسمة الاسلام وليسوا منه في شيء احذروا أن تسمعوا لهدرهم وخرفهم احذروا ما ينفثونه من سمومهم احذروا دعوتهم إلى الاستسلام للعدو والخضوع له فإنهم منافقون يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون خضعوا للعدو وباعوا دينهم بدنياهم وصاروا من أعوانهم يقودونهم ليمكنوهم من أراضي إخوانهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين يسعون لهم في تمهيد البلاد وتملك رقاب العباد ليتركوا قتالهم وتكون كلمتهم العليا ومعاذ الله. إن القوم الذين يعاضدون الكفار على المومنين ويقاتلونهم لاشك في كفرهم وارتدادهم والعيان بالله تعالى من قوم يعملون على إذلال الإسلام وأهله وإعزاز الكفر وأهله وأي كفر أكبر من هذا وإن لم يكن هؤلاء مرتدين فمن هم المرتدون؟»⁽⁸⁰⁾.

قراءة في أفكار الشيخ مربيه ربه الجهادية

إن تأليفه في هذا الموضوع يشكل محاولة لإضفاء الطابع الشرعي على مساره الجهادي. ومما يزيد من قيمة ما كتبه هو أنه طرح الجهاد في ظرفية دقيقة عرفت فيها المنطقة تفرقا قبليا

وضغطا استعماريا كبيرا كأنه يحاول البحث عن سبب الداء الكامن في التراجع الواضح للقدرات الحربية للقبائل، فوجده في عدم الالتزام بقاعدة الجهاد وركونها إلى التفرقة والاختلاف.

يعتمد في مفهومه للجهاد على طريقة الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والأئمة والعلماء حتى يعطي لكتابات صبغة شرعية دينية. وقد تناول ذلك بمضامين جديدة لكي يستوعب الظرفية التاريخية التي تبلور فيها.

الجهاد في نظره «حرفة أفضل العباد»⁽⁸¹⁾. و«أفضل الأعمال»⁽⁸²⁾. التي دعا إليها الاسلام وينطبق على كل الأعمال التي تتم في سبيل الله بما فيها بذل الجهد في الحرب أو السلم.

ومن خلال فحصنا لما كتبه هذا الشيخ عن الجهاد يتبين أنه يراد به ما يلي:

- نوع من الوازع الديني الضروري للدفاع عن دار الاسلام.
- نوع من الحرب المقدسة ضد أهل الشرك والعدو المتكالب على البلاد.
- محاربة ومقاطعة العدو والتحرز منه.
- مرادف للقتال.
- مقياس لصدق إيمان المسلم.

ما يستوقفنا في هذا التعريف هو إلحاحه وتأكيدَه على ضرورة التمسك بالجهاد كواجب على كل مسلم خاصة في تلك الظرفية الدقيقة التي كانت تمر بها المقاومة المسلحة الوطنية. يقول: «إن الجهاد في هذا الزمن فرض عين وحق على كل مسلم أن يجعله نصب

العين ولو كانت عينيته لا تحتاج إلى تبين»⁽⁸³⁾ وليس الجهاد عنده شعارا يلوح به وإنما هو ممارسة عملية فعلية حققها وجسدها على أرض الواقع من خلال جهاده ومقاومته للمستعمر الفرنسي وهذا ما جعله ينبه إلى حالات التقاعس والتفاضي عنه مبينا ما يترتب عن ذلك من مخاطر على جماعة المسلمين.

بالإضافة إلى هذا يدعو إلى محاربة العناصر التي تصل وتجول في بلاد الكفر خاصة بعد تزايد ظاهرة الاختلاط بين المسلمين وغير المسلمين، وهو هنا يعلن بوضوح مخالفته ومعارضته لجميع أشكال التعاون مع العدو الأجنبي ومخالطته أو التعامل معه. وفي هذا الصدد يشيد بالمجاهدين من المسلمين الذين أبانوا عن وعي جهادي من خلال رفضهم مسالة العدو واستماتتهم في الدفاع عن بلادهم⁽⁸⁴⁾.

اجمالاً فالجهاد عند الشيخ ليس تكراراً لما بلوره فقهاء وعلماء الاسلام السابقين ولكنه صدى للوضعية التي انتهى إليها المسلمون في بداية هذا القرن حيث ازداد التمسك بتلك الروح الجهادية بازدياد الضغط الأجنبي. وقد حاول استجلاء طبيعة العلاقة التي تربط الجهاد كمعطى ضروري لتعميق تقاليد وطرق المقاومة وبين الغلبة والقوة التي يكتسبها المسلمون من ذلك⁽⁸⁵⁾.

أركان ومقومات الجهاد

إن الجهاد من حيث كونه حرب مقدسة لا بد له من ركنين أساسيين لتهييء المجاهدين حتى يكونوا في مستوى مجاهدة ومقاومة العدو الكافر وهما :

1 - القوة المعنوية : وهي الايمان الكامل بالله والإستعداد النفسي الروحي.

2- القوة المادية : فالجهاد إلى جانب الوازع الديني الذي يفرضه ويحث عليه فهو يحتاج إلى مجهود وتنظيم محكم كالتأهب والمرابطة والمجاهدة والعتاد والرجال والإنفاق وكل ما يقوى به في الحرب.

بالإضافة إلى هذين الركنين الأساسيين هناك مقومات أخرى لابد أن تتوفر في المجاهدين منها: وحدة الصف، عدم التنازع، الصبر على الشدة، الحذر والحيلة، الثبات عند لقاء العدو.

الغايات والأهداف من الجهاد

يقرر الشيخ مربيه ربه أن الهدف الأسمى من الجهاد هو حماية جماعة المسلمين من براثن الكفر والمحافظة على وجودها وتقوية نفوذها.

وتحدد الغايات الأسمى من الجهاد عنده فيما يلي:

- ردع وإرهاب العدو
- إعلاء كلمة الله
- إعادة الثقة إلى النفوس
- الغلبة والقوة للمسلمين
- أداة للتكتل والوحدة وتجميع الجهود وبدونه تسقط الأمة في الاختلاف والتمزق.
- عدم موالاته العدو الكافر المستعمر بأي شكل من الأشكال وحمل المتعاونين معه على التوبة والرجوع.
- حماية جماعة المسلمين من تبعات السقوط تحت أحكام العدو لأن في ذلك «إذلال للإسلام وأهله وإعزاز للكفر وأهله» (86).

لم تكن هذه الكتابات إلا نموذجاً من تراث زاخر خصصه الشيخ مربيه ربه لموضوع الجهاد سواء على المستوى النثري أو الشعري.

ومما يزيد هذا الرصيد تنوعا وغنى وأصالة هو مشاركته الفعالة في العمليات العسكرية التي استهدفت الطلائع الأولى للحاميات الفرنسية بمنطقة سوس وإصراره على إفشال مخططات المحتل رغم المساومات والصفوط المتي تعرض لها. كما تبرز هذه الكتابات مدى الوعي الذي وصلتته الحركات الجهادية في مواجهة التدخل الأجنبي من خلال فهم واستيعاب روادها للأخطار التي كانت تحدق بالبلاد.

وإذا كان لابد من إطار لتصنيف مكانة الشيخ مربيه ربه فهو يمثل نموذج العالم المجاهد لأنه جمع بين التنظير الفكري والممارسة العملية. من هنا أصبح من الضروري الإلتفات إليه كشخصية وطنية من خلال التعريف به بالرجوع إلى آثاره الضخمة المتنوعة أو اعتمادا على المصادر المعاصرة له وكذا تقارير الأجانب عنه، حتى ندرك حقيقة وأبعاد وشمولية حركته الجهادية.

الهوامش :

- (1) Abdallah Laroui, Les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912), Paris, 1980. p. 306.
- (2) ماء العينين النعمة علي: « الشيخ مربيه ربه الوطني الوجدوي زعيم الجهاد والمقاومة في الجنوب المغربي » صحيفة أنوال - عدد 1332 - 11 ماي 1994.
- (3) محمد الاكراري: « روضة الافنان في وفيات الاعيان » تحقيق حمدي أنوش - بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا كلية الآداب - الرباط 1989، ص 39-40.
- (4) محمد المختار السوسي: المعسول » ج 4، ص 126-127.
- (5) الاكراري: المصدر السابق، ص 43.
- (6) "Elhiba: Fils de Malainin, "Renseignements Coloniaux, N° 3, Mars 1916,p. 66

- (7) الاكراري: المصدر السابق، ص 52.
- (8) المختار السوسي: المعسول، ج 8، ص 124.
- (9) المرجع نفسه: ج 4، ص 148. نتوفر على نص الاتفاق لنسخة الخاصة.
- (10) Dugard (H): La colonne du Sous 1917. Paris 1918.
- (11) Justinard (L): "Notes Sur L'histoire et Litterature berbère" in Hesp 1925. p. 350-354.
- (12) Voinot (L): Sur les traces glorieuses des Pacificateurs du Maroc. Paris, 1939, p. 478.
- (13) Ibid. p. 476.
- (14) Ibid. p. 478.
- (15) « المعسول » ج 4، ص 267-268.
- (16) الخزانة العامة، الرباط.
الخزانة الحسنية الرباط.
الخزانات الخاصة.
- (17) توجد معظم هذه المخطوطات في خزانة ابنه الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه - أكادير.
- (18) سورة الذاريات، الآية 55.
- (19) « لبانة المجاهدين وبغية الطالبين » الشيخ مربيه ربه مخطوط - خزانة الأستاذ المحترم ماء العينين علي مربيه ربه ص 1-2.
- (20) المرجع نفسه، ص 2.
- (21) المرجع نفسه، ص 2.
- (22) المرجع نفسه، ص 2.
- (23) المرجع نفسه، ص 3.
- (24) سورة النساء، الآية 97.
- (25) لبانة المجاهدين، ص 3.
- (26) رواه أبو داود والدارمي وأحمد بن حنبل.
- (27) لبانة المجاهدين، ص 3-4.
- (28) سورة التوبة، الآية 23.
- (29) لبانة المجاهدين، ص 15.
- (30) سورة التوبة، الآية 24.
- (31) لبانة المجاهدين، ص 15.
- (32) المرجع نفسه، ص 15-16.
- (33) المرجع نفسه، ص 16.
- (34) المرجع نفسه، ص 16.

- (35) المرجع نفسه، ص 16.
- (36) سورة المجادلة، الآية 22.
- (37) لبانة المجاهدين، ص 17.
- (38) لبانة المجاهدين، ص 17.
- (39) سورة النساء، الآية 95.
- (40) رواه الترمذي «باب السير».
- (41) رواه ابن ماجه
- (42) «الترغيب في بعض ما أعدّه الله للمجاهدين في سبيل الله.
- الشيخ مربيه ربه - مخطوط - خزانة الأستاذ علي مربيه ربه ماء العينين،
ص 1-2.
- (43) سورة الأنفال، الآية 60.
- (44) الترغيب، ص 3.
- (45) الترغيب، ص 3.
- (46) الترغيب، ص 3.
- (47) الترغيب، ص 4.
- (48) الترغيب، ص 4.
- (49) الترمذي باب السير.
- (50) الترغيب، ص 5.
- (51) الترغيب، ص 6.
- (52) الترغيب، ص 6.
- (53) الترغيب، ص 6.
- (54) لأنها كانت مركب الحرب في زمن الرسول (ص) وحتى في الزمن الذي
كان فيه الكاتب يخوض الجهاد هو وأصحابه فإذا تغير الزمان وجب على
المسلمين أن يعدو كل ما يساعدهم في تقوية صفوفهم ضد العدو كالتطائرات
والدبابات والسفن الحربية والأسلحة الثقيلة وغير ذلك.
- (55) «الترغيب»، ص 9.
- (56) يقصد العدو الفرنسي.
- (57) «الترغيب»، ص 9.
- (58) المرجع نفسه، ص 10.
- (59) المرجع نفسه، ص 58.
- (60) سورة النساء، الآية 102.
- (61) الترغيب، ص 59.
- (62) سورة الفاتحة، الآية 2.
- (63) سورة الأعراف، الآية 196.

- (64) رواه الترمذي «باب السير»
- (65) «صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار»
الشيخ مربيه ربه - مخطوط - خزانة الأستاذ المحترم «ماء العينين علي مربيه ربه»، أكادير، ص 1.
- (66) المرجع نفسه ص 1.
- (67) سورة المائدة، الآية، 51.
- (68) «صولة الكار»، ص 1.
- (69) سورة المائدة، الآية، 57.
- (70) سورة آل عمران، الآية 118.
- (71) صولة الكار، ص 5.
- (72) رواه أبو داود، باب الجهاد ص 95/الترمذي، باب السير، ص 41.
- (73) رواه الترمذي، باب السير ص 41.
- (74) رواه الترمذي، باب السير.
- (75) صولة الكار، ص 5-6.
- (76) صولة الكار، ص 7.
- (77) صولة الكار، ص 7.
- (78) سورة آل عمران، الآية، 28.
- (79) صولة الكار، ص 8.
- (80) المرجع نفسه، ص 11.
- (81) لبانة المجاهدين، ص 1.
- (82) لبانة المجاهدين، ص 1.
- (83) المرجع نفسه، ص 2.
- (84) صولة الكار، ص 15.
- (85) المرجع نفسه، ص 17.
- (86) المرجع نفسه، ص 18.

جهود الجامعة المغربية في كشف ودراسة أدب الصحراء المغربية

محمد احميدة(*)

لا مرأى في الدور الكبير الذي قامت به الجامعة المغربية خلال فترة زمنية تلامس الأربعين عاماً، في نشر الوعي داخل البيئة المغربية، وتأسيس قواعد البحث العلمي الأكاديمي، وتحقيق تراكم معرفي أصبحت نتائجه تلمس سواء على المستوى الوطني أم الدولي. هذا التراكم الذي تحقق خلله تطور نوعي، مس حقولا معرفية متعددة بدءاً بمجالات العلوم الإنسانية، وامتداداً إلى مجالات العلوم الدقيقة.

ونصمد من خلال هذه المقالة إلى التركيز على جانب من الدراسات الجامعية المرتبطة أساساً بالعلوم الإنسانية، بل في دائرة محددة تتعلق بالأدب. فقد أصبح معروفا اليوم في أوساط الباحثين والمهتمين، أن الجامعة المغربية ساهمت بقسط وافر في دعم الثقافة الوطنية، والتعريف بها، وتبويئها المكانة اللائقة ضمن إطار الثقافة العربية عامة.

فأنبرت العديد من الدراسات إلى الكشف عن جذور ثقافتنا وتبيان أصولها ومسار تطورها عبر مختلف العصور التاريخية.

(*) أستاذ جامعي، مدير مجلة المناهل.

وحظي الأدب العربي بالمغرب باهتمام كبير من لدن الباحثين الجامعيين، فالتفتوا إلى الكشف عن مخطوطاته وتحققها، ودراسة أعلامه وجمع انتاجهم، وبحثوا في الفنون الأدبية المختلفة التي أبدع المغاربة في إطارها عبر عصور امتدت إلى أقدم الفترات الإسلامية بالمغرب.

ولما كان المغرب بلدا متسع الأرجاء، متنوعا في بيئته، فقد انعكس ذلك في الإنتاج الأدبي والفكري، ومن ثم لم تنحصر عطاءات المغاربة في مدينة معينة أو جهة محددة، بل كان ينبع النتاج في البوادي والمدن، في المناطق الجبلية والسهلية والصحراوية.

وعطاء فكري في بيئة بهذا التنوع، يفرض منهجا علميا معيناً، يتسنى بواسطته جمع ما أفرزته كل جهة، في مرحلة أولى، ليشكل ذلك أرضية علمية تسمح بكتابة تاريخ للأدب المغربي. هذا المنهج الإقليمي، بهذا المنظور الدقيق، كان من أهم الأفكار التي دعا إليها عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري⁽¹⁾، منذ أزيد من ثلاثين عاما، سواء في دراساته العديدة حول هذا الأدب، أم في الرسائل والأطروحات الجامعية التي يشرف عليها في مختلف الجامعات المغربية.

وحيثما يلتفت الباحث إلى انجازات الجامعة المغربية في إطار دراسة تراثنا الأدبي، يمكنه أن يلحظ أن هذه الأعمال، أنجزت في إطار مشروع علمي متكامل وواضح الأهداف. إن الكشف عن تراثنا الأدبي المغربي، هو بحث عن جانب من الهوية الثقافية المغربية، وربط لفرع بأصل، وتنقيب عن جذور تلتحم بعمق حضاري أثيل.

من ثم فإن التعريف بهذا الجانب هو تشبث بهذه الجذور، وإثبات لهوية تستعصي على الذوبان في الغير، دون أن ترفضه، في عملية تفاعل لا تسمح بتآكل الذات.

لقد قامت الجامعة المغربية من خلال الدراسات العلمية التي أنجزتها مجموعة من الأساتذة الباحثين في الأدب المغربي، بمحاولة مسح لكل الفترات التاريخية، بدءاً بالعهد الإدريسي إلى عهد الدولة العلوية في امتداداتها المعاصرة. فكانت النتيجة كشفاً للعديد من المخطوطات والوثائق الغميسة، تم تحقيقها تحقيقاً علمياً، ووضعت بين أيدي المهتمين، ومس هذا التحقيق المتن الشعري والكتابة النثرية في نصوصها المتنوعة، مقامة ورسالة وشروحا لتأليف إلى غير ذلك، والتفتت بعض الأبحاث إلى أعلام الفكر والأدب، تصنع دواوينهم وتجمع سيرهم، وأحييت أسماء كادت تعفى، وتم ترميم قسم غير يسير من ذاكرة الثقافة الأدبية المغربية، أمست طي النسيان. ولا يتسع المقام لسرد كل أسماء الأعلام التي أصبحت - بعد الكشف والدراسة - تشكل معالم بارزة في تاريخ أدبنا المغربي عبر مختلف العصور.

وإذا كانت مناطق مغربية كالرباط ومراكش وسوس وفاس وسلا والصويرة ومكناس، قد سجلت نبوغ العديد من أعلام الفكر، وبرزت هذه المدن في تاريخنا الثقافي المغربي، فإن الأقاليم الصحراوية المغربية، أنتجت بدورها العديد من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، الذين ضربوا بسهم وافر في المعرفة الأدبية والفقهية واللغوية والتاريخية. بيد أن احتلال هذا الجزء من الوطن، من طرف الاستعمار، حجب النظر إلى هذا الرافد الثري

لثقافة المغربية. ورغم محاولة المستعمر طمس ملامح هذا الجزء من بلادنا، فإن أصالة المحتد وتشرب البيئة الصحراوية بطابعها الإسلامي، وهويتها المغربية، رسخت الروح المغربي الأثيل لهذه المنطقة.

من ثم فإن الدارس لأدبنا المغربي، سيجد في هذا الجزء من الوطن، ينبوعا ثرا، يغني تاريخنا، ونستكمل من خلاله صورة ثقافتنا التي تميزت دوما بالتنوع والفنى. وتكشف ثقافة أقاليمنا الصحراوية عن الأصول المتحدة بين شمال المغرب وصحرائه، عقيدة، ولغة، وعادات وتقاليد وأحاسيس وطنية، ويبرز الانتاج الأدبي وشائج عميقة تفصح عن نسب صراح.

ماذا انجزت الجامعة المغربية في حقل الدراسات الأدبية المغربية الصحراوية؟

ان الاهتمام بأدبنا المغربي في الأقاليم الصحراوية، هو جزء من انشغالات البحث العلمي في حقل الدراسات المغربية، وينصهر في النظرة الشمولية الهادفة إلى كتابة تاريخنا الأدبي المغربي، على أسس علمية، ومن ثم رصد صورة للثقافة المغربية ومكانتها في إطار تاريخ الفكر العربي الإسلامي.

ومن باب الحقيقة التي تفرض نفسها على الباحث، والحرية بالتسجيل في هذا السياق، تلك الجهود العلمية الكبيرة، التي قام بها عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري في مجال دراسة الأدب المغربي، المدرسي منه والشعبي.

فلا يمكن أن نتحدث عن جهود الجامعة المغربية في بناء صرح التاريخ الأدبي المغربي، دون الوقوف مليا أمام الأعمال العلمية لهذا

الأستاذ الجامعي الكبير. فالبحث في الأدب المغربي عند الأستاذ الجارري هم معرفي وقضية وطنية في نفس الآن، وتوسل بالمؤسسة الجامعية لإنجاز العديد من خطوات مشروعه العلمي الوطني.

وإيماننا بأن دراسة أدبنا في الصحراء المغربية، ستكشف عن العديد من العناصر الجديدة التي تغني تراثنا الأدبي، ونستكمل على ضوءها صورة حياتنا وتاريخنا الأدبي، انبرى الدكتور عباس الجارري للبحث في ثقافة الصحراء فكانت كتاباته في هذا المضمار من الأبحاث الرائدة، كشفت مجاهل، وأنارت سبيل العديد من الأساتذة الباحثين، الذين رغبوا في ارتياد هذه الأرض البكر.

وركب الأستاذ عباس الجارري لهذا الأمر سبيل المحاضرة والمقالة، والدراسة والإشراف العلمي على مجموعة من الأبحاث التي انجزت في رحاب الجامعة المغربية، بل ان الدكتور الجارري لم يقتصر في التعريف بأدب الصحراء المغربية، على المستوى الوطني، بل سعى إلى نقل هذا الاهتمام خارج حدود الوطن. فنجد في الفترة الممتدة من 28 مارس و4 أبريل سنة 1975، يشارك في أسبوع ثقافي مغربي نظم بموريتانيا ويلقى محاضرة بعنوان: «الصحراء مهد أصيل للثقافة»⁽²⁾.

ثم فتح باب هذا الانشغال العلمي في رحاب كليات أخر، فاتخذ من الدرس الافتتاحي الذي دعي لإلقائه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير بتاريخ 16 أكتوبر 1987، مناسبة لتعميق البحث في هذا الجانب من تراثنا الأدبي المغربي، وتناول درسه يومئذ «شعر الصحراء»⁽³⁾.

وانبرى الدكتور عباس الجارري إلى توجيه بعض الباحثين وهم

في بداية تلمس طريقهم في البحث العلمي، للاهتمام بأدب الصحراء المغربية، فكان ذلك على مستوى بحث الإجازة، وشهادة استكمال الدروس⁽⁴⁾.

والمتأمل لمشروع الاستاذ الجراري لدراسة ثقافة الصحراء المغربية، يلمح أن الباحث يوسع إطار أبحاثه لتتناول جوانب أخرى تصب في نهاية المطاف في حقل الاهتمام بثقافتنا وفكرنا بهذه المنطقة من بلادنا. من ثم فإن ما أنجزه الدكتور عباس الجراري من أبحاث حول البيعة، ووحدة المغرب المذهبية⁽⁵⁾، تضيء بدورها جوانب أساسية مكملة لما يمكن أن تكشف عنه الدراسات الأدبية. ولا يتسع المقام للأسهاب في هذا المنحى، فقد قصدنا في هذا السياق التركيز على الدراسات المرتبطة أساسا بالحقل الأدبي.

إن الاهتمام بالبحث العلمي في مجال أدب الصحراء، لم يحصر نفسه في نمط معين، بل تشي الدراسات المحققة إلى الآن، بالتنوع والتعدد. فانصرفت بعض الأبحاث إلى تحقيق المتون، وانبرت أخرى إلى دراسة بعض الظواهر الأدبية والفنية، والتفتت جهود إلى فنون أدبية معينة، مما يسمح بنوع من التكامل بين هذه الدراسات، ويكشف في نفس الآن عن غنى تراثنا الصحراوي.

ويمكن في هذا السياق أن نقدم نماذج لهذه الأبحاث الجامعية التي تندرج لاشك، في إطار مشروع علمي له أبعاده الوطنية والمعرفية. فمن الأبحاث الأولى التي انجزتها الجامعة المغربية في إطار دراسة أدبنا المغربي في الأقاليم الصحراوية، رسالة الأستاذ الباحث أحمد مفدي التي قدمها تحت عنوان «تحقيق ديوان الأبحر المعينية للشيخ محمد الغيث النعمة» بإشراف الدكتور عباس

الجراري، ونوقشت بتاريخ 30 يونيو 1976 بكلية الآداب بفاس، ونال صاحبها درجة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها. وهذا شكل من الأبحاث يعرف الدارسون والمهتمون انه يشكل الأس الرئيس لمختلف الدراسات الأخرى. فأن تضع بين يدي باحث متنا أدبيا، شعريا كان أو نثريا، محققا تحقيقا علميا، فقد وطدت له الكثير من الصعاب، ومهدت له السبيل القويم لدارسة علمية دقيقة.

ولاشك أن الدكتور عباس الجراري، وهو يقدم هذه الرسالة في أوائل سنوات السبعين، كان يسعى إلى توجيه الباحثين للكشف عن الذخائر المخطوطة والوثائق الغميسة، يؤسس بذلك لما هو آت من أبحاث ويكشط أرضا بكرًا محفوفة بالمزالق العلمية، لمسها الباحث الأستاذ أحمد مفدي نفسه، وسجلها في بداية رسالته حيث يقول⁽⁶⁾:

«إن البحث في الوسط الثقافي بالجنوب المغربي، يتطلب القيام بعمليات متداخلة ومعقدة..... والطريق إلى ذلك شاق تضيق فيه الأحراش، وتتسبب نتوءات الكثيب، وتكتنفه أخطار تكمن في بنية تضاريس الوسط القبلي، المتباعد المتقارب، المتحارب المتحاب، الساكن الثائر كالبركان».

ورغم هذه الصعوبات اقتحم الباحثون في الجامعة المغربية هذه المجالات الصحراوية، استكمالا لصورة تاريخنا الأدبي، ورفعنا لحجب تخفي جذور ثقافتنا الوطنية. فانبرى الأستاذ أحمد مفدي ثانية - وهو الذي اشتكى من هذا الطريق الشاق - إلى مستوى آخر من البحث ليدرس «الشعر العربي في الصحراء المغربية:

اتجاهاته وقضاياها وجذوره التاريخية»⁽⁷⁾. ومن ثم نلمس هذا التوجه إلى تنويع الدراسات، فمن التحقيق إلى التحليل، ومن المتن الشعري إلى فنون الكتابة النثرية، فالمراكز الثقافية والعلمية. وفي هذا الإطار يلفت نظر الباحث في الثقافة المغربية بشكل عام، وعبر مختلف العصور التاريخية، مركز «الزاوية» كمؤسسة ثقافية وسياسية، قامت بدور فاعل في تاريخ المغرب. ومن أهم هذه الزوايا، الزاوية المعينية بالصحراء المغربية. من ثم كان اتجاه الباحث المغربي الأستاذ محمد الظريف إلى تناول هذا المركز الديني والثقافي، كاشفا عن دوره الأدبي من خلال رسالته الجامعية التي أنجزها تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، بعنوان «الحياة الأدبية في الزاوية المعينية»⁽⁸⁾. والحق أن البحث في هذا النمط من المؤسسات، يعتبر إضافة نوعية تسعى للكشف عن الجوانب المختلفة لثقافتنا المغربية.

لقد «لعبت مؤسسة الزوايا دورا هاما في تاريخ المغرب ما بعد الخلدوني، ورغم هاته الأهمية البالغة، لازالت هاته المؤسسة لحد الآن، لم توضع في سياقها التاريخي الصحيح، بل أكثر من ذلك، لم تنجز أعمال نظرية متكاملة بصدد»⁽⁹⁾. فإذا كان الباحثون يؤكدون على أهمية هذه المؤسسة، ويشتكون من قلة الدراسات التي نحت هذا النحو من البحث، فإن ذلك يبرز أهمية دراسة اتجهت للتنقيب في حياة زاوية من أعماق الصحراء المغربية، علما أن الصورة الدقيقة والموضوعية لدور الزوايا، سواء في الحقل الأدبي أو السياسي، لا يمكن أن تتجلى بوضوح إلا في إطار دراسة متكاملة لا تنحصر في منطقة معينة، بل تلتفت إلى مختلف جهات المملكة.

ولما كان الاهتمام بدراسة أدب الصحراء المغربية متنوعا، فقد عمد الأستاذ الباحث محمد الظريف، إلى انجاز بحث علمي تناول فيه « الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين »، وهي الأطروحة التي حصل بها الباحث على درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بالرباط⁽¹⁰⁾.

وقد كشفت هذه الدراسة عن وجه آخر للثقافة المغربية بالصحراء، حين ينضاف إلى الوجوه الأخرى، فإنه يقدم مادة دسمة يفيد منها الباحث في مجالات متعددة. ان الكشف عن النصوص الصوفية في صحرائنا، يضع أمام الدارس وثيقة غنية بمعطيات يوظفها الباحث الإجتماعي والمؤرخ السياسي، والدارس اللغوي، إلى غير ذلك من المستويات التي يمكن أن يخضع لها تحليل هذا الصنف من المتون.

ولم يكن اهتمام الأستاذ الباحث محمد الظريف بهذه الظاهرة اعتباطيا، بل كان لاختيار هذا الموضوع أسبابه، أجملها الدارس في الآتي⁽¹¹⁾:

- 1 - إن التصوف شكل ظاهرة في أدب الصحراء.
- 2 - غزارة الإنتاج وتنوعه خلال الحقبة المدروسة.
- 3 - إغفال دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية مستفيضة.
- 4 - غياب الروح العلمية في بعض الدراسات التي أنجزت حول أدب الصحراء المغربية، خاصة من طرف بعض الأجانب.
- 5 - استجابة للدعوة التي ما فتىء عميد الأدب المغربي يصدع بها في العديد من أبحاثه، والتي تشير إلى حاجة ثقافة الصحراء إلى المزيد من الكشف والتحليل.

هذه نماذج من الأبحاث العلمية التي أنجزت في رحاب الجامعة المغربية، سعياً للكشف عن أدبنا المغربي في أقاليمنا الصحراوية، أي البحث في شق من هويتنا وحماية قسم من ذاكرتنا ووجداننا، سجله الإنسان المغربي نصاً شعرياً أنا، وكتابة نثرية أنا آخر.

قد يلحظ القارئ أن حديثنا عن جهود الجامعة المغربية قد تركز على كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس، ولهذا التركيز أسبابه الموضوعية. فالكل يعلم أن هذه المؤسسة الجامعية شكلت النواة الحقيقية الأولى للبحث الجامعي بالمغرب، واحتلت كلية الآداب داخل هذه الجامعة رتبة مركزية، مكنتها من تحقيق تراكم علمي في مجالات معرفية متعددة، وكان للدراسة الأدبية حظ وافر من الاهتمام على مدى أربعين عاماً. ثم كان تأسيس الدراسات الأدبية المغربية، التي حظيت منذ البداية بإقبال كبير ثم استمرارية دعمها صمود وجهد جاهد، وما كان هذا ليتم لولا توفر عاملين أساسيين:

الأول: شعور وطني عميق، وغيره قوية على هوية الثقافة المغربية واقتناع كامل بإرثنا الفكري الذي يتميز بتنوعه وغناه ويستدعي المثابرة والصبر والاستماتة.

الثاني: إيمان راسخ بأن بناء الصرح الثقافي المغربي، جزء لا يتجزأ من النهضة الشاملة التي ينشدها الوطن، وهي نهضة تتشكل من لبنات، تتنوع وتتوحد في تكامل وانسجام.

ثم قد يسجل القارئ كذلك أن الحديث عن جهود الجامعة المغربية في دراسة أدب الصحراء المغربية، يتم بتركيز على أعمال الأستاذ الجامعي الدكتور عباس الجراري، وللأمر ما يبرره. لننظر

بموضوعية إلى ما أنجز من أبحاث علمية، في إطار الجامعة المغربية، حول الأدب المغربي، بل لننظر في مرحلة تأسيس هذا الدرس الجامعي بكلية الآداب، والذي خاض من أجله عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري صراعا مريراً⁽¹²⁾، كل ذلك ينبك أن هذا الأستاذ الجامعي بذل الغالي والنفيس من أجل تحقيق هذا الهدف الوطني النبيل، ثم نلتفت لاحقاً إلى الرسائل والأطروحات الجامعية التي أشرف عليها، ناهيك عن التدريس والتوجيه والمحاضرة والتأليف، فماذا نجد؟

إن الأرقام تنطق بالحقيقة التي لا مرأى فيها. فإلى حدود سنة 1992 أسهم الأستاذ عباس الجراري في تأطير أكثر من نصف أبحاث دكتوراه الدولة في الأدب المغربي..... كما أنه أشرف على أربع وخمسين (54) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب المغربي⁽¹³⁾.

من ثم فإن أي حديث عن أدبنا المغربي في إطاره الجامعي يفرض موضوعياً اسم الأستاذ عباس الجراري الذي أصبح عمدة في هذا الباب، حتى إذا انصرف الحديث إلى ما أنجز من دراسات في أدب الصحراء، فإن عشرين عاماً رصعت مسيرة هذا الأكاديمي بأبحاث علمية رائدة، تأليفاً وإشرافاً⁽¹⁴⁾.

ومن باب ذكر الفضل لذويه، فإن استازاً كبيراً، ومحققاً فذاً، وأحد أعمدة الجامعة المغربية في مجال البحث العلمي، هو الأستاذ الدكتور محمد بنشريفة، قد التفت في بعض ما أشرف عليه من أبحاث جامعية، إلى هذا الشق من أدبنا المغربي بالأقاليم الصحراوية. وقد نوقشت في الفترة الأخيرة، رسالة جامعية لنيل

دبلوم الدراسات العليا بإشرافه، تحت عنوان: «تحقيق ديوان الأبحر المعينية في الأمداح المعينية، الجزء الثاني»، أعدها الطالب محمد المختار المداح بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ونوقشت في شهر يوليوز سنة 1995.

والأمل وطيد أن تتوسع هذه الجهود العلمية التي اتخذت حقل أدبنا في الصحراء مجالا لأبحاثها، بعد أن رسخ عميد الأدب المغربي أسس هذه المدرسة بوطنية عالية وتفان وصمود نادرين.

إن جهود الجامعة المغربية في الكشف عن ثقافة الصحراء المغربية، والاهتمام بتراثها الفكري، ودراسة مختلف الجوانب الحضارية، لم يكن مقصورا على هذا الشق من الإنتاج المعرفي المحدد في دائرة الأدب، بل هناك جهود تبذل في كليات أخرى، كل في مجال تخصصه، فأنجزت أبحاث عديدة تناولت الجوانب التاريخية والإقتصادية والقانونية والإجتماعية للصحراء المغربية. بيد أن الإلمام بمختلف هذه الجهود قد تستعصي على دارس واحد، وتتطلب جهودا متضافرة لتجميع هذه الدراسات التي لاشك أن تراكمها وتكاملها في نفس الآن، يشكل ذخيرة علمية على جانب كبير من الأهمية. وقد حاولت من خلال هذه المقالة لفت النظر إلى الدور الذي تسهم به المؤسسة الجامعية بالمغرب، خاصة حينما ينصرف البحث العلمي إلى قضية مصيرية وحيوية، كقضية وحدتنا الترابية التي لا يجادل عاقل أن الدفاع عنها يتم بالسنان والقلم، فالجبهة الثقافية لا تقل جهادية وخطورة عن الجبهة العسكرية والسياسية.

الهوامش :

- (1) انظر مقدمة كتاب «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها» الجزء الأول.
- (2) انظر نص المحاضرة بمجلة «المناهل» ع 6، يوليوز 1976 وانطلاقا من هذه المحاضرة، أعدّ كتيب (ثقافة الصحراء) الذي صدر عن دار الثقافة، بالدار البيضاء عام 1978.
- (3) انظر نص هذا البحث في كتاب «معالم مغربية» للدكتور عباس الجراري. وانظر الاهتمام بشعراء الصحراء لادماجهم في سياق البحث في الأدب المغربي، مثلا : (معركة وادي المخازن في الأدب المغربي) ص، 37-38-39. وقضية الإحياء، وقد أثارها الأستاذ عباس الجراري في مناسبات ومجالات كثيرة، منها ما ورد في «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها»، ص، 181-182.
- (4) أنجز الطالب محمد بويشّين تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، بحثا لنيل الإجازة في الأدب العربي، تحت عنوان : «دراسة في الشعر الحساني» خلال السنة الدراسية 1979-1980.
- وفي إطار شهادة استكمال الدروس أنجز الطالب الحسن بوزلماط بحثا تحت إشراف الدكتور عباس الجراري بعنوان : «شاعر حرب الصحراء : الطاهر الإيفراني».
- (5) لتأكيد وحدة المغرب والصحراء من حيث المذهب، قدم الدكتور عباس الجراري درسا حثيثا بعنوان «وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ» في رمضان 1395 هـ أكتوبر 1975، وقد أداره على الحديث النبوي «لاتجتمع أمتي على ضلالة» : وقد ألقى هذا الدرس بدعوة كريمة من جلالة الملك، إثر الاجتماع الذي عقده جلالتة مع بعض الباحثين المتخصصين، صباح يوم السبت 26 يوليوز 1975، للتباحث في موضوع السؤال الذي طرحه أحد قضاة محكمة لاهاي الدولية حول وحدة المذهب الديني بين المغرب والصحراء، للبحث في النزاع المغربي الإسباني حول الصحراء.
- (6) تحقيق ديوان الأبحر المعينية، أحمد مفدي، المدخل، ص 4. بحث مرقون بكلية الآداب، فاس.
- (7) أطروحة أعدها الأستاذ أحمد مفدي لنيل دكتوراه الدولة تحت إشراف الدكتور عباس الجراري. نوقشت بكلية الآداب بالرباط، بتاريخ 22 يونيو 1990.
- (8) نوقشت بكلية الآداب بالرباط، بتاريخ 17 يونيو 1986، ونال صاحبها دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها.
- (9) محمد ضريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، ص 9.

- (10) أنجزها الأستاذ الباحث محمد الظريف تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، ونوقشت بتاريخ 13 يوليوز 1994.
- (11) انظر الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء، المقدمة. بحث مرقون بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- (12) انظر كتاب «عبقرية اليوسي» للدكتور عباس الجراري، المقدمة، 9.
- (13) للمزيد من الإطلاع على مساهمة الدكتور عباس الجراري في الإشراف والتأطير بالنسبة للرسائل والأطروحات، انظر: البحث الجامعي في الدراسات الأدبية المغربية، مقاربة أولية: عبد الإله فونتير، حوليات كلية اللغة العربية، العدد الثاني، ص 162، 1993.
- (14) من الرسائل الجامعية التي أشرف عليها الدكتور عباس الجراري، وتناولت جانبا من أدبنا المغربي بالأقاليم الصحراوية:
- أ - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي. تحقيق الطالب: محمد بن محمد عبد الله ماء العينين.
- وهي رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، نوقشت بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- ب - الصورة الفنية في شعر الصحراء المغربية، من منتصف القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين. أعدها الطالب: بوبكر أولياس.
- وهي رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. نوقشت بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- ج - شعر المسيرة الخضراء من 1975 إلى 1985 جمع ودراسة. للطالب الأردني: محمد سالم الفزاع.
- د - عبد الله العتيق لغويا وأديبا، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، للطالب: محمد الأمين ولد محمود صهيب.

قراءات

كتاب «ثقافة الصحراء»

للدكتور عباس الجراري

عرض : مصطفى الجوهرى(*)

لعله ليس من الضروري الوقوف عند الجهود الكبيرة الذي بذله الدكتور عباس الجراري - وما زال - في تطوير البحث العلمي في المغرب تنظيرا ودراسة وبحثا ومنهجيا وتكوينيا وإشرافا، خدمة لتراثنا وثقافتنا، وإذكاء للحركة العلمية المغربية قديمها وحديثها، انصبت دراساته على استقراء الظواهر والقضايا، واهتمت بالرجال الذين كان لهم إسهام بارز في صنع مكونات الحضارة المغربية العربية الإسلامية، والمتأمل في كتاباته عموما سيلاحظ أنه كان له الحظ الأوفر في خدمة مختلف مظاهر الثقافة المغربية ومقارباتها، بتفان وصدق وإخلاص، وأخلاق عالية، وبروح وطنية هادفة، ويكفيه - في نظري - البذرة الطيبة التي غرسها ورعاها، وهي تنتشر عبر أقاليم المملكة تضطلع بمسؤولية التدريس والبحث بمختلف المؤسسات الجامعية والتربوية، تؤكد حسن عطائه ومكانته وريادته. ومن أبرز اهتمامات الدكتور عباس الجراري، والذي شكل عنده هاجسا حرك فيه جسامة المسؤولية الوطنية، وما يمكن أن يساهم به الباحث والعالم المسؤول لقضية

(*) أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأساتذة، التقدم، الرباط.

وطنية كبيرة تتصل بالأرض والسيادة، انه موضوع الصحراء في بعده الحضاري والفكري لإفراز الذات المغربية، وهو موضوع ليس سهلا، ينضوي عنده ضمن مشروع النظرية الاقليمية في الأدب، التي تتطور لتحقيق القومية والعالمية، وهذا الاهتمام محاولة جادة لتذليل الصعاب للذين يودون دراسة فكر المنطقة التي ظلت سجين الاستعمار الاسباني لعقود طويلة، ومع ذلك فإن إنتاج الصحراء الثقافي يشكل ملفا خصباً وإثباتاً قوياً، يمكن استثماره بعمق ووعي في الطرح السياسي ومكمل له، حين اختار المغرب أن يسلك منهج العقلاء سلماً وسلاماً، لتحقيق وحدته الترابية. ومن أبرز عناصر هذا المنهج ما أبدعه الملك العبقري جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره، يوم خط ملحمة القرن/ المسيرة الخضراء التي حققت كل مقومات النصر والسيادة والوحدة.

إن المتأمل في كتابات الدكتور عباس الجراري ومحاضراته منذ بداية السبعينات إلى اليوم، سيلاحظ أن ما أخرجه من أبحاث تتصل في أغلبها إن لم نقل أجمعها بقضية الصحراء المغربية وأبعادها الثقافية والوطنية، بدءاً بكتابه: (النضال في الشعر العربي بالمغرب من 1830 إلى 1912)⁽¹⁾، الذي يرى من خلاله أن (الاسلام هو الجسم الحقيقي للشخصية الوطنية وللوجدان الفردي والجماعي وللوجود الثقافي والحضاري في أبعاد التاريخ والحاضر والمستقبل)⁽²⁾، فكتابه (وحدة المغرب المذهبية)⁽³⁾، الذي عالج فيه (ظاهرة الوحدة وأسباب الأخذ بالمذهب المالكي، والاستمرار فيه. ومدى استفادتنا من تحليل هذه الظاهرة في مواجهة الواقع الذي نعيش).

وستبرز مكونات الثقافة الصحراوية في كتابه (ثقافة الصحراء)⁽⁴⁾ - موضوع هذا العرض - عن طريق تجسيد الملامح الفكرية والخصائص الفنية لمعالم هذه الثقافة كما سنرى. ولعل الثقافة الصحراوية ستبلور لدى الدكتور عباس الجراري معطى جديرا بالتأمل، بل إنه تصور يمكن أن يساهم في إعادة النظر للتأريخ الأدبي الحديث، في مرحلة النهضة العربية الحديثة، خاصة وأن شعراء الصحراء يشكلون طليعة اتجاه شعري يصوغ لهم الريادة قبل أن تعرف (مدرسة البعث والاحياء) في المشرق العربي، وهو ما ناقشه كتابه (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها)⁽⁵⁾، فكانت الصحراء المغربية - أرض الشعر والشعراء - سباقة من حيث الزمان والمكان والبعث، مما أهلها أدبيا أن تنفرد بالحفاظ على خصائص الشعر العربي الحق، واستحق شعراؤها أن يحملوا (مدرسة الإحياء الصحراوية) التي تتميز بسمات وملامح خاصة⁽⁶⁾، وكيف ما كان الحال فـ (إن شعر الصحراء كان - وما زال - أداة وحدة ووسيلة تواصل، أي أنه لم يكن في يوم ما شعرا منعزلا أو منفلقا يتحرك في بيئته فقط، ولكنه كان دائما يمد يده إلى أطراف الوطن ليندمج فيه وينصهر داخل بوتقته، في عملية أخذ وعطاء مستمرين، توصل فيهما بكل الممكنات المتاحة لإثبات الوحدة وتأكيد التواصل، على الرغم من الظروف التي كانت في معظمها صعبة، بما تلقى به في الطريق من عوائق وحوادث)⁽⁷⁾.

إن فكر الصحراء بكل أنماطه سيشكل بعدا حضاريا ووحديا لا ينحصر في الوحدة الوطنية فحسب، بل سيحاول أن يفرز الوحدة المغاربية الكبرى، وهذا ما نلمسه في كتابه (الفكر والوحدة)⁽⁸⁾، ثم كيف انعكس هذا الفكر على الجانب السياسي والديني وأكد

حضوره (عند النظر إلى الهوية والكيان والشخصية) في بحثه (فلسفة نظام الحكم في الاسلام وأهمية البيعة)⁽⁹⁾. فكانت البيعة حقا أساس الارتباط بين المغرب وصحرائه، ثم انتهى إلى بلورة كل المعطيات السابقة التي كانت تهدف إلى تأكيد هوية هذا الفكر الثقافة، ثم مدى قابليته للإنفتاح والحوار في كتابه الأخير (الثقافة من الهوية إلى الحوار)⁽¹⁰⁾. ويمكن أن نضيف إلى كتابات الدكتور عباس الجراري حول ثقافة الصحراء، جهوده في الأبحاث والرسائل والأطاريح الجامعية التي أنجزها تحت إشرافه وتوجيهه ثلة من الأساتذة الباحثين⁽¹¹⁾.

ثقافة الصحراء:

منذ أن فكر المغرب في أن يضع حدا للإستعمار الأسباني في الصحراء المغربية ورجوعها إلى الوطن الأم، كانت الثقافة الصحراوية - رغم تنوعها وتعددتها - غير متداولة بالشكل الذي نلمسه اليوم، وربما كان كتاب (الوسيط في تراجم أدباء شنجيط) لأحمد بن الأمين الشنقيطي، المرجع الوحيد - فيما أحسب - المتداول بين الباحثين، رغم كثرة التآليف الصحراوية المطبوعة، وبعض الكتابات التي اهتمت بالموضوع⁽¹²⁾، لكنه فيما بعد توالى جهود الباحثين للعناية بفكر الصحراء وأعلامه ومكوناته العامة⁽¹³⁾. واتجهت هذه العناية لاستقراء ظواهره وقضاياها، في محاولة تعريفية هادفة، تطرح نماذج ثقافية جادة تعنى أساسا بالروابط المتينة والأصيلة لاثبات الهوية والشخصية الوطنية، بحكم الظروف التي صاحبت القضية الصحراوية منذ بداياتها، وفي نفس الوقت، كان الهدف هو محاولة الإلمام الكلي بمختلف

معطيات الفكر الصحراوي وأبعاده، ومقاربتة الاقليمية والعربية لتقرير نموذجيته ومفربيته.

وفي هذا النسق كان كتاب (ثقافة الصحراء)⁽¹⁴⁾ للدكتور عباس الجراري الذي يلقي بالظل على جوانب هامة من الحياة الفكرية في الأقاليم الصحراوية المغربية، ويكشف التلاقح والانصهار الذي حدث بينها وبين ثقافات الأقاليم الأخرى رغم ظروف القهر التي فرضها الاستعمار مدة طويلة. وأن يشخص ملامحها ويبرز أعلامها، ويحدد خصائصها، مؤكدا منذ البداية ازدهار الثقافة في المنطقة عبر العصور، وأنها كانت دائما أداة (تواصل وإشعاع)، فما موضوعات هذه الثقافة؟ لقد وضع الأستاذ عباس الجراري لهذه الموضوعات محاور ثلاثة:

الأول : خصصه للملامح التاريخية والفكرية الصحراوية.

الثاني : لأعلام الصحراء ممن ساهموا في صنع الثقافة الصحراوية.

الثالث : لتحديد خصائص ثقافة الصحراء.

واهتم في المحور الأول بدراسة المكونات الحضارية للصحراء منذ العهود الأولى للتاريخ القديم، وما عرفتة المنطقة من أشكال حضارية متميزة: (آلية وحيوانية وفلاحية وكتابية)، مفندا أصول السكان لتأكيد (الوحدة الأثنوغرافية)، محللا المظاهر الدينية المتتالية، وإلى عدم معرفة المنطقة الإحتلال الأجنبي، (إلا ما كان من غزو حانون القرطاجني، بحثا عن مراكز جديدة لتجارة القرطاجنيين)⁽¹⁵⁾، فكيفية نفوذ الاسلام منذ الفتح الاسلامي بشمال إفريقيا، وكذا تعاقب الدول التي حكمت المغرب منذ دولة الأدارسة

إلى دولة العلويين الشريفة، مشيراً إلى المذاهب التي انتشرت قبل المذهب المالكي، هذا الأخير الذي ساهم في إثراء مشروع الوحدة المذهبية المناسبة منذ عهد الدولة المرابطية وإلى اليوم، وكيف ساهمت هذه المذهبية في إبراز (عنصر التواصل بيننا من الشمال إلى الجنوب)⁽¹⁶⁾.

أعلام الصحراء والدور الثقافي :

ليس ضروريا التأكيد بأن حضارة الأمم تعرف برجالاتها من العلماء والفقهاء والكتاب والأدباء والشعراء و.... وكل من له صلة بالمعرفة والفكر والثقافة، ومن يشتغل في موضوع الإعلام سيدرك الصعوبات التي يمكن أن تعترضه، ليس مجال بسيطها هذا العرض، ومع ذلك نلمس في المحور الذي خصصه الدكتور عباس الجراري في كتابه (ثقافة الصحراء) مدى الدقة في اختيار الإعلام على تعددهم وتنوع عطاءاتهم، وهم يمثلون بحق (ثقافة الصحراء) بكل معطياتها وتنوع عناصر مكوناتها، بدءا ببعض أعلام المرابطين الذين يشكلون بحق طليعة صنع الثقافة الصحراوية والمغربية أمثال : عبد الله بن ياسين، ووجاج بن زلو، وزاوي بن مناد الصنهاجي (ابن تقسوط) وخلوف بن خلف الله الصنهاجي، وعمر بن امام ابن المعتز الصنهاجي، والمنصور بن محمد بن الحاج داود، وميمون بن ياسين. وفي العصور اللاحقة برزت أسماء من مثل: محمود بن عمر بن حمد أقيت الصنهاجي، والشيخ محمد بن محمد التنبيكتي، وأحمد بابا التكروري وعبد الله بن محمد العلوي (ابن رازكة)، وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم محنص العلوي، ومحمد بن عبد الله بن رازكة، وسيدي محمد بن الشيخ سيدي، والمختار بن يون الجكني،

وبابا ابن احمد، والتيجاني بن بابا بن احمد بيب. والشيخ ماء العينين وأسرته وأبنائه أمثال: الشيخ محمد فاضل بن مامين، والشيخ ماء العينين محمد مصطفى، واحمد الهيبة، ومربيه ربه، ومحمد الأغضف...

ولم تكن المرأة الصحراوية بمعزل عن المشاركة في صنع هذه الثقافة، بل كان لها نصيبها في إذكاء مكوناتها، نذكر من بين هذه الأسماء: زينب النفزاوية⁽¹⁷⁾، وأم طلحة تميمية، وقمر⁽¹⁸⁾، وحواء، وزينب⁽¹⁹⁾، وخنائة بنت بكار⁽²⁰⁾، وصفية بنت المختار، وخديجة بنت المختار بن عثمان، وهند⁽²¹⁾، وميمونة بنت الشيخ محمد الحفري، وأختها ربيعة، وخديجة بنت الإمام محمد العتيق، ومريم الشاعرة، وخديجة بنت البيضاوي.

خصائص الثقافة الصحراوية :

أما خصائص (ثقافة الصحراء) فقد تناولها المؤلف من خلال محتوياتها ومضامينها وأضاف إليها (الأبعاد والآفاق). فنجده يركز على استقرار الجانب المذهبي الذي يتمثل في الخط السني، ومذهب الإمام مالك، تؤكد نوعية المتون والتأليف التي كانت تدرس في المنطقة، وتظهر هذه الخصائص أكثر في اللغة والأدب في نوعيه المدرسي والشعبي سواء في الأمثال والحكم أو أدب الملحون الذي (نشأ في الصحراء ثم انتقل من تافيلالت إلى الشمال ليزدهر في الحواضر)⁽²²⁾، وما ميز الصحراء تراثا وإبداعا.

أما العنصر الثاني فقد أكد من خلاله كون (ثقافة الصحراء كانت دائما ثقافة تواصل، حيث نجد العلماء والأدباء الصحراويين يتوافدون على أقاليم الشمال، إما للدراسة والتدريس، وإما

للإتصال بالملوك قصد مدحهم أو الكتابة لهم⁽²³⁾، ويتأكد هذا التواصل والإتصال من مجموعة من الأسماء اللامعة سواء التي اشتغلت بالكتابة في مجالات معرفية مختلفة، وفي دواوين الملوك، أو الشعراء الذين تخصصوا في قصيدة المدح، أو الذين أبدعوا قصائد المساجلات الإخوانية، أو من تقلبوا في مناصب متباينة، أو من ساهموا في تنشيط مجالات الثقافة الأدبية، وحركة التأليف.

ولعل أبرز الروابط الثقافية بين شمال المملكة والصحراء تتمثل، إلى جانب الوفود الرسمية التي كانت تزور المنطقة، في ما تبادله الشعراء من الشمال والجنوب من مساجلات إخوانية، أو بعض شعراء الشمال الذين (مدحوا الشيخ ماء العينين كالطاهر الافراني، وأحمد بن المواز، وعبد الرحمن بن زيدان، وأحمد سكيرج، وعبد الله القباچ)⁽²⁴⁾، أو ما كان من تقليد علمي بين العلماء والفقهاء ينعكس في (تبادل الاجازات العلمية) و(تبادل الألفاظ العلمية)⁽²⁵⁾ و(تبادل الفتاوى الفقهية)⁽²⁶⁾، وأخيرا مدى (عناية الملوك بطبع إنتاج علماء الصحراء منذ دخلت المطبعة إلى المغرب)⁽²⁷⁾.

وهكذا نخلص إلى أن كتاب (ثقافة الصحراء) للدكتور عباس الجراري على شدة اختصاره، يعد أرضية ثرية لدراسة المعطيات الأساسية للثقافة الصحراوية منذ بداياتها الأولى حتى الفترة الحديثة، تجسد وحدة المملكة وترابط أبنائها عبر التاريخ، وهذه الثقافة من جانب آخر تشكل تجربة متميزة تغني التجارب المغربية الأخرى، وتكشف واقع الثقافة بالمغرب، وهو واقع يتميز بالتنوع والتعدد والثراء وإن كانت ثقافة الصحراء تنفرد بجملة

من السمات ذات الجذور التاريخية في ثقافة المغرب وحضارته، تطرح بوعي المسؤولية الحضارية الملقاة على رجال الفكر والباحثين لإهتمام بالثقافة الصحراوية، لأننا نعتقد أن التراث الصحراوي بأشكاله وأنماطه المختلفة، وشخصياته التي لا حصر لها، مازال في حاجة إلى التقصي والدرس والتحليل، لبلورة زوايا الحضارة المغربية التي تعرف بالخصوبة والتواصل والتجديد.

الهوامش :

- (1) مطبعة فضالة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975.
- (2) النضال في الشعر العربي بالمغرب، ص: 71.
- (3) درس حسني قدم خلال شهر رمضان 1395 هـ، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1976.
- (4) مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1978.
- (5) صدر عن مكتبة المعارف، الرباط، 1979؛ انظر الكتاب، ص: 181. ومعالـم مغربية، ص: 140.
- (6) انظر معالم مغربية، ص: 141، وما بعدها.
- (7) شعر الصحراء، المرجع السابق، ص: 129.
- (8) انظر مبحث (أفاق بناء المغرب العربي ثقافيا) من كتاب (الوحدة والفكر) عباس الجراري.
- (9) ندوة الخلافة والبيعة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العيون من 19 إلى 22 ذي الحجة 1405 هـ موافق 5-8 دسمبر 1985، وانظره في كتاب (بحوث مغربية في الفكر الإسلامي)، مطبعة المعارف الجديدة، 1988، ص: 9، وما بعدها.
- (10) منشورات النادي الجراري، رقم 3، الهلال العربية للطباعة والنشر، 1993.
- (11) نذكر على سبيل المثال: أحمد مفدي، تحقيق (ديوان الأبحر المعينية) رسالة د.د.ع. وأطروحة الشعر العربي في الصحراء المغربية، ومحمد الظريف (الحياة الأدبية في الزاوية المعينية) رسالة د.د.ع. وأطروحة حول، الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية. وجميعها تحت إشراف د. عباس الجراري.

- (12) من بينها مثلاً ما كتبه محمد المختار السوسي، وعلال الفاسي، وعبد الله الجراري.. وآخرون.
- (13) أمثال: عبد الوهاب بنمصور، وعبد العزيز بنعبد الله، وزين العابدين الكتاني، والمختار ولد أباه، وشببيها حمداتي ماء العينين، وعباس الجراري..
- (14) هو في الأصل محاضرة شارك بها د. عباس الجراري في الأسبوع الثقافي الذي نظمته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بنواكشوط ما بين 28 مارس و4 أبريل 1975، مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1978.
- (15) ثقافة الصحراء، ص: 9.
- (16) نفسه، ص: 18.
- (17) زوج يوسف بن تاشفين.
- (18) زوج علي بن يوسف.
- (19) أختا أبي بكر ابن تافلويت
- (20) زوج المولى اسماعيل
- (21) زوج ماء العينين.
- (22) ثقافة الصحراء، ص: 34.
- (23) نفسه، ص: 35.
- (24) نفسه، ص: 47.
- (25) ثقافة الصحراء، ص: 48.
- (26) نفسه، ص: 51.
- (27) نفسه، ص: 52، وما بعدها.

* * *

دغدغة في ألق الذاكرة قراءة في كتاب «ثقافة الصحراء»

للدكتور عباس الجراري

سعيد الفاضلي(*)

يعد الدكتور عباس الجراري من الرواد الأوائل الذين اهتموا ومازالوا يهتمون بموضوع الصحراء ومن أغزر المنتجين في حقله كتابة وبحثا ومحاضرة وإشرافا أكاديميا، كما أنه تناول هذا الموضوع في غضون مواضيع أخرى أكثر عمومية؛ دون أن ننسى إشرافه المتواصل إلى الآن على رسائل وأطروحات جامعية مهدت الطريق أمام الباحثين ونفضت الغبار عن تراث حضاري وأدبي ثر.

ومن بين مؤلفات الدكتور عباس الجراري في هذا المجال كتاب «ثقافة الصحراء»، وهو محاضرة في الأصل، كان ألقاها في الأسبوع الثقافي المغربي بنواكشوط سنة 1975، وهو من منشورات دار الثقافة سنة 1978، ويقع في اثنتين وسبعين صفحة من القطع الصغير. ورغم كونه محاضرة محدودة في الزمان والمكان نجده شاملا يكتفي صاحبه باللمحات والإحالات، كتحقيق استطلاعي كرونولوجي، كل محطة فيه بمثابة دعوة إلى التعمق فيها وعيا منه أنها «تحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب للكشف

(*) أستاذ باحث في الأدب المغربي.

عنها في صورتها المتكاملة، وتحتاج بعد ذلك إلى مزيد من الدراسة والتحليل»⁽¹⁾. ولعل أصدق دليل على ذلك اعتماده على ست وخمسين مصدرا ومرجعا منها ما هو عربي ومنها ما هو فرنسي. وهو كتاب أساسي لكل مهتم بالصحراء أنى كان تخصصه، وقد نفدت نسخه من السوق منذ مدة طويلة.

ويأخذ الدكتور عباس الجراري كلمة «ثقافة» بالمعنى الانثروبولوجي العلمي الذي يشمل كل الأنشطة الإنسانية الدالة على الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، ابتداء من استعمالات أهل الصحراء الأدوات الحجرية واشتغالهم بالصيد إلى إتقان الفلاحة، إذ «كانت وفرة المياه والأنهار والوديان تمكن من غرس الأشجار وإقامة زراعة منتظمة ولو إلى حد»⁽²⁾، وصولا إلى الكتابة المعروفة بخط تيفيناغ؛ وكل ذلك باعتماد المكتشفات الأثرية.

ومثل كل الشعوب البدائية قدس سكان الصحراء الأقدمون مظاهر الطبيعة وبعض الأوثان قبل ظهور اليهودية والمسيحية. ويؤكد الكاتب أن أهل الصحراء «أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم وأنه لم يسمع قط أن أحدا استولى عليهم قبل إسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام»⁽³⁾. ومن أهم مآحقه الدكتور الجراري وصول الفاتحين الأول إلى المنطقة مثل عقبة بن نافع وموسى بن نصير. ثم مضى يتابع العاقبة المتينة بين منطقة الصحراء وبين الدول المغربية المتعاقبة كالأدارسة والمغراويين.

ورغم وصول أصداء الصراع المذهبي الذي كان سائدا في الشرق العربي إلى المغرب، ومن ذلك تأرجح أمراء سجلماسة بين الصفرية والإباضية فإن المذهب السني المالكي هو الذي كان مهيمنًا، هذا

المذهب الذي سيوحد المنطقة كلها في « عهد دولة نابغة من الصحراء هي دولة المرابطين »⁽⁴⁾.

وقد حدد الكاتب أسباب الاعتماد على هذا المذهب في ثلاث نقاط:

1- معرفة الناس السابقة به

2- موافقته لمزاجهم؛

3- لأنه أتاح لهم نوعاً من التحالف مع الأنظمة السنية في المشرق. كما دفع التهم التي ألصقت بابن تاشفين، دون أن ينسى الإحالة، للتعمق في هذين الموضوعين، على بعض مؤلفاته التي أشفى فيها الغليل⁽⁵⁾.

ومعلوم أن عقيدة الموحدين مزيج من الأشعرية والشيعة الإمامية والاعتزال والمذهب الظاهري لذلك اعتبر الدكتور عباس الجراري ثورة بني غانية الصنهاجيين على الموحدين المصامدة رفضاً « للمذهبية الموحدية لتمكن المذهب السني منهم وتمكن الفقه المالكي، شأنهم في ذلك شأن جميع المغاربة »⁽⁶⁾.

و حين استولى المرينيون على السلطة سعوا إلى بسط نفوذهم على الصحراء ليستمر الاستقرار والوحدة بعد ذلك « في ظل الدول المتعاقبة... دول المرينيين والسعديين والعلويين وهي كلها من أصل صحراوي وقائمة في مذهبيتها على السنة وفقه الإمام مالك »⁽⁷⁾ هذه المذهبية التي يعتبرها الكاتب بين شمال المغرب وجنوبه على مر التاريخ أرسخ عناصر التواصل والوحدة.

وينتقل الدكتور عباس الجراري في المبحث الثاني إلى ذكر أعلام مبرزين صحراويين على مر العصور نختار منهم تمثيلاً: عبد

الله بن ياسين، وأحمد بابا التنبكتي، وعبد الله بن محمد العلوي الشهير بابن رازكة الذي كانت له حظوة عند المولى إسماعيل وله في ولده الأمير محمد العالم مدائح كثيرة، وكذا المختار بن بون الجكني. بالإضافة إلى الشيخ ماء العينين وأسرته الذين «اشتهروا بالجهاد والعلم والأدب، وكانوا السند الكبير والقوي للدولة في الصحراء وحققوا التواصل السياسي والفكري في المنطقة كلها»⁽⁸⁾. إذ كان الشيخ ماء العينين ممثلاً للسلطان بهذه المناطق وله مراسلات مع مختلف الملوك العلويين الذين عاصروهم من المولى عبد الرحمن إلى المولى عبد الحفيظ. كما لا يفوت الدكتور عباس الجراري أن يذكر بعض النساء الصحراويات المبرزات مثل زينب النفزاوية زوج يوسف بن تاشفين وخنائة بنت بكار زوج المولى إسماعيل.

أما في مبحث الخصائص الثقافية فتناول الكاتب وحدة الجانب الفكري والمذهبي الجامع بين أبناء المغرب من شماله إلى جنوبه وصولاً إلى التخوم الأفريقية ويتلخص في العقيدة الأشعرية وفقه الإمام مالك والتصوف السني التعبدية، وقد لخص ذلك ابن عاشر في نظمه قائلاً:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيّد السالك

ومن الخصائص اللغوية والأدبية في ثقافة الصحراء متانة اللغة وجزالتها تأثراً بالجاهليين والأمويين، هذا بالإضافة إلى تنوع التراث الشعبي المتجلى خصوصاً في صناعة الزرابي والحلي وأنواع الموسيقى والغناء والرقص والأمثال والقصص، ولا يخفى الدور التربوي للعنصرين الأخيرين. أما فن الملحون فإنه «نشأ في

الصحراء ثم انتقل من تافيلالت إلى الشمال ليزدهر في الحواضر ومن الأسماء التي لمعت فيه مولاي الشاد وعبد الله بن حساين كلاهما من الصحراء ومن القرن التاسع الهجري»⁽⁹⁾، ويعتبر الكاتب ابن حساين أول من اكتملت عنده قصيدة الشعر الملحون⁽⁹⁾.

وفي إطار تناول الدكتور عباس الجراري آفاق وأبعاد ثقافة الصحراء استخلص أن هذه الثقافة كانت دائما ثقافة تواصل بين شمال المغرب وجنوبه، فالشاعر أبو اسحق بن يعقوب الكانمي مثلا، مدح المنصور الموحدي، والمختار بن الهيب الأبييري كان كاتباً للمولى عبد الرحمن، ومحمد لجيدري بن حبيب الله كان ذا حظوة عند سيدي محمد بن عبد الله، ومعاوية بن الشد التندغي مدح المولى اليزيد بن سيدي محمد بن عبد الله، ومحمد البيضاوي الشنجيطي تصدر للتدريس وشغل عدة وظائف رسمية بطنجة وتطوان وغيرها من المدن. كما أن محمد بابا الصحراوي استقر بالغ وله مطارحات مع شعرائها، والشيخ سيدنا بن الشيخ أحمدو الديمانى الصحراوي مدح الملوك العلويين وله مساجلات مع أدباء سوس، وماء العينين بن العتيق له مدائح في المغفور له محمد الخامس.

ولم يفت الدكتور عباس الجراري أن يلم بالاتجاه الآخر للتواصل المنطلق من الشمال إلى الجنوب في شخص الرحالة ابن بطوطة وأبي سالم العياشي ومحمد بن أحمد القيسي السراج، دون أن ننسى الوفود الرسمية التي كانت بعثاتها تترى نحو الصحراء، ومنها الوفد الذي بعثه المولى عبد العزيز لاستخلاص طرفاية من الانجليز سنة 1313 هـ، وقد قال العلامة إبراهيم بن محمد البواري

مرحبا بهم:

أهلا بهم من خمسة أعلام بل خمسة كقواعد الإسلام
رسل الأمير ابن الأمير إمامنا عبد العزيز بن العزيز إمام

كما ذكر الكاتب بعض شعراء الشمال الذين مدحوا الشيخ ماء
العينين كالطاهر الإفرائي وأحمد بن المواز وعبد الرحمن بن
زيدان وأحمد البلغيثي وأحمد سكيرج وعبد الله القباج.

وتعد الإجازات المتبادلة والألغاز العلمية والإفتاء بعض روافد
هذا التواصل، كما يعد طبع كتب أعلام الصحراء من طرف الملوك
العلويين من أقوى أوامر هذا التواصل، وقد ذكر منها الدكتور
عباس الجراري خمسة وأربعين مؤلفا يتوزع موضوعاتها التصوف
وعلوم الدين والشعر والنحو واللغة.

ثم إن إشعاع ثقافة الصحراء تجاوز حدود الوطن إلى مصر
ومن أبرز الأعلام الذين خدموا الثقافة العربية ككل عند إقامتهم
بمصر محمود محمد بن أحمد التركي (1904 -) الذي صحح أخطاء
طبعة بولاق للأغاني، وأحمد بن الأمين (1913 -) الذي صحح طبعة
ساسية من نفس الكتاب، وهو صاحب كتاب الوسيط في تراجم
أدباء شنقيط، وقد ذكر المؤلف للأول ستة مؤلفات، لعل أطرفها:
رسالة في صرف «عمر»، «زاعما أن العرب ونحاتهم غلطوا فيها
منذ سيبويه وحجته أنه وجد مائة بيت للعرب مصروف فيها عمر
وأنه صرف في البخاري ومسلم وأن العرب لم تمنعه نظما ولا
نثرا»⁽¹⁰⁾. كما ذكر المؤلف للثاني ثلاثة عشر مؤلفا منها رد على
رسالة التركي في صرف «عمر».

والملاحظ من خلال العناوين المذكورة أن هذين العلمين تخصصا
في اللغة والأدب، كما تدل رسالة صرف «عمر» والرد عليها على أن

الرجلين قادا نهضة لغوية وصلت إلى درجة إعادة النظر في بعض المسلمات.

والواقع أن التوفيق حالف عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري فيما توخاه من هذا الكتاب ألا وهو إبراز الأواصر الثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية القائمة بين شمال المغرب وجنوبه، فأغلب الدول المغربية منحدره من الصحراء، كما أن هذه الأخيرة مهد فن الملحون الذي لا زال يصدح في مدن المغرب بأنغامه، والمذهب المالكي هو السائد في المغرب كله شمالا وجنوبا، والأمثال السائرة في الشمال والجنوب واحدة، وقد أعطى المؤلف نماذج منها⁽¹¹⁾. كما أن « لكل أسرة عريقة وشريفة في الصحراء أصلا أو فرعاً في المغرب »⁽¹²⁾، ومن ذلك العروسيين وأولاد بوسبع وقبائل الرقيبات المنتسبة للولي عبد السلام بن مشيش⁽¹²⁾. وما ذلك بغريب على رجل من طينة الرجال الأفذاذ الذين يحملون رسالة ودعوى لا يتوقفون عن الدفاع عنها وتطويرها، متمثلة عنده في تأصيل البحث والدرس في الأدب والثقافة في المغرب وإعطائه الشخصية المتميزة البعيدة عن كل تبعية أو تقليد.

الهوامش :

- (1) ثقافة الصحراء: د. عباس الجراري 61.
- (2) نفس المصدر 7.
- (3) نفس المصدر 9-10.
- (4) نفس المصدر 14.
- (5) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (درس حسني: رمضان 1395)
التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب: دعوة الحق: مارس

1974. كما نشره ضمن كتاب الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه: 81.
وانظر أيضا بنفس الكتاب: قضية المعتمد بن عباد 107.
- (6) ثقافة الصحراء 17.
 - (7) نفس المصدر 18.
 - (8) نفس المصدر 26-27.
 - (9) نفس المصدر 34. وانظر كتاب «القصيدة» للمؤلف.
 - (10) نفس المصدر 58.
 - (11) نفس المصدر 33.
 - (12) نفس المصدر هـ 35.

* * *

إبداع

موعد مع الصحراء(*)

محمد الحلوي

أنت ظمأى للماء أم للدماء؟
كون منها معطر الأرجاء
ر و حمر الجمال في الرمضاء
كالعذارى في عزة شمءاء
ر ودنيا قدسية الأضواء
ها رياض تفوح بالأشذاء
ر وخير الصحراء في الأحشاء!
ءوا ليبنوا الأهرام في صحرائي!
ك أحلتك ناطحات السماء؟
بك في المركبات عبر الفضاء؟
ذ عسير أن يبسطا بالعطاء!

يا رمالي العطاش في الصحراء
يا عروسا بلا ورود وكل الـ
الرمال العفراء في واهك الخضر
والنخيلات وهي ترقص تيهها
صورته في روائعها الفك
لا يضير الصحراء أن لا ترى فيـ
كل أرض يبدو على وجهها الخـ
خبيريني عن الغزاة ومن جا
هل أقاموا حضارة في مغانـ
هل أفادوا بنيك علما وطاروا
إن من عـودت يداه على الأخـ

ف ويوم الزلازمة الغراء
حر مجدا يختال في الحمراء!
م أسود في حومة الهيجاء
رت قبورا للطفمة الفوغاء
م غصون العمائم الزرقاء!

ذكريهم (أنوال) والأسد في الريـ
ذكريهم من نحن إن لم يكن يبـ
ذكريهم أنا حمائم في السلـ
لكائي أرى رحابك قد صا
وبنوك الأسود لفوا على الها

(*) نشرت هذه القصيدة بمجلة دعوة الحق، العدد العاشر السنة السادسة عشرة
صفر 1395 هـ - مارس 1975 م

كثيب وملء كل خيباء
 سيمحوه ساطع من ضياء
 شئت يا سنيو ريتا أم لم تشائي!
 لا. ولن نستكين للأعداء
 رجوع الأبناء للآباء
 ويذروه زحفنا كالهباء
 موك حيا في تربك المعطاء
 لتطيل العناق عند اللقاء!

والأناشيد والزغاريد في كل
 كل ليل وإن تطاول ماشا
 قل لمريد إننا سوف ناتي
 قسما لن تنام عنك عيون
 قبل أن ترجعي إلى الوطن الأم
 سوف ينهار ما بنوه على الرمل
 فكفاهم ما اسعبدوك وماسا
 لم تطل بعدنا النوائب إلا

كان فيما ترى مراد القضاء
 لاح بدرا في الليلة الظلماء
 ويهدي بثاقب الآراء
 ني الذي قاد شعبه للبناء
 بك نشوى مواكب الشعراء

ها هنا أمة إذا ما أرادت
 وهنا عاهل إذا ما ادلهمت
 يتحدى الخطوب كالحمة الوجه
 بك يا صانع المفاخر والبا
 تتباهى أجيالنا وتغني

البساط المخملي

علي الصقلي

لـ مـخـمـلـي مـذهب
عليه نشر المصباح
كـرـبـرب إثـر رـبـرب
تـلـي كـذـرورة أحـدب
علـى مـداه المـصـجـب
لـبـعد مـارام مـتـعـب
لـا بـل مـن البـحـر أرحـب
يـضـمـمـه مـنـه أعـجـب

علـى بـسـاط مـن الرمـد
بدا كـوجـه غـديـر
وقـد يـمـوج فـيـبـدو
وقـد يـفـور، وقـد يـع
وقـسـفت ألقـي بـطـرفـي
فـيـرجـع الطـرف كـلـاً
بـحـر تـرامـي فـجـاجـا
وربـما كـان فـيـمـا

مـهد الجـمـال المـحـبـب
يـا مـا أرق وأطـيب
بـمـشـرق وبـمـغرب
غـضـارة وتـذوـب
أصـيل دوما مـخـضـب
لـألف سـر مـفـيـب
لـمـن غـدا يـتـرهب

البـيـد جـوا وأرضـا
نـسـيـمـها كـأريـح
وشـمـسـها لا تـدانـي
كـادت تـسـيل سـمـها
وأفـقـها بـدمـاء الـ
علـى ربـها جـلال
كـأنـهـا دار نـسـك

سد بين ذئب وثعلب
 لم في مستأهة سبب
 رف الخبيير المجرّب
 ل، واحتوى الكون غيب
 كنّصبة فيه كوكب
 إلى الصراط المصنوب
 فسادة الناس تنجب
 ح والخلق المهذب
 محمد خير من ذب ١٩

يا خائض الجة البيد
 حذار من ضلة، ث
 للبديد رائدها العا
 حتى إذا عسعس اللي
 أطل من كل صوب
 يهدي السّرة الحيارى
 إن تعقم البيد أرضا
 ومادة الفكر والرو
 أليس منهم فتاها

بكل مفنئ ومذهب
 فمن ثراها كصيب
 ومستقر ومكسب
 كانت إلى الله أقرب

الخير في البيد يجري
 ان لم يكف من سماها
 البيد خير مصلئ
 لذاك دون سماها

ملحمة المسيرة(*)

أحمد عبد السلام البقالي

إعلان المسيرة

طفوا الشر من حولنا وتمرد	ونادى بويلاته المستطيرة
وهدد وحدتنا وتوعده	بإبقاء صحراء أرضي أسيرة
وآلى على نفسه وتعهد	بتحطيم آمال قومي الكبيرة
وأظلم في أفقنا كل فرق قد	وزلزل أهل العقول الصغيرة
فنأداك ربك يابن محمد	وأوحى إليك بسر المسيرة

وناديتنا فسمعنا النداء	يجلجل بين الربا والجبال
يبشّر صحراءنا بالرجوع	إلينا، ويعلن قرب الوصال
فأيقظ فينا الحماس القديم	وألهب أرواحنا للنضال

سمعنا فجئناك من كل غور	بعميد، ومن كل فج عميق
ومساجت بأفواجنا أرضنا	وغطى بنا السيل كل طريق
وهب لنصرتنا كل شهم	وبان العدو، وبان الصديق

(*) من ديوان «أيامنا الخضراء» للشاعر أحمد عبد السلام البقالي.

في طرفاية

وفي طرفاية كان التلاقي
وشوق المومنين إذا تداعوا
وعادت ذكريات المجد تترى
بطارق وابن تاشفين وشعب
بمعركة المخازن يوم فزنا
وأحضان الحبيبة والعناق
لنصر الحق جاؤوا في سباق
معطرة بأنسام رقاق
يشق البحر ساعة الإنطلاق
وكان الروح قد بلغ التراقي

وتبنى الشعب المسيرة وانها
وأتانا التأييد من كل صوب
وأتى من أرض العروبة إخوا
وأتى من بلاد إفريقية السو
ورنا العالم المخدر مسحو
لت عليها أمواله بسخاء
وغدا خصمنا بلا أصدقاء
ن لنا في حمية وإباء
د لنصر الحجة البيضاء
را لشعب المسيرة الخضراء

وشيدت مدن وسط القفار كما
ورفرفت فوقها الأعلام معلنة
وجن أعداؤنا واحتار قائداهم
بقوا المتارس والألغام واعتصموا
وظن حارسهم نبض القلوب بها
لوقيل: كوني، فكانت! روعة الزمن
قرب انضمام جنوب القطر للوطن
في صد بحر من الأهوال والفتن
خلف المدافع في رعب وفي وهن
طبول حرب تزف النصر للحسن

الإقحام

وناديتنا يا أَجَلُ إمام
وقلت ادخلوا أرضكم بسلام
فسرنا معاً قدماً للإمام
بصوتك ذاك القوي الرصين
وعودوا لصحرائكم آمنين
نلبي نداءك مستبسلين

لببـيك لببـيك يا
لببـيك لببـيك عد
لببـيك عدنا إلى وحد
ذا الجلال والإكرام
نا لأرضنا بسلام
ل أقرب الأرحام

وصليت لله ركعتان
وفاضت القلوب بالإيمان
وتليت مصاحف القرآن
وعنت الوجوه للرحمان

وانتشرت زخوفنا المنسابة
وأصبـح المدفع والدبابة
واقترحنا أشواكهم وانتزعنا
واقتلنا حدودهم ومحونا
واحتلنا حصونهم ورفعنا
ورأى خصمنا العزيمة والإيد
فأتانا ببغي الوفاق، فُصُنَّا
ومددنا يد المودة للجـا
من حولهم كأنها سحابة
يبدو لنا كأنه ذبابة
ها، ودسنا الألفام بالأقدام
ها كمحو الصباح للأحلام
في سماها خوافق الأعلام
مان تجتاح أفقه المترامي
وجهه عن هوان الإستسلام
ر.. وهذي مكارم الإسـلام،

عودة المسيرة : إلى العائدين بالنصر

يد الله في يدنا واسمعه على فمنا في الضحى والفروب
تشع النفوس بالطافه ومن ذكره تطمئن القلوب

أيا عائدين بصحرائنا إلى الوطن الأم منتصرين
صنعتم لنا ولأبنائنا من المجد تاجا يضيء الجبين

بنيتم جسورا بأجسامكم إليها وأرصفة وسدود
ومنها محوتم بأقدامكم حدودا مزيفة لن تعود

وأعطيتمو مثلا في النظام وفي الصبر والبذل والتضحيات
فعودوا كما سرتمو في سلام بكم حقق الوطن المعجزات

فبشرى لكم بالذي قادكم إلى النصير هذا الإمام الحسن
وبشرى لكم باستجابتكم سراعاً لصرخة هذا الوطن

وطوبى لئلك على مثلكم دعائمه شيدت في الزمن
ومرحى لغربنا بإمام وشعب له بالفؤاد احتضن

وبارك ربي مسيرتنا وحقق أهدافها الطاهرة
فقد كشفت ظلمات الجحود بلالاء أضوائها الباهرة

إنزال العلم

وأتى قائد المسيرة بالبشرى بأن الصبح وراء ردت إلينا
وقضى الله ما قضاه، وقيل الحمد لله أن أفاء علينا

وقال القائد الأعلى رجوعاً فعدنا في امتثال وانسجام
وودّ الحاسدون لو انفجروا وهجنا، واندفعنا للامام
وهمناً كالجراد نعيث فيها فساداً، وانتشرنا كالهوام
فأذهلهم تماسكنا، وما شا هدوه من انضباط وانتظام
وقال الناس هذا الشعب حقاً جدير بالجلال والاحترام

وعلى قبة العمالة بالصح راء قـمنا في عـزة وإباء
أنزل الفاتحون رايتهم والـ دمع يجري والنار في الأحشاء
ورفعنا مكانها الراية الحمـ راء تزهو بنجمها الوضاء
سألموها تسليماً لمفاتيـ ح مقاني (غرناطة) الفيحاء
وأعدنا ما كان من حقنا ضا ع بعهد الأجداد للأبناء

قلائد المجد

عبد الواحد أخريف

ذكرى «المسيرة» عيد عاد يحيينا
بالفخر حل فهاجت فيه نشوتنا
طاف النديم بها في كل ناحية
عز على هامة الجوزاء رفرفه
شمس المعارف في أفاقنا سطعت
وللبطولة في تاريخنا صور
«أنوال» تنطق في صمت يجله
وفي «المخازن» صيحات الجهاد على
وفي معارك تحرير البلاد لنا
خبروا ونحن على أشلائهم قمم
إن كان زاد العدا فينا حديدهم
النصر في ركبنا زاه يعانقنا
نضيف كل غداة للعلا سندا
قلائد المجد تهوى جيد مقربنا
لا يكمل العقد حسنا غير واسطة
«مسيرة الحسن الثاني» وأمته
خضراء أرسلها والسلم في يدها
أسودها عبروا خطأ توهمه
رجالها الزرق والأفراح راقصة
عاث العدو فسادا في ديارهم

ويبعث الشعر شدوا من أغانيها
فقد نهلنا من الأمجاد ما شينا
فلم يجد غيرنا يحيا بماضينا
وسؤدد ظل للدنيا رياحينا
فعمت الكون إحسانا وتبينا
قد زركشت يدنا منها الميادين
من هيبة البأس طيف من عواليها
ربوعه لم تزل مسموعة فينا
قدسية سرها أقصى أعاديها
رغم العتاد الذي يفني الملايين
فزادنا الصبر، والإيمان حامينا
متى نناد يجيب النصر أمينا
وما تنفس صبح ليس يرضينا
لماعة درها يزداد تلوينها
وبالمسيرة فاق العقد تزيينا
بها توحد شمل الدار ميمونا
ومصحف الذكر يعلي شأنها دينا
عدونا فاصلا بين المحبين
يزغردون على بشرى تلاقينا
واسترخص الحر تعذيبا وتهوينا

والعسر بدل تيسيرا وتليينا
من الغنى حلا تزهو أفانينا
مغيرا وضعها شكلا ومضمونا
لفح الوجوه بها قد عاد نسرينا
«رضوان» زف إلى الأهل البساتينا
من الرياض غدت بالحسن تسبينا

و«المسيرة» سار الخير منهمرا
واليوم تنطلق الصحراء لابسة
صيفت مظاهرها صوغا يجدها
قد أصبحت جنة خضراء يانعة
بدا بها القفر جنات كأن بها
صحراء في الاسم إلا أنها قطع

والعيش تحت ظلال الخير يصبينا
وأصبح المهيع المهجور مامونا
زهورها ترتوي بالعلم تلقينا
كأنها القرن تشييدا وتحسينا
تعلي لأخر صرحا بين واديننا
وبايع الأهل - مذ كانوا - السلاطينا
حب لعاهلها يزداد تمكيننا
لأصبح الحر فيها بعد مسكيننا
مثل الحديد تلين الصخر تليينا
منه الطهارة شذاذا ملاعينا
والرجس ندفنه حالا بأيدينا

جرى بها السلسبيل العذب مندفعا
مسالك السير قد صارت معهدة
معاهد العلم تعلو في مراتبها
عشرون عاما من الإنجاز مؤتلقا
في كل نجد بناء شامخ ويد
أعادها «الحسن الثاني» لوطنها
في كل حبة رمل مد شاسعها
لولا إرادة حاميتها وعاهلها
إرادة «الحسن الثاني» وقد برزت
وحوله الشعب صفا واحدا رفضت
الطهر يعبق في صحرائنا جذلا

شدا به الدهر تسبيحا وتلقينا
شم المعاطس للعليا أساطينا
والفصن من جذره يسقي الشرايينا
وصانع المكرمات الفر يحيينا
مثل السراب فقد نلنا أمانينا

يا إخوة الدار عشتم للوفاء مثلا
جددتم عهد أجداد غطارفة
والفرع كالأصل إخلاصا لمبدئه
فلتهنأ الوحدة الكبرى بصانعها
وليأس الخصم من وهم يخادعه

أنا المغرب

أحمد بلحاج أية وارهام

أرسيت مجدي، فجاء الدهر يُلْثِمُنِي
من المسرة، معصوم من الشجن
مستخلص من بهاء الحلم والظن
وينتشي الوقت من خمري... ومن منني
تسمو به عن مقيت الطيش والإحن
وكيف يعثر من بالحب يقرؤني؟

على دعائم من دين ومن سنن
أنا الفخار الذي يخطو لمؤتلق
هذي مراتب عزي، ألقها عبق
ترقى التواريخ... لكن باسم منقبتني
أعطيت من حكمتي للعصر أجنحة
نحوي الجهات مشت، وما عثرت

وعن نجومى، فمني رائق السَحْنِ
هواء ينير الخطا في مظلم الزمن
بُرد السماحة في سر.. وفي علن

فاسأل سماء العلا عن شمس ألويتي
تخبرك عن مغرب أمست فضائله
ونبضة من رياض اليمن ناسجة

لولاي لم يَصْفُ نهر الروح للبدن

أنا الشمائل مزهواً تألقها

قصيدة من الشعر الحساني في مدح أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني

محمد عبد الرحمن الرباني(*)

عَنْ مَعْنَى شُكْرِ النَّاسِ انْزَادَ
مَوْرُوثُ امْنٍ ابْنَاتُ رَأْسَا
تَلِيدُ امْنِ الْكَامِلِ غَرَسَا
طَاهِرُ نَيْعٍ نَبَتِ نَفْسَا
فَوَكَّ الْبَشَرُ خَمْسَا
مُلَايَ الْحَسَنِ مُسَحَّسَنَ
عَلَوْ شُكْرُ يَاسِرُ سَنَ
مَنْ شُكِرَ اتَّكُولُ الْإِلْسَنَ
وَأَوْرَعُ وَعَلِمَ وَاتَّقَ وَخَسَنَ
وَالْكَرَمَ وَالْعَدْلَ وَالْبِرَّ وَالسَّنَ
وَارْجَلَ وَالْعَقْلَ وَالْعَبْدَ وَسَنَ
وَأَحْلَ وَرَوْجَلَ وَقَسَنَ
مَفْرُوفَ أَنَّكَ حَسَنُ بَسَنَ
سَيِّدَ مُحَمَّدَ لَكَ وَأَخَسَنَ
يُوسُفَ يَمْلَأِي الْحَسَنَ

مُلَايَ الْحَسَنِ شُكْرُ زَادَ
فَنَاتُ أَضْرَرُ عَنْ شُكْرٍ بَادَ
مِنْ سُبُطِ أُمِّ ثِنْتِي يَمَادَ
مَنْ فِي سَبِيلِ النَّبِيِّ وَأَدَ
زَكِي لِبَنَاتِ الْوِلَادَ
سَدَّ أَعْلَى قُومِكَ يَالْمَجَادَ
فِعْلُ كَوَلِ الْإِثْنَيْنِ الْكَوَادَ
بِلُّ لُ وَالْوَارِثِ تِلَادَ
وَأَمْنِ الْمُلُوكِ الْكَثْرُ مَفَادَ
مِنْهُمْ وَأَحْلَمَ وَأَمْتَنَ سَدَادَ
مِنْهُمْ وَأَخْشَقُ لِلْمُرَادَ
مِنْهُمْ وَالْكَسَ سَاعَتِ لِعَنَادَ
يَمْلَأِي مَانِكَ مَفْتَادَ
بُوكِ السُّرِّ الْفَيْدُ مِنْ .. لَايَ
وَالْكَسَمِ لَتِ الْخَلِّ مَوْلَايَ

(*) شاعر الوحدة الوطنية من الصحراء المغربية.

نصوص / وثائق

الشاعر عبد الله الفاسي يمدح السلطان مولاي عبد العزيز والشيخ ماء العينين(*)

قال الفقيه الأريب، النبيه الخطيب، السيد عبد الله الفاسي^(١)
الفهري.

هو ممن أعرفه بفاس، وكان إماما خطيبا في بعض مساجده.
وله في حضرته الشريفة مدائح، ومما وجدت له قوله، يهنئ أهل
فاس بقدوم شيخنا عليهم في بعض أسفاره للسلطان مولاي عبد
العزيز، ويمدحه ويمدح تأليفه "دليل الرفاق".

لقد نلت مجدا في قباب السعادة
وحاز مقاما دونه كل رتبة
عظام وأخلاق حسان حميدة
حببناه إله الخلق كل مزية
ومن ربه أولاه عظم مهابة
وماء عيون ان جرى فبطاعة
على نمط في الحسن قاض بعزة
عليك بها ان رمت نيل السيادة
"دليل رفاق" كان غاية حجة
له يخدم التيسير في كل حاجة
يصول على الاعداء بسيف العناية

أيا فاس تيهي مفخرا بالوفادة
وجاءت لك البشرية بمقدم من سما
أمام ولي ماجد ذو مواهب
هو الشيخ ماء العينين أصل بهائها
شفاء عيون الناظرين وسرهم
فماء عيون ان صفا فبسرهم
علوم له جاءت كمثل جواهر
تأليفه تنبئك ياطالب العلى
ولو كان إلا مآبه جاد منة
له الحظوة العظمى لدى الملك الذي
أبا فارس عبد العزيز ومن غدا

(*) انظر النص في : «الأبحر المعينية، في الأمداح المعينية، للشيخ محمد الغيث
النعمة، تحقيق أحمد مفدي، ص 642

بشأن ولي الله حقا قد اعتنى
وقد جنّته والسعد خادم حزبه
فيممته أهلا وسهلا ومرحبا
فطلعتنه نصر وفتح مؤيد
وعذرا، فليس النظم يحوي خصاله
حباني به المولى جزل مواهب
على حبه أليت مدمت باقيا
عليه صلاة الله ثم سلامه
مؤبدة مانمق العين ماؤها
وما قال من أضناه شوقا اليكم

فأحرز ماقد رامة من كرامة
ويمن له يسعى سريع الإجابة
بطلعة شيخ حاز أعلى وراثة
لسيدنا المنصور ركن الامارة
وهل شاعر وفي بفضل الأئمة
وأعظمها ان جاد لي بالطريقة
وكيف، ومن آل النبي وعثرة
وآل وأصحاب غيوث أجلة
وما خضر ربع من فيوض سحابة
أيا فاس تيهي مفخرا بالوفادة

الهوامش :

(1) في دليل مؤرخ المغرب الأقصى للسيد بن سودة 1 / 31 : هو العلامة المشارك الوزير، أبو محمد عبد الله بن الفقيه، سيدي عبد السلام بن علال الفاسي الفهري.

ولد في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة. وفي سنة 1304 هـ التحق بالقرويين. وفي سنة 1311 هـ، انتهى به المسار إلى الصحراء، ليكتب رحلة السلطان المولى الحسن الأول، المسمّاة : "المسلك البهي الحسن، في بعض ماكان يحسنه من العلوم مولانا الحسن". وفي سنة 1312 هـ، انابه جده في الخطبة العيدية، بعدما خطب أمام السلطان بالمسجد الأعظم.

كان شاعرا طويل النفس، كثير النظم. أهم موضوعات شعره : المدح والدعوة إلى إصلاح الذات المغربية، التي كانت قمة التجديد في عصره، كالدعوة إلى فتح الباب أمام المرأة كي تتعلم وتعمل، وإلى تشييد المدارس. له ديوان شعر كبير مخطوط في ملك أبنائه، كما أخبرني المرحوم العابد الفاسي. توفي عام 1348 هـ.

ترجم له الاستاذ محمد بن العباس القباج في الادب العربي 31/1.

السلطان مولاي عبد الحفيظ يستقدم الشيخ ماء العينين⁽¹⁾

يقول :

أيا قـمـر الدهر الذي تم نوره أضاءت بك الارحاء حتى تلالات وزاد سرورا في الخليقة وافرا فأهلا وسهلا مرحبا ثم مرحبا يؤمل جمع المسلمين قدومكم أنالك رب العرش كل فضيلة مقاما عليا للمكارم جامعها عليه صلاة الله ثم سلامه	ويا كعبة يحجها كل مقتد وأضحت تهني في الوري كل مقتد طلوع محياكم بهالة مقصد بطالع سعد في الخلائق مسعد كمالا لبشراهم بوفد مسدد وأقعدك الرحمن في أي مقعد على قدم المختار طه محمد وآله خير الخلق في كل معهد
---	---

يقول مولاي عبد الحفيظ يوم رجوع الشيخ ماء العينين الى
الصحراء :

ياتاركين قلوبا نحوهم ظعنت هلا منحتهم حبيبا من أحببتكم	ونائلين زوارا منهم الوطرا بسيرة معكم، يلقي بها الظفرا؟
--	---

(1) انظر النص في : الابحر المعينية في الامداح المعينية، للشيخ محمد الغيث
النعمة، تحقيق : أحمد مفدي، ج 1 : 657.

الشاعر عبد الواحد الفهري الفاسي^(١) يمدح الشيخ ماء العينين أثناء زيارته للسلطان مولاي عبد العزيز بفاس

وقال العالم الفقيه، الأريب النبيه، السيد عبد الواحد بن
سيدي عبد السلام، بن سيدي علال الفهري الفاسي.
كان من العلماء الأعيان، والأدباء الفتيان، وهو ممن أعرفه
بفاس.

وله في حضرته الشريفة مدائح، ومما وجدت له، قصيدة يهنئه
بها في قدومه على السلطان مولاي عبد العزيز بفاس، عام أربع
وعشرين وثلاثمائة وألف.
وهي قوله: (*)

ينادي "أهل" من مبصر طلعة القمر
وهب شذى الأزهار من دوحة الظفر
جداول أسرار البشارة في البشر
بفاس متى حل الهمام به "أنبهر"؟
ولكنه جسر الشريعة قد عبر
فليس الوري والكتب تكفيك للخبر
فكل لماء العين يفديه في البشر
على عالم الأرواح في سابق القدر
وتقتطف الأسرار من روضة الأغر
لصار بماء العين "يرسم" للدر

أهذا بروز البدر في الحفل الأغر
أم المسك قد فاحت عواطر نشره
أم الطير غنى في البطاح، فقهقهت
أم الجواهر المكنون قد فاض بحره
هو الحجة الكبرى في علم حقيقة
فان شئت تصرّحاً بأحصاء فضله
وان شئت تلويحاً لبعض فخاره
له النور من بحر الشريعة لامع
به تقوى أرواح المحبين جملة
فلو فتحت للفتح أبواب فتحه

ولو عاين المعيني رائق لفظه
ولو جر من فن القوافي ذيوله
ولو عارضت منه العروض ابن أحمد
فجل الذي أعطاه كل حميدة
وكيف ومن أبناء طه؟ لقد بدا
ولي تقي عظم الله قدره
إمام خضم بحر جود ورفعته
لقد طالما أولى مواهب سره
عليه جميع الخلق يفصح بالثنا
ففاس لقد تاهت بيمن قدومه
لذاك أمير المؤمنين به اعتنى
هو الملك المنصور من شاع صيته
لسيدنا عبد العزيز أميرنا
مكانته عليا، وبذله فائض
هنيئنا له بالمصطفى وبآله
لباب رسول الله يلجأ من غدا
يحط رحال القصر عند ركابه
يقول ايا خير الأنام محمد
عليه صلاة الله مهابت الصبا
وما أنشد المضي بحب جنابكم

لاكسبه من رونق العلم ما بهر
لألقي جرير للسلاح وما نكر
"لأنساه" ما أنشاه من قبل واندثر
وزاده فتحا قد أنار وما استتر
سنيا عفيفا مستقيما على الأثر
سني وسني شهير الندى أبر
مهيّب صفوح يذهب الجهل والكر
بفاس، وأهدى من نفائس تدخر
كما شاع في الأقطار سره، وانتشر
إذا المسك منها فاح والعنبر الزهر
وأعلم بالاجلال في البدو والحضر
له ساعد السعد العظيم به افتخر
مقام عزيز عزه ذاع واشتهر
له النصر يبدو والعناية والظفر
ليوث بدور وصفهم يبهر الفكر
ثقيلا بأحمال الذنوب وما قدر
يلوذ به مستشفعا مطرق البصر
أغثنى أجرني، ياملأ الذي عثر
وأليك والأصحاب ما ابتهج القمر
أهذا بروز البدر في المحفل الأغر

(*) انظر : الأبحر المعينية، تحقيق : أحمد مفدي، ص 507.

(1) ولد بفاس حوالي 1875م. كان والده عدلا وخطيبا. وبعد أن أنهى دراسته بالكتاب القرآني، التحق بالقرويين ليأخذ عن شيوخها آنذاك. ومن بينهم العالم أحمد بن الخطاط، والعالم محمد القادري.

عين في مناصب عديدة منها خطة العدالة، ثم عدلا في مرسى العرائش في العهد الحفيظي، ثم عين كاتبا بالمجلس العلمي بفاس. وأخيرا أسندت إليه وظيفة القضاء. حاول الاستعمار أن يدفعه إلى إقناع ولده الزعيم علال الفاسي بالتخلي عن نشاطه السياسي، ولما فشل، عزله من القضاء. توفي وولده في المنفى بالكابون في 13 نونبر عام 1942.

الشاعر الأمين بن اليدال الديماني

قصيدة للشاعر الأمين بن اليدال الديماني، أُلقيت أمام السلطان مولاي عبد الحفيظ سنة 1325 هـ، بمناسبة وفود قبائل الصحراء لتجديد البيعة وطلب السلاح، لصد الهجوم الفرنسي على جنوب المملكة المغربية، نقتطف منها مايلي: (1)

<p>عن النهج من صوب الهدى، ام مغالط؟ على الهزل بالخلط الذي انت خالط؟ وتم الحجا والرأس بالشيب شامط وقد بسطت خد الوفود البسائط؟ رمتك بأفلاذ الكبود الشناجط يساء بها ذو الاوبة المتواسط ولا شمس منها تستضيء البسائط ضياء سراج الحق اذ هو ساعط ومن ضربت يوما عليه الفساطط له الوصل لما أن تخبون الروابط على قدر أفهام القلوب ببساط إذا انكسرت عنها القلام الخواطط يؤمل فضلا من ذوي الفضل غابط على الجيد حليا زينته الأواسط فناهيك موسوط اليه واسط من الناس الاجاهل أومغالط</p>	<p>ألا فإلام اللهو، أم انت غالط وماذا الإنى إذ جد بالامر جده على حين يأتي الحلم من سفه الصبا وما لقديم العهد لم ترع حقه فعد، فلا عتبي عن الدهر بعدما بلى إنه الجسد المبين على التي وفي فلك العلياء لابد ر طالع سوى النير الوضاح في ظلماتها هو الشيخ ما العينين، ياخير من مشى روابطه مختومة العود للذي وهيبته تدهي العقول، وإنما وأقلامه يخططن كل كريمة أناخوا بباب الفضل عندك، والذي فجاء بهم مستقدم الركب كالذي شفيعا الى خير امرئ وطىء الثرى إمام همام ليس يجحد فضله</p>
---	--

(1) أنظر الأبحر المعينية، تحقيق أحمد مفدي، ص 489.

به السعد أضحى ناهضاً بعد كبوة
ولما تولى أصبح الأمر ناهداً
وأفـرخ روع الدهر من لزباته
وأفـجر ليل الحق بعد ظلامه
وأركس في نحر الاصيفر كيده
فلاهو في سلم فيقضي مرامه
ولا الحرب مسطاعاً مع الأمر جهرة
ولا بمطيق ينفذ الأرض عنوة
ليبلغ فاه حيث لاهو بالغ
فذاك أمير المؤمنين ومن له
ذكي الحجا بحر الندى قلم الهدى
وإمـا تـزره، أو تحل بداره
تجد عبقرى لازمىلاً معولا
فدى لامير المؤمنين نفوسنا
أعالي النرى أتوك من كل أمة
وماليط بالسبطين من علوية
وكالوفد من آل الاشج وناقص
ومن آل عبد الله محمود والذي
وللجكنى الوفد من خير فتية
وحايتها صاديها ومسومها
أولادهم الازكون والسادة العلى
لتعن بهم يامظهر العدل، إنما
تدارك بهم مامن عليهم سلبنه
وأرسل جماعات الجيوش وراءهم
وحقق منك الظن أن ستمدهم
فعمرى، لأنت البدر تشرق في الدجى
وأنت الذي تاتيك من كل وجهة

وركن المعالي بعد إذ هو ساقط
وأضحى قريرا عينه وهو غابط
وأرغد عيشا بعد أن هو قانط
وفي يده أضحى إذن وهو ساقط
فأهمل حرفاً بعد إذ هو ناقت
على الكيد بالقييد الذي هو غابط
فياخذ بالشرط الذي هو شارط
فتبسط بالكف الذي هو باسط
وماهو الابائس القلب قانط
مقام العلى عبد الحفيظ المرابط
سري الحلى للملك بالعدل ضابط
وأنت كما يرخي العنان المباسط
على عرض الأدنى ولا هو قاسط
وأموالنا أولادنا والاسـابـط
قبائل عزماً لهن أخالط
ومن آل بُوَحَبَّيْنِ ركباً أراهط
وأبناء شمس الدين حيث المراسط
من أحمد من دامن في العقد واسط
ومنا بني ديمان في الركب فارط
ولتكونها أغلالها والزواقط
إذا ازدان بالمجد الاناس الاواسط
يعين على الحسنى السرى المعابط
خيول الأعادي والسنون القواحط
مرابط خيل بعدهن مرابط
بوفق المنى، أو وفق ماأنت شارط
وقطر الحيا، والعام أشهب قاحط
وفود الورى من حيث تنأى المساقط

رباط الفتح مأوى الوافدين

للشاعر يحجب بن خطر

قصيدة للشاعر يحجب بن خطر آل الشيخ ماء العينين،
أنشأها بمناسبة تجديد القبائل الصحراوية انبيعة للمغفور له
محمد الخامس طيب الله ثراه عام 1958. يقول :

هليسنه ظاعنين وقاطنين
له تعنو الحواضر أجمعينا
لبيعته السنية حاملينا
أوانلنا لآلك الأطيـبـينا
هليسنهها الله رب العالمينا
ورثك لعرشهم دنيا ودينا
ضماف مسلمين ومخلصينا
ولا سكن بأيدي الكافـرينا
واطفال بقين مشـردينا
شجاع مانخاف به كـفينا
منسروف الدهر ابكارا وعونا
واوضح تحت حادثة جبـينا
بثـيلا عنه لم تضعف يقينا
رجعت مظفرا حصنا حصينا
بافراد لنـام خائـنينا
سريع قاطنين وظاعنينا
شـمـالا حين يزحف أو يمينا

رباط الفتح مأوى الوافدين
ومنظره البهيج بغير شك
أمير المؤمنين وقد أتينا
وذا شيء به نقفـوقـسـيما
ملوك المغرب الاقصي حـمـدـها
ونحمدده عليك اليوم يامن
خرجنا ارضنا طرا وفـيـيها
بلا مال هناك ولا مـعـاش
علوج الروم تخدمها نساء
بذا الجـزء الجنوب وانت ليث
(ولم ار مثلكم حشرت عليه
أقر على نزول الخطب جاشا
عن الشعب الوفي حملت كلا
به المنفى السحيق أثرت حتى
وكل الشعب حولك لايبالي
فـحـالهم يؤول الى وبال
بجيش منك يفعل ماعليه

فـعـجـل اننا لم نأل جـهـدا
 نسسينا ما وجدنا حيث انا
 وكنا لانفـرق بين ليل
 ولانخـشـى على ارض ومـال
 وما هو كائن في من الحال نرجو
 مجال الصبر أصبح في نفاذ
 شهورا من لياليه جمعنا
 وانا بالاله على الاعـادي
 ونروي من دمائهم سيوفا
 لانا في الحروب أشد باسا
 جمـمـوع عـداتنا في كل أن
 ولا نبغي بغير الحق شيئا
 ولا نحتاج ان نبدي ارتياحا
 وشوقا بالنجاح لديك حالا
 بقيت لنا كما في الدهر نهوى
 الى ان شـمـسنا يلفى جنوبا
 وفيه الراية الحمراء تعلو
 ودام لنا ولي العهد ذخرا
 ذكورا حيثما كانوا إناثا

متى جئنا لبابك راغبينا
 حططنا الرجل عندك أمنيـنا
 ويوم يامنـاخ المسنتـينا
 واهل بعد ذا حينـا فـحينـا
 سـريـعا ان يذاع وان يكونا
 وانصبنا تكلف مـالـقـينا
 ومن تعداد اشهره سـنـينا
 سنظفر يا أمير المؤمنين
 تطهر منهم الدنيـا يـمـينا
 على الاعداء ونحفظ ما يلينا
 بأيـد رجـالنا تلقى المنونا
 ولا نرضى بغير المسلمينا
 متى جئنا لبحرك واردينا
 ونرجع سـالـمينا غـانـمينا
 وتهوى يامـلـاذ الوافدينا
 شـمـالا واحدا قطرا مـكـينا
 ولا أخـرى به للناظرينا
 واخوته الامـاجـد الأكرمونا
 جميعا غائبين وحاضرينا

معركة الصحراء

للشاعر : أبو بكر المريني

بني وطني هبوا قد استفحل الامر
لقد بيت الاسبان فصل قفارنا
وردت الاخبار ماخططوا لها
وقد مزقوا ماقررت أمم بشأ
يريدون تزييف الارادة جهرة
لعزلهماعنا، وتعميق هوة..
وتنصيب أنصاف الرجال.. لدولة..
وقد هياؤا للحفر أبلد خطة
وقد جهلوا أن الفيافي منيعة
وأن أشقاء لنا في عيونها
فإن مسهم قرح تقطع قلبنا
ونحن هموكواحد عند عدنا
وإنا وإن فككت قيود شممالنا
فلا نستطيع أن نضم أحبة
ونحن كمخلوق أشل بنصفه
بني وطني ضجت قفاركمو بصي
قبائلنا في البيد شد خناقها
وخيراتنا نهب لأخبث غاصب
ودين علينا أن نحـرر أرضنا

وفرخ في صحرائنا الدس والغدر
عن الوطن الغالي وفي النية المكر
وماعزموا فطابق الخبر الخبر
نها، وطفوا باغين يحد وهموا الشر
بساقيتي الحمرا وواد هو التبر
الشقاق لكي ما يستمر بها القهر
وليس لهم في الحكم نهى ولا أمر
نراها، وفي الصحراء كم يصعب الحفر
وأن بها كم يسهل الدفن والقبر
وأنهمو عيوننا يشهد البر
وان مسهم ضر فقد مسنا الضر
سواء هنا أو ثم يجمعنا الصدر
فهذي يميننا يكبلها الأسر
بكلتا يدينا حيث يكتمل البشر
ومابنا من عاهة بل هو الأسر
حة النجدة الكبرى وقد نفذ الصبر
بمرتزق وراهب معه السفـر
وعمالنا فيها حصاد همو الصفر
ولن ينفع الاحرار في يومنا عذر

وقد أجمع الشعب الأبى على الفدا
وللحسن الثاني عقدنا لواءنا
ويل لخصمى أن تمادى بغيه
ومعركة الصحراء في قلب شعبنا
وإنالها عرشا وشعبا ودولة
ولسنا هيامى بالقتال وإنما
ليوث الوغى في شدة الفتك بالعدا
وانا لأهل السلم للمتقين بط
وإنا لقوم إذ نوقت للوغى
وتمشي المنايا في ركاب جيوشنا
وماهي الا كرة ثم ينتهي
بني وطني في قلب صحرائنا ابشروا
ويوم غد حادي الجمال يغنيكمو
فمهلا فإن موعدي معكم ضحى
ويعتز تاريخ النضال بشعبنا

وإجماعنا يقوده الملك الحر
لتحرير أجزاء الحمى فله الامر
وان يتحدانا فقد ضمه القبر
وقائدنا حتى يتم لنا النصر
لها الدم بخس والنفائس والعمر
إذا اضطرنا الاعداء كنا ولا فخر
ونسحقهم سحقا وموعدا الفجر
شنا، نحفظ السلام رائدنا الخير
لننقض في الهيجا كما يفعل الصقر
ويسبقها الاعصار والهول والذعر
ببيدائنا عهد يدعمه الكفر
فقد أشرقت شمس الفدا نورها نصر
بزهو بطولات الفدا كلها فخر
فإن لم يكن ضحى فموعدا العصر
وكم وشح التاريخ شعبي ولا فخر

اليوم المشهود

للشاعر : ابو بكر المريني

قف يا زمان فان اليوم مشهود
والحق يعلو، ولا يعلو عليه فقل
والحق مطلبنا، والعدل حجتنا
"لاهاي" أنصفت لتاريخ مقسطة
قد أكدت بيعة الصحراء قاطبة
كفاك لها وتضليلا وسفوسة
وليحذر الجار من طيش، ومن شطط
فالشعب كالموج لهاج بوحدته
والله اكبر تعلو في مسيرتنا
وكل حبات رمل البعيد راقصة
لبيك صحراءنا لبيك من حسن
نفديك من كل طماع ومفتصب
عهد علينا انتزاع الحق مكتملا
وحققنا يزحف الشعب العظيم له :
الشمس تسطع والايام شاهدة
واليوم هجرتنا لله نعلنها
أعلامنا الحمر في الصحراء نرفعها
وفي يد مصحف، وفي يد علم
جننا نرف سلاما في مرابعنا
انا لنكتب بالقرآن ملحمة

الحق جاء وظل الله ممدود
لمن تربص : للتزوير تفنيـد
والسلم خطتنا والحكم تأييد
وللعادلة تقدير، وتمجيد
لعرشنا، فحذار اليوم مدريد
لاينفع اليوم تدليس، وتعقيد
فما لجرح ذوى الارحام تضميد
والعزم فينا على التحرير معقود
والنصر آت تحييه الزغاريد
شوقا لاقدامنا، لبيك يا بيد
ومن رجال هم الصيد الصناديد
والمجد في مفرق الصحراء تأبيد
ولا يخيف جموع الشعب تهديد
فينا فداء مدى الأزمان معهود
ان الطريق على الاعداء مسدود
خضراء في خطوها سد وتسديد
والله اكبر تهليل وتحميد
وفي اللسان كلام الله تجويد
لاخوة حبلهم بالله مشدود
لها خلود، وتمجيد، وترديد

في المغرب اليوم الحشر نسبقه
 مسيرة الفتح والاعلام خافقة
 كأنها رجة في الارض منبئة
 والشمس تشرق من اقصى مغاربها
 والشعب بالرائد المقدام ملتحم
 من ذايرد الامـازيغ الأباة على
 من يستطع رد آلاف مؤلفة
 والله أكبر في الدنيا مجلجلة
 والله أكبر بالصحراء تجمعا
 كأنها الرعد في الاجواء مرعبة
 فليتعظ جارنا انا زبانية
 ونحن بعنا الى الرحمان أنفسنا
 والله أيدنا بالجند من مـلا
 من يعتصم بك ياالله تنصره

على مدى البصر الممدود مشهود
 قوامها الشيب والشبان والغيد
 بساعة الخصم فهو اليوم مؤود
 خلاف عاداتها، واليوم موعود
 عرش وشعب، وتحرير وتوحيد
 أعقابهم؟ ولهم في زحفهم عيدا؟
 تسعى الى رحم والقلب معمود؟
 مهيبة، مالها حد، وتقييد
 والله أكبر للارحام تجديد
 يخشى صداها عدو الله رعديد
 ونارنا سقـر، والعار تنكيد
 والببيع لله ربح كله جود
 أعلى ومـالجنود الله تحديد
 وان نصـرك يا الله منشود

سلا، في 1975/10/21

رسالة حب للعيون

للشاعر : أبو بكر المريني

بعميون ملأى بكل حنان
لم يعد قادرا على الكتمان
لعناق النخيل والكثبان
لك يا صحرائي من الطفيان
وسلام الإخوان والجيران
بماق أغنت عن الترجمان
تتبارى على ارتقاء العنان
وهموفي عرس وفي مهرجان
ر والزغردات والقمرآن
عدهم إلا مانع الإمكان
وتحايا عطر، وبكر التهاني
في فؤاد من المسك والزعفران
من العدا بل ماكان في الحسبان
من محب مستقيم ولهان

هاأنا قدام إليك عيونني
وبقلب فاض الهوى، فيه حتى
وبنفس ضمأى للقياك ظمأى
وسأمشي على عيونني فداء
حاملا أشواقى وأشواق أهلي
ودعوني والدمع يجري ابتهاجا
ومناديلهم حمامات بشر
كي أراها وقد تناءيت عنهم
كلهم قد بحت حناجرهم بالنصد
كلهم مششتاق إليك وما أق
حملوني إليك أغلى الأمانني
حملوني رسالة رقوموها
ملئت حبا عارما فوق ماض
فأقبل بها مني سفارة حب

مراكش، في 1975/10/28

قلعة المجد

أبو بكر المريني

يا قلعة المجد بل يا قبلة الأمم
وردية الخد تسبي من يغازلها
سمراء تحتضن العشاق في وله
فيحاءكم تفتن الفاوين ساحتها
حسناء لاتلد الأيام ضررتها
تكفي منارتها للناس معلمة
تروي بطولاتنا من عهد وحدتنا
وإنها الشاهد المعصوم من خطا
مراكش الحصن منها الزحف منطلق
والنخل يرقص فيها اليوم منتشيا
يعانق الشمس في عليائها جذلا
كأنه كاتم الأسرار مؤتمن
فالיום قد بعث ابن تاشفين بها
والله ألهمه نهج الفتح ثانية
ويحملون كتاب الله قوتهم
يسعون للأهل في البيد التي اغتصبت
من كل فج عميق حج وفدهمو
وفد كأنه بركان تفجر بفتة
وإنه قسم لو تعلمون عظيم
فاخلوا السبيل له يحي روابطه

أغرودة أنت للدنيا بكل فم
هيفاء تختال في الأعراس والنعم
فيفرقون بها في السحر والنغم
عطفاء مشهورة بالظرف والكرم
بها قباب العلا خفاقة العلم
يبلى الزمان ولا تبلى من القدم
بالدين والفكر والعادات والرحم
يعيا الخطيب ولا تعيا من الكلم
إلى ربوع عليها حالك الظلم
ويمتطي صهوة التاريخ في شمم
وقد أطل على الصحراء والقمم
على سرايا الهدى والحق والقيم
محارباً بسلاح العقل والحكم
بالزاحفين إلى الصحرا على قدم
مؤيدين بأي الفتح والقلم
ولم تعد لهم موصولة الرحم
يرجو الشهادة أو يقضي على الصنم
.. فسادش كل الخلق بالقسم
.. من مليك وشعب عالي الهمم
أو تقتلون نفوسكم من الندم

شعب المسيرة في التاريخ والكتب للشاعر : أبو بكر المريني

حر أبي، كريم النفس والنسب
وذو ملاحم لاتنسى مدى الحقب
تعلو على قمم الجوزاء والشهب
تروى حضارته عن شامخ الرقب
تعز في أمم الأعجام والعرب
بالفخر والعهز لبالدر والذهب
فسل مسيراته تغنيك بالعجب
ولن تزحزها حمالة الخطب
أعزهم، وابتلى الأعداء بالنبوب
ولست باللقب الملقى على لقب
سها، ومهما يكن فيها من الخطب
ولا أهاب نعيق البوم في الخطب
بالامس تسعة رهط من أبي لهب
ت بعضهم مثلاً في شدة الهرب
وكيف كانوا وقود النذر واللهب
من المخازن حتى وادي الذهب
لم تجد فيهم مساعي الأخوة النجب
هم حليف عدو الله والكتب
بنس الولي، وبنس الحلف من قصب
بنس الوقود برهط من أبي لهب

شعب المسيرة في التاريخ والكتب
شعب الأصالة ذومجد وذو شيم
شعب البطولات ببني المجد في قمم
شعب المكارم والحصن الحصين لها
شعب به تضرب الأمثال في قيم
شعب الفدا كلل الأبطال هامته
شعب تألق بالآفداد من قدم
شعب بدين الهدى أرسى قواعده
شعب إذا طلب الإخوان نجدته
شعب التحدي أنا، شعب الصمود أنا
وسيد في الوغى مهما استعر وطيد
وعدتني الحق والرحمان ينصرني
سلوا السمارة عني حين هاجمها
كيف لقوا حتفهم ليلاً، وكيف جعل
وكيف رددت الأنبياء خزيمهم
حرب صليبية ضدى أواجهها
تدار بالأخوة الجيران والأسفا
فقد أباحوا دماء المسلمين وغر
فيامن اتخذوا الشيطان قائدهم
كونوا وقودا لحرب الظلم وانتحروا

شعب الشعارات والتزييف والصخب
أمني وديني، شريف النفس والنسب
أكرب به بطلا يسمو على الرتب
جروه للحرب ألقاهم على النصب

شعب التحدي، أنا شعب المسيرة لا
وقائدي الحسن الثاني الأمين على
أعظم به قائدا أكرم به نسبا
إن يدع للمسلم كان العبقري، وإن

سلا : 2 نوفمبر 1979.



يعلم من هذا الكتاب انكم لم تزلوا في غير الاحكام والسنن كنتم تزلوا بحول وفوتة وصا على يمينه
 ومفتة جده العظيمة البقية النابت السالك افقوا السالك الجدير ليدركوا كل حق
 واعتبار واعتباروا كبار في السن والمؤمل والمحمد والمؤمل والمحمد والمؤمل من
 لولا صلواته لا والله في المثلث والاعتبار والاعتبار بالاعتبار والاعتبار من المثلثا وشيخ
 من كرم العباد والمثلثا من كرم العباد والمثلثا من كرم العباد والمثلثا من كرم العباد
 وصيادته للغة الغفران ابي عبد الله الشيخ محمد بن ابي طاهر ليرى المصوم بكرم الله الشيخ
 ملا العتيبي الشجيرة في كرم العباد من كرم العباد والمثلثا من كرم العباد والمثلثا من كرم العباد
 روجه في هذا الكتاب من المجلد والكتاب في هذا الكتاب من المجلد والكتاب في هذا الكتاب
 في المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 والتجديد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 حيدته في سبيل الدواعي من حوزة الدين والعرفان والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 اخلاصه في سبيل الدواعي من حوزة الدين والعرفان والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 لغته في سبيل الدواعي من حوزة الدين والعرفان والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 من تلك الكثرة والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 على ما علمه من التوفيق والاعتبار والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد والكتاب من المجلد
 ورأيت وتولي في كتابه وحمل محامير فيه برأيه ونزاهته تجديدا وانوارا تارة
 من الامور انما عليه من المثلثا وركلة شربا لمرئيه ان يشتر انزرا ويعلم قدره ويحمل مقتضاه
 ولا يحبس عن فؤيد منجه ولا يتعدال والصلام صوريه امرنا لمقتضى بدلتنا نعلم في علمنا
 صبر الخير عام 1381 الهجري الموافق 14 يوليو سنة 1964 هـ بجل من هذا الكتاب الشريف بوزن الساج

محمد الحنا
 السركر

